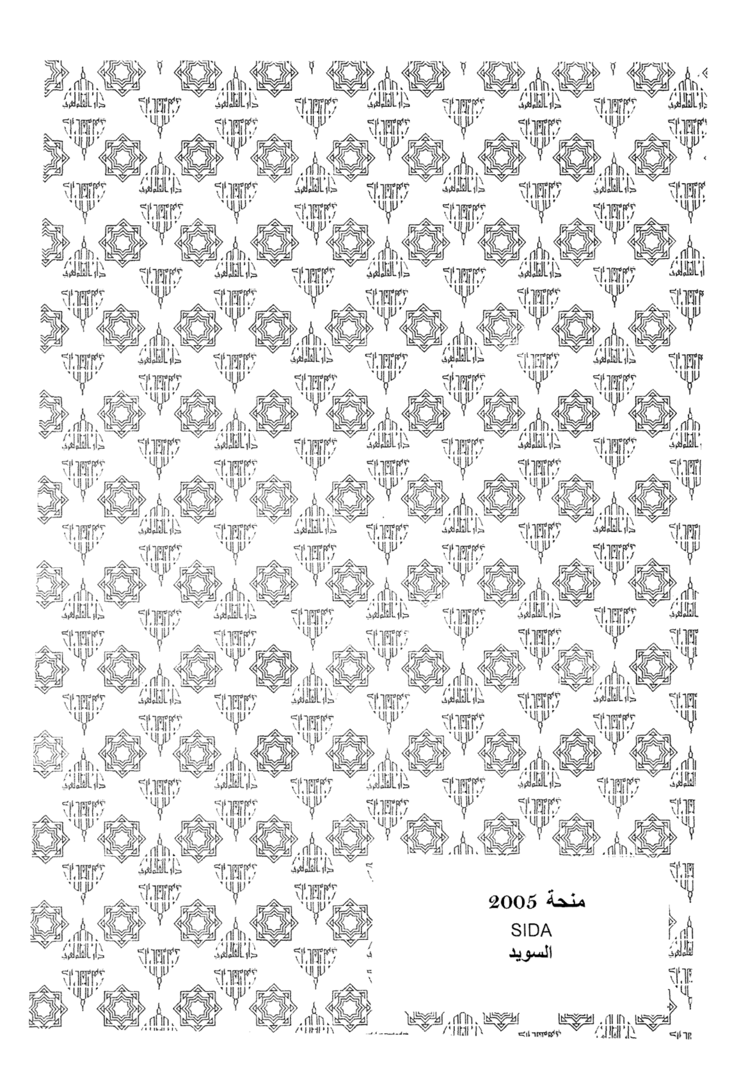
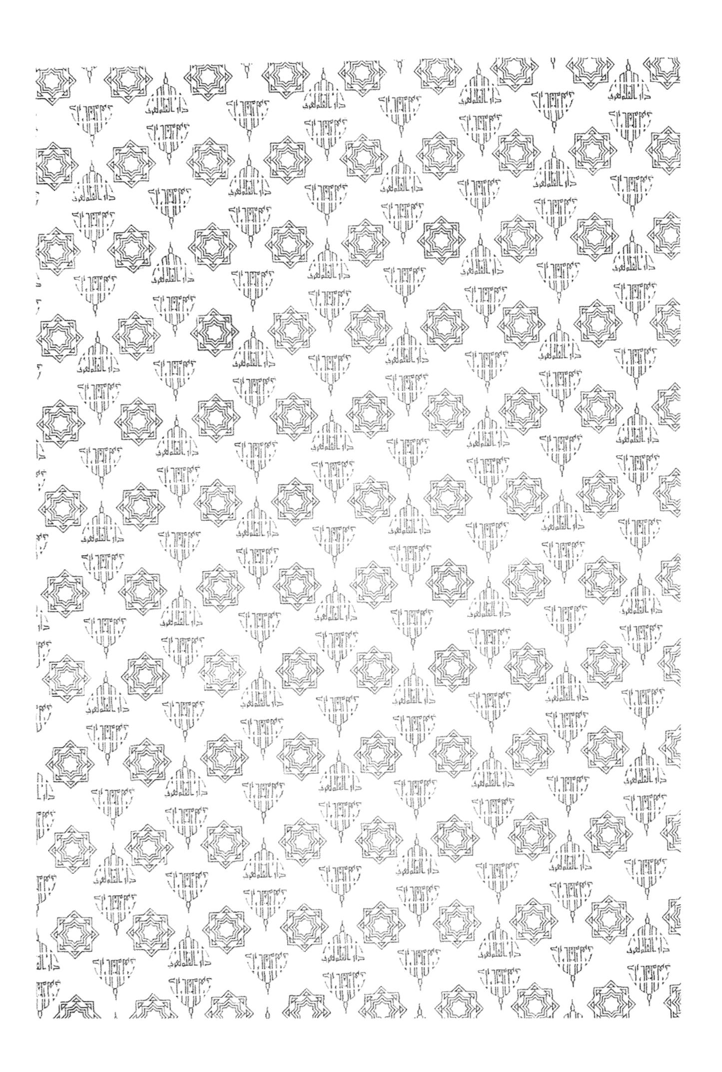

تاريخ شعراء العربية
شعراء
العصر العبَّاسي
الأول
١ - ١٦
دار القلم العربي


منحة 2005
SIDA
السويد





تاريخ شعراء العربية

بشار بن برد

شعراء العصر العباسي الأول



إعداد وشرح
لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُورِيَة ـ حَلَبْ ـ خَلفَ الفنْدُقِ السيَّاحِي

شارع هدى الشِعْرَاوِيْ .

هاتف | ٢١٣٦٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٢١٢٣٦١، ٢١٠٠٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مولده ونشأته

وُلِدَ بشّارُ بن بُرْد في البصرة أَكْمَهَ (١) ، ونشأ في بني مواليه من بني عقيل القيسيّين ، وتبدَّى (٢) لنَهْلِ اللغة الفصحى ، ثم خاض في مراء (٣) المعتزلة ونَسَجَ على منوالهم ، غير أنه اختلف مع بعض رؤسائهم فيما بعد ، من أمثال واصل بن عطاء . وقال واصل في إحدى خطبه : أمَا لهذا الأعمى المُلْحِد المشنَّف (٤) المكنّى بأبي معاذ مَنْ يقتله ؟

فقد نقموا عليه مجانَته ، وغزله الفاحش ، وآراءه المتطرّفة ، حتى أباحوا دمه .

داعيةُ فسَاد

كان بشارٌ داعية عُهْر ، وبوقَ فساد ، يهتفُ لعناصر الشّرّ ومنازع الخطايا في الإنسان ، ليستثيرها ، ويجعلها محور حياته ، يقول :

---

(١) أكمه : أعمى منذ الولادة .

(٢) تبدّى : خرج إلى البادية .

(٣) مراء : جدل .

(٤) المشنف : الذي له قرط في أذنه .

مَنْ راقبَ الناس لم يظفر بحاجتِهِ وفازَ بالطيّباتِ الفاتِكُ اللّهِجُ (١)

وقال أيضاً :

لا يُؤيِسنَّكَ مِنْ مُخبَّأةٍ قولٌ تغلّظُهُ وإنْ جَرحا
عُسْرُ النساءِ إلى مياسرةٍ والصَّعْبُ يمكنُ بَعْدَما جمَحا

ومن يقرأ قصائدَه ، مثل الرائية :

قد لامني في خليلتي عمر ....

والرائية الأخرى :

عجبتْ فطمةُ من نعتّي لها ....

يدركْ مدَى اجتراء هذا الشاعر على التّصوير الحسّيّ الفاضح .

شعوبيته وزندقته

نفّر الناسَ عن بشار أيضاً شعوبيته وزندقته ، فقد كان يميل إلى الفرس ويُؤْثِرُهم على مَنْ سواهم ، ويردّد أحياناً آراء المجوس وعقيدتهم ، فيقول :

إبليسُ أفضلُ مِنْ أبيكم آدمٍ فتنبّهوا يامعشر الفُجّارِ
النارُ عنصرُهُ وآدمُ طِينةٌ والطِّيْنُ لايسمو سُمُوَّ النّارِ

---

(١) الفاتك : الذي يُوْقع بخصمه . اللّهج : الذي يصرّح بما يريد .

ويقول أيضاً :

الأرضُ مُظلمةٌ والنَّارُ مُشْرِقَة   والنّارُ معبودةٌ مُذْ كانت النّارُ

ملامحه

كان بشَّارٌ ضخماً ، عَظيمَ الخَلْق ، كبيرَ الوجه ،مجدوراً ، طويلاً جاحظَ المُقْلتَيْن ، يُغَشّي عَيْنَيْه لحمٌ أحمر .. وكان إذا أرادَ الإنشادِ صفّقَ بيديه وتنحنح ، وبصقَ عن يمينه وشماله ، ثم ينشد ، فيأتي بالعَجب (١) .

أصله وأسرته

وُلِدَ بشَّارُ بن بُرْد بن يَرْجوخ في البصرة ، وجدُّه يَرْجوخُ مِنْ طُخارستان ممَّن سباهم المهلّب بن أبي صفرة والي خرسان (٧٩ - ٨١ هـ) . ومن أجل ذلك نشأ ابنه بُرْدٌ على الرّقّ . وكان أوّلاً في عِدادِ رقيق خيرة القشيرية امرأة المهلّب ، ثمّ وهبْته لامرأة من بني عُقَيْل ، وفي مُلْكها وُلِدَ له بشارٌ على الرّقّ ولم تلبث العقيلية أن أعتقت برداً ، وبذلك عُدّ هو وابنه في موالي بني عقيل . وقد نَسَبَ نفسه من جهة أمّه إلى الروم ، إذ يقول :

---

(١) الأغاني ٣/٣٨ و ١٤١ .

وقيصرٌ خالي إذا   عَدَدتُ يوماً نسَبي

فإنْ صحَّ ذلك كان فارسيَّ الأب ، روميّ الأمّ . وكانت أمّه تُدْعى غزالة .

وكان بُرْدٌ طيَّاناً يعيش مِنْ ضرب اللبن ، معيشةً تقوم على الشَّظَف وكان له أخوان بشر وبشير ، وكانا قصَّا بَيْن يبيعان اللحم ..

وكان لبشار امرأة تدعى أمامة ، وهو يُكثُرُ في أشعاره مِنْ ذِكْر أطفاله الصغار يستعطف بهم ممدوحيه حتى يُضاعفوا له الجائزة . ومات له ولد اسمُه محمّد ، وبنْت صغيرة .

ابتداؤه الشعر بالهجاء

لم يكد بشار يبلغُ العاشرة حتى أخذَ يَنبوعُ الشعر يسيلُ على لسانه . وكان الهجاءُ حينئذ يضطرم في موطنه اضطراماً، إذْ كانت النقائض مستعرةً في مربد البصرة ، فكان غيرَ مستبَعد أن يخوضَ في الهجاء ، وقد أسرف فيه حتى صار الناس يشكونه لأبيه ، فيضْرِبُه على هجائه ، وكانت أمّه لاتزال تستعطفُ زوجها بُرْداً ، فيقولُ لها : إني لأرحمُه ولكنه يتعرّضُ للنَّاس . فقال بشار لأبيه : إذا جاؤوك يشكونني فقل لهم : أليسَ الله يقول : (ليس على الأعمى حرج) فلما عادوا إلى بُرْد يعيدون شكواهم تلا عليهم الآية ، فانصرفوا وهم يقولون : فِقْهُ بُرْدٍ أَغْيَظُ لنا من شعر بشار .

مقتله

هرَبَ بشّارٌ من البصرة اتّقاء وعيد العلماء له ، بسبب إباحيّته ، وصارَ يمدُح الحكّام ليكونوا لـه غَضُداً ، ويمتاحَ من عطائهم ، حتى إذا كان عصر المهديّ سعى بشار حتى استطاع أن يتّصل بالبَلاط ، ومدح الخليفة المهديّ فوصله بعشرة آلاف درهم ، ووهب له عَبْداً وقيْنةً (مغنّية) وخلَع عليه خِلَعاً كثيرة وجعله من سُمّاره ومَنْ يحضرون مجالسه . وكان في المهديّ اهتمامٌ بشؤون الدِّين ، وانتهى إليه من غير وَجْهٍ أنّ بشاراً يفسدُ النّساء والشَّبابَ بغزله المكشوف ، فأمره أن يكفّ عن ذلك ، وكفّ بشار على مضضٍ ، وأخذ يرددُّ في أشعاره أنّه ترك الغزل والنَّسِيب ، نزولاً على إرادة الخليفة ، مثل قوله :

يامنظراً حسَناً رأيتُه ... مِنْ وَجْهِ جاريةٍ فديتُهْ

بعَثتْ إليَّ تَسُومُني ... بُرْدَ الشباب وقد طويتُه

واللهِ ربِّ محمَّدٍ ... ما إنْ غدرت ولا نويتُهْ

إنَّ الخليفةَ قد أبى ... وإذا أبى شيئاً أبَيْتُهْ

ونهانِيَ الملكُ الهُمام ... عن النَّسِيبِ وما عصيتُهْ

ولكنّه لم يكفّ عن غزله . ثم ترامتْ إلى الخليفة أنباء زندقته ، وماكان يغرق فيه مِنْ مجون ، فحرمه جائزته ،ولاَنصِلُ إلى سنة ١٦٦ هـ حتى يتعقّب المهديُّ الزنادقة ويقتل منهم خَلْقاً كثيراً ، ويلزمُ بشارٌ البصرةَ إشفاقاً على نفسه

غير أنّه لايصمت ، بل يأخذ في رثاء أصدقائه الذين يُقتّلون على الزندقة ويهجو المهدي ووزيره يعقوب بن داود هجاء مقذعاً ، ويقدّم المهدي إلى البصرة في سنة /١٦٨/ ، فيشهد أمامه شهودٌ موثّقون بأنّ بشاراً زنديق ، حينئذ يأمر بقتله . فقُتل عام /١٦٨/ هـ .

هل كان بشّارٌ مجدِّداً

كانَ بشّارٌ ألمعَ شاعر في عصره ، وأضخمَ صوتٍ في هذا الفنّ ، في فاتحةِ العصر العباسي ، وأدّى سبقُه الزّمني إلى وَهْم بعض الدارسين أنّه كان رائدَ الشعراء في العصر العباسيّ ، حتى في فنّه وأسلوبه ، وكأنّهم ظنّوا أنَّ انقلاب السياسة لابدّ أن يتبعه انقلاب الفنّ ، وكلُّ ذلك خطأ ، فبشّار أوّل الشعراء العباسيّين ، ولكنّه ليس رائدَهم في هذا المضمار ، وقد كانَ ثمّة شعراء كثيرون عاشوا في تلك الآونة ، وكلّهم كانوا يخالفون مذهبَه الأدبي .

لقد رأى بعضُ النّقّاد بشّاراً يتَغزّل غزلاً حسّيّاً ، ووجده يصرّحُ بآرائه الشعوبيّة والهدّامة والفاسقة ، فقالوا هذا مذهب جديد ، وصاحبُه رائدٌ فيه . وكأنّهم لم يتساءلوا ألمْ يطرقْ أحدُ سابقيه هذه الأغراض ؟ أوَ لمْ يسبقْه في الغزل الفاحش امرؤ القيس ، وفي الشّعوبية والزندقة لفيفٌ من شعراء الموالي في ذلك العصر ؟ (١)

---

(١) اقرأ في هذا الموضوع كتاب الصراع الأدبي بين العرب والعجم للدكتور محمد نبيه حجاب (المؤسسة المصرية العامة سنة ١٩٦٣) .

بشارٌ مسبوقٌ إذاً في أغراضهِ ، ولايخوّله أنْ ذَكَرَ بعضَ أشياءَ من عصره أنْ يعّد مجدِّداً ، ففي ديوان كل شاعر أشياءُ من هذا القبيلِ تجدُها عند غيره وأسلوبُ بشار الذي عرض فيه موضوعاته قديم معروف منذ الجاهلية . وبشار من أتباع ذلك المذهب القديم في الشعر .

المديح والفخر

يعد المديحُ أهمَّ غرضٍ وصل بشاراً بالتراث القديم ، فقد حافظ فيه محافظةً شديدة على طريقته الموروثة ، سواءٌ من حَيْثُ جزالةُ الصياغة ورصانتُها ومتانتُها ، أو مِنْ حيث المنهج الذي سار عليه القدماء ، إذ كانوا يقدّمون بين يديه وصفَ الأطلال والنسيب والغزل ووصف الناقة ورحلتهم عليها في الصحراء ، مستطردِين إلى وصف بعض مشاهد الطبيعة الصحراوية والحيوان . ثم يخرجون من ذلك إلى المديح ، فيشيدون بمآثر الأفراد والقبائل ناثرين في أطراف قصائدهم بعض الحِكَمَ .

وكلٌّ ذلك احتذاه بشار في كثير من مدائحه ، بل لقد احتذى أيضاً معاني القدماء وأخيلتهم ، وبلغ من شدّة هذا الاحتذاء عندَه أنْ نَظَمَ بعض مدائحه على غِرار أراجيز رؤبة مُكْثراً فيها من الغريب الوحشي على نحو ماهو معروف في أرجوزته :

ياطَلَلَ الحيِّ بذاتِ الصَمَدِ

وإذا تركْنا إطار المديح ومقّدماتِه إلى معانيه التي ساقها في وصف الخلفاء والولاة وجدْناه يخلع عليهم من الشّيمَ والقيَمِ ماكان يخلعُه الجاهليون والإسلاميون على ممدوحيهم من الكرم والمروءة والشجاعة والنجدة وإباء الضيم وكان الإسلاميون من أمثال جرير والفرزدق قد لاحظوا الفرق الحادث بين مَنْ يمدحونهم من الخلفاء والولاة وبين سادة القبائل في الجاهلية ، وأسبغوا عليهم كثيراً من الصّفات الدينية والزمنية (الدنيوية) ونرى بشاراً يقتدي بهم ولاسيمّا في مديحه للمهدي . وكان طبيعياً أنْ يستمد معظم معانيه في المديح من القدماء ، وهذا نفسُه يلاحظ على مقّدماته الطّللية والغزلية .

بائية بشار

مَدح بشارٌ بهذه القصيدة يزيدَ بن عمر بن هبيرة والي العراق ، بعد انتصاره على الخوارج الذين استولوا بزعامة الضّحّاك بن قيس الشيباني على البصرة ، فاستردّها منهم يزيد ، وهو يستهلّ قصيدته بالنسيب ، على شاكلة الجاهليين ، فيقول :

جفا ودُه فازورَّ أو ملَّ صاحِبُهْ ... وأزرى به أنْ لايزال يعاتبهْ (١)

خليليَّ لاتَستنكرا لوعةَ الهوى ... ولاسَلْوةَ المحزونِ شَطَّتْ حبائبُه (٢)

شفَى النفسَ ماتلقَى بعَبْدةَ عينُه ... وما كان يَلْقَى قلبُه وطبائبُهْ (٣)

---

(١) ازورّ : انحرف . أزرى به : حطّ من قدره ، عابه . (٢) شطّ : بَعُدَ .

(٣) الطبائب : جمع طِبّة ، وطبيبة ، وهي الجلْد .

فقد صرم خليله حبل مودته ، وتنكب سبيل محبته وسئمَ مُعاشِرَه الذي طالما لجَّ في معاتبته ، ويخاطب الشاعر صاحبين له على طريقة القدماء ، ويطلبُ إليهما ألاّ يَسْتنكرا أمرين ، أولّهما بتاريح الحبّ والآخرُ تَسَلّي الكَمدِ المحزون عمّن فارقَهم .

وكلُّ هذا ينطبقُ على عبدةَ ، فهو ملتاعٌ بحبّها، متألّم ، جفاه الكرَى ، مع ذلك يخبرنا أنّ حدّة هُيامه قد خفّتْ ، وإن لم يكنْ قد نسيها نسياناً تاماً ، فما زالتْ ذكرياتُها تعاوده :

فأقصَرَ عِزْرامُ الفؤاد وإنّما يميلُ به مسُّ الهوى فيطالبُهْ (١)

ثمّ يذكر بعض آداب الصّداقة ، ويبثّ خلالَ ذلك شيئاً من الحكم . فحذارِ إن كان لك أخ قد ارتوى من كأس حبّك ثم حلَّ ميقاتُ سفره أن تحولَ دون هذا السفر ، أو تَعْلَقَ به ليصحبَك في ترحاله . وإنَّ أخاك الحقّ مَنْ إذا لَفَتَّهُ إلى منقصة فيه قَبلَ منك نُصْحَك ، وإذا عاتبتَه قَبلَ عتابك ، هذا من ناحيته هو أمّا من ناحيتكَ أنتَ فَإيّاكَ أنْ تتمادى في معاتبته ، واعلمْ أنك أمامَ خِيارَيْن اثنين :

أن تعيشَ وحيداً فريداً لاصديقَ لكَ ، أو تصلَ صاحبَك الذي يُخطِئُ مرّةً ، ويصيبُ مَرّةً . ولن تجد صديقاً معصوماً من كلّ الأخطاء ، ومثلُ ذلك كمثل الماء ، فإنْ أنتَ أصررْتَ ألاّ تشربَ إلا عَذْباً وجدتَ نفَسَك مضطراً اضطراراً في بعض الأحيان أن تتعاطى الماء المشوب ، وحسْبُكَ أن ترى صديقاً تُحْصَى أخطاؤه :

---

(١) عزرام : قوّة .

إذا كـان نوّاقاً أخـوك من الهوى موجّـهةً فـي كـلّ أوْبٍ ركائبُهْ (١)
فخَلِّ لـه وجهَ الفِراقِ ولا تكنْ مَطيَّةَ رحـالٍ كثيرٍ مـذاهبُه (٢)
أخـوكَ الـذي إنْ رِبْـتَهُ قال إنّما أربْـتُ ، وإنْ عاتبْتَهُ لانَ جانبه (٣)
إذا كـنتَ فـي كلّ الأمـور معاتباً صديقَك لم تَلْقَ الذي لا تُعاتبُه
فعِشْ واحداً أو صِلْ أخـاكَ فإنّـه مـقـارفُ ذنـبٍ مـرّةً ومُجَانِبُهْ
إذا أنتَ لم تشربْ مراراً على القذى ظمئتَ وأيّ الناس تصفو مشاربه (٤)
ومن ذا الذي تُرْضَى سجاياه كلُّها كفى المرءَ نُبْلاً أنْ تُعَدَّ معايبه

ثمّ يعزم بشارٌ على الرحيل من البصرة ، اجتناباً للعاقبة الوخيمة فيفارقها في يوم شديد الحرّ ملتهب القيظ ، ويمضي على بعير ضَخْم عالي السَّنام سريع الحركة . ومازال يقطع الصحارى والأودية حتى بلغ بني عيلان ، قوم ممدوحه يزيد بن مزيد ، وقوم مروان بن محمد الخليفة ، وقوم بني عقيل الذين هم مواليه وكل ذلك جعله يخرج عن المدح أحياناً فيفخر ، على شاكلة قوله :

---

(١) أوْب : جهة . ركائبه : دوابّه التي يرحل عليها .

(٢) رحّال : مسافر . مذاهبه : أسفاره .

(٣) رابَه جعله يشكّ . أربْت : أزلْتُ الشكّ . أي إذا بدر منك ما يثير الريبة التمس لك عذراً ، وحسّن فيك الظنّ .

(٤) القذىْ : ما يطفو على وجه الماء من قشّ ونحوه .

وجيشٍ كجُنْحِ الليل يزحفُ بالحصى	**وبالشّوكِ والخَطّيّ حُمْرٍ ثعالبُه(١)**
غدونا له والشمسُ في خِدْرِ أمّها	**تطالعُنا والطَّلُّ لم يَجْرِ ذائبُهُ(٢)**
بضربٍ يذوق الموت من ذاق طعمَه	**وتدركُ مَنْ نجّى الفرارُ مثالبُهْ (٣)**
كأنّ مُثارَ النّقْعِ فوق رؤوسِنا	**وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبُهْ (٤)**
بعثْنا لهم موتَ الفُجاءةِ إنّنا	**بنو الموتِ خفّاقٌ علينا سَبائبُهْ (٥)**
فراحوا فريقٌ في الإسار ومثلُه	**قتيلٌ ، ومثلٌ لاذَ بالبحر هاربُهْ**

وهو يصفُ جيشاً عرمرماً يشبه بآلاته سواد الليل ، ويماثلُ في كثرة عدده الحصى وهو جيش مثقل بالعتاد ، وبالرماح التي مازالت عليها آثار الدماء وقد تصدَّوا له عند الصُّبحْ ، قبل أنْ يجفَّ الندى ، وأعملوا فيه ضرباً يُرْدي مَنْ يُصيبه ، ويضطرُّ الخصوم إلى الفرار ، والوَصْمِ بالجُبْن ، لقد كانت معركة حامية غطّى سماءَها غبار الحرب بقتامه ، فبدت السيوف في لجتّه وهي تختلي الرؤوس مثل كواكب تتهاوى في سماء الليل .وهكذا أصاب أعداءهم الموت المفاجئ بأيدي قيس أبناء الموت ، وحملة راياته ، وانتهت المعركة بنصرهم وخسارة أعدائهم ، إذْ أُسِرَ فريق منهم ، وقتل فريق ثانٍ ، ولاذ فريق ثالث بالفرار .

---

(١) جنح الليل : الطائفة منه . الشوك : السلاح . الخطّيّ : الرماح . التعلب : طرف الرمح الداخل في السِّنان .

(٢) الخدر : حجرة خاصّة بالمرأة

(٣) مثالبه : معايبه ، أي فتكاته .

(٤) تهاوى : تتهاوى .

(٥) سبائبه : أعلامه .

ولبشّار لسانٌ لأيطاول في الافتخار العريض ، والتبجّح المستكبر والمبالغة في الاعتداد والاستعلاء ، يقول في قصيدة أخرى :

إذا ماغضبْنا غضبةً مضريةً ... هتكْنا حجابَ الشمسِ أو نُمطِرَ الدّما

إذا ما أعرْنا سيّداً من قبيلةٍ ... ذُرَا منبرٍ صلّى علينا وسلّما

وما أشبهَ عنجهيّة بشار بعنجهية عمرو بن كلثوم وهو يقول :

إذا بَلَغَ الفِطام لنا صبيٌ ... تخرُّ له الجبائرُ ساجدِينا

الرثاء

لم تُؤْثَرْ لبشارٍ مراثٍ كثيرة ، وربّما رجع ذلك إلى أنّه كان منغمساً في اللهو ، وأن نفسَه لم تكن مفطورة على الحزن ، ومع ذلك فإننا نجد الموت يهز نفسه هزّاً حين فقَدَ ابنه محمّداً، وفيه يقول :

أصيبَ بُنَيّيَ حين أورقَ غصنُهُ ... وألقَى عليّ الهمّ كلُّ قريبِ

وكان كريْحان العروس تخالُه ... ذوى بعدَ إشراقِ الغصونِ وطيبِ

الغزل

شُهِرَ بشار بالإكثار من الغزل ، وكان يخوضُ في كلِّ أنواعه الماديّة والمعنوية ، ولكنّ الغالب عليه الغزل الحسّي ، وبما أنّه كان كفيفاً فقد كان يغازل بطريق السمع لا بالنظر ، ويقول :

يا قومُ أذني لبعضِ الحيِّ عاشقةٌ	والأذنُ تَعْشَقُ قبل العين أحياناً
قالوا بمَنْ لاترى تهذي ؟فقلتُ لهم	الأذنُ كالعين تُوفي القلبَ ماكانا

واقرأ في هذه القطعة أيضاً :

يا ليلتي تزدادُ نُكْرا	مِنْ حُبِّ مَنْ أحْبَبْتُ بِكْرا
حَوْراءُ إنْ نظرتْ إليكَ	سقتْكَ بالعَيْنينِ خَمْرا
وكأنَّ رجعَ حديثِها	قِطَعُ الرياض كُسِينَ زهرا
جِنّيّةٌ إنسيّةٌ	أو بَيْنَ ذاك أجلُّ أمْرا

وواضح في هذه القطعة أثر فقدِه لبصره ، فإنّه لايكاد يرتفع عن نطاق الحسّ .

خاتمة

كان بشارٌ يتمسَّكُ بالتراث الفنّيّ وأصوله القليدية ولكنه لملازمته مجالس الغناء أكثر من النظم على البحور المجزوءة ، كما نظم في الرباعيات وفي المزدوج والمسمّطات ، غيرَ أنّه ظلّ محتفظاً للغة الشعر بأساليبها الجزلة الرصينة ، في الأغراض الرسميّة ، ويرقّ أسلوبه ويلين لدى نظمه في الغزل والموضوعات العاطفيّة .

تاريخ شعراء العربية

أبو نواس

شعراء العصر العباسي الأول



إعداد وشرح
لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُورِيَة - حَلَبْ - خلفَ الفندُقِ السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب | ٧٨ | فاكس ٢١٢٣٦١ ،٠٢١

نبذة عنه

هو الحسَنُ بنُ هانئٍ ، كان أبوه مِنْ جند الشام الذين كانتْ خدمتهُم العسكريّةُ في خوزستان ، وهناك تزوَّجَ امرأةً اسْمُها جلْنارُ أيْ زهرُ الرّمّان ورُزقَ منها الحسنَ ، ولم يُعْرَفُ عن هانئ متى تُوفّيَ ، ولكنّ الكتب تشير إلى أنّ الحسن قد نشأ في البصرة ، وصار يتردّدُ - على شاكلة الناشئة آنئذ - إلى حلقات العلم في المساجد ، حتى حفظ القرآن الكريم غيباً .

لكنّ أمُّه أسلمتْه إلى عطّارٍ وكيمائي يكتسبَ بعضَ المال ينفقهُ عليها بعدما ترمَّلتْ ، ويبدو أنّ ذلك العطّار لم يكن صالحاً ، إذ تَعرّفَ الحسنُ عنده على رجل فاسقٍ مشهور بالدَّعارة والمجون والإباحية ، هو والبة بن الحباب ، فأفسدَ الحسنَ بن هانئ ، ووصلَه بعصابة من المجان العابثين من أمثال مطيع بن إياس وحمّاد عجرد وداود بن رزين والواسطي والفضل الرقاشي وإسماعيل القراطيسي ، هنالك انغمس الفتى الناشئ الذي كان يفتقدُ مَنْ يوجّهه في لُجّة الغواية والفتنة والانحراف ، وصار مضرب المثل في شيئين ، الخمرة ، والشذوذ الجنسي ، إذْ ذاعتْ فيهما شهرتُه ، ونُسبتْ إليه فيهما أشعار كثيرة ، هذا ما تناقلتْه الأوساط الأدبيّة ، ولكنْ في كتاب أبي نواس لابن منظور تبرؤ لأبي نواس مما اتُّهم به ، وأنّه لم يفكّ زُنّاره قطُّ على حرام .

وخلاصةُ القول أن لهذا الشاعر سُمْعةً تنطوي على شعبتين مستهجنتين هما معاقرة الخمر والشذوذ ، ويُرْوَى أنّ تلك السمعة ذاعتْ عنه حتّى رويَ الحصريُّ أنهُ لمّا خلَعَ المأمون أخاه الأمين ، ووجَّه بطاهر بن الحسين لمحاربته كان يعمل كتباً بعيوب أخيه تُقرأ على المنابر بخراسان ، فكان ممّا عابه به أن

قال : إنّه استخلص رجلاً شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هانئ استخلصه ليشرب معه الخمر ، ويرتكب المآثم ، ويهتك المحارم .

ومع أنّ هذه الرواية عن علاقة الأمين بأبي نواس غير صحيحة ، لأنّ من الثابت أنّ الأمين قد حبس أبا نواس لمجونه ، كما كان قد حبسَه من قبل هارونُ الرشيد ، والد الأمين ، مع ذلك كانت لأبي نواس شهرةٌ ذائعة في المجون والإباحية ، وحسْبُهُ أنّ الذين صنعوا الرواية الشعبية المغلوطة ((رواية ألف ليلة وليلة)) قد جعلوه بطلاً فيها ، وأمعنوا في الاختلاق ، فأشركوا معه الرشيد لكنّ كلّ المؤرّخين يَعرِفون إسراف هذه الرواية ، رواية ألف ليلة وليلة ، وأنّه ما أريدَ من تأليفها أيُّ خير فهي **أوّلاً** شغَلت الناس عن محاربة الصليبيين ، لأنّها كانت موضوع سَهرات الناس في المقاهي ، مع القصّاصين ، ورواة الحكايات وبدلاً من أن يذهب هؤلاء لمحاربة الغزاة الأوربين كانوا يَقْضون الساعات الطويلة في استماع الحكايات المختلفة كألف ليلة وليلة ، وحمزة البهلوان وعنترة ..

وهي **ثانياً** لم تعلّم الناس شيئاً مفيداً ، بل حرّفت تاريخ العرب والإسلام ، حتى صار مَنْ لايعرف التاريخ من العامّة يحسَبُ الرشيد رجلَ عبثٍ ، بحسبِ ما تصوّر تلك الرواية المحرّفة ، مع أن الرشيد كان يحجّ سنةً ويغزو سنة ، ويصلّي في كل يوم وليلة مئة ركعة .

شعوبيّته

يذكر النواسيُّ أنّه ينحدر من أهل اليمن ، أيْ من قبيلة حكم اليمنيّة :

وقــال : أمِنْ تيمٍ ؟ قلتُ كلاّ ولكنّي من الحيّ اليماني

وكان في البداية يُكنى أبا فراس ، فعدَل عن ذلك ، واكتنى بأبي نواس : تشبهاً بكنية ذي نواس اليمنيّ ، ولكنّ أمّه فارسية .

والحقّ أنّ أصل الإنسان أو عِرْقه ليس هو الذي يدفعه دائماً إلى أن يتبنّى بعضَ المعتقدات والآراء الفكرية ، إذ نجد فارسيّين من طريق أبويهم كلَيْهما ما ندَّتْ منهم ميول شعوبية ، ولكنّ أبا نواس لمّا فسقَ صارَ يحملُ- في فترة من حياته - على أهل الاستقامة ، وعلى العرب ، حتى على منهج القصيدة العربية ، التي تبتدئ بالوقوف على الأطلال :

عـاجَ الشقيُّ على رسمٍ يسائِلُهُ وبتُّ أسـألُ عن خمَّارةِ البلَدِ
يَبكي على طَلَلِ الماضينَ من أسدٍ لا درَّ درُّكَ قل لي مَنْ بنو أسَـدِ
ومَنْ تـميمٌ ومَنْ قـيسٌ ولفُّهـا ليس الأعاريبُ عند اللهِ مِنْ أحَدِ

هذه الأشعار النافرة عن أعراف الشعر العربي ، ومن حياة المحافظة كلِّها ، كانت مصحوبة بردَّة بسافرة ، ونهَمٍ طاغٍ بأمّ الخبائث :

ألا فَاسقِني خمْراً وقلْ لي هي الخمرُ ولا تَسقني سِرّاً إذا أمكنَ الجَهْرُ
فعيشُ الفتى في سكرة بعد سكرةٍ فإنْ فاتَ هذا عنده قصُرَ العُمْرُ
وما الغُبْنُ إلاّ أن تـراني صـاحـياً ولا الغُنْمُ إلاّ أن يُتَعْتِعَني السُّكْرُ
ولا خيـرَ في فَتْـكٍ بغير مَجانـةً ولا في مجونٍ ليـس يتبعُه كُفْرُ

وهذه الأبيات من أردأ ما هَبَطَ إليه الشعر العربي في كلّ عصورِه .

معرفته الأدبية

كان لهـذا الشـاعرِ اطـلاع علـى آراء الفلاسـفة والمتكلّمـين في عصـره ، وكان عالماً باللغة ، يروي الشعر ، حتى ذكر عن نفسِه أنه يـروي لستّين امـرأة من العرب غير الخنساء ، عدا الرجال ، وأنه يروي مئة أرجوزة لاتُعْرَف .

وقد أخذ اللغة عن أبي زيد الأنصـاري ، وأبـي عبيـدةَ معمـر بـن المثنّـى وخلف الأحمر :

وكان يَزْوَرُّ (١) عن التصنعُّ في أشعاره ، وعن التكلُّـف ، ويـأتي بشـعره على سجيّته .

ولهذا الشاعر قصائد رسميّة رصينة ، وأشعار خفيفـة وموضـوع القصـائد الأولى الزهد والتوبة والحكمـة ، وموضـوع الأخـرى الغـزل والمجون ، وقصـائد النوع الثاني هي الأكثر .

مجلس لهو

لاتلمْني الآنَ ، فلومُك لايزيدني بـالخَمْرةِ إلاَّ هُيامـا ، وصحيـح أنهـا داءٌ وبيل وشر مستطير لكنها -في نظره عير المُصيبِ- هي الداء وهي الدَّواء ، ولقـد قامتْ ساقيةٌ مشرقةُ الوجه تدورُ عليهم بالشَّـراب ، والوقـتُ وقـتُ ليـلٍ ، وهـو شـراب صـاف يجعـل شـاربه يحسّ بدوارٍ كالإغفاء ولعماية أبي نواس أوغيبوبته

---

(١) يزورّ : ينحرف ، ويعرض .

وسكْره يظنّ خمرته أشدّ صفاءً من الماء ، وكأنها نور مضيء ، ودارت السّاقية على مجموعة من الشُّبان الذين أُوتوا حظّاً ، ولم تتنغّصْ أيامُهم ، ويذكر النواسيّ أنه لايبكي على آثار الديار – كغيره من الشعراء– وإنما على مجالس الخمرة فقط وإذا كان العلماء يخوّفونه النار إذا لم يتب عن فسقه ، فهو يناظرهم بمسألة عفو الله تعالى ، ويتّهم علومهم بالنقص ! وهو يشير بذلك إلى إبراهيم بن سَيّار النّظّام الذي كان يعظُه أنْ يترك المعاصي :

دعْ عنكَ لومي ، فإن اللوم إغراءُ	**وداوني بالتي كانتْ هيَ الداءُ**
صفراءُ لاتنزِلُ الأحزانُ ساحتَها	**لو مسَّها حجرٌ مسَّتْهُ سرّاءُ**
قامتْ بإبريقها والليلُ مُعْتَكِرٌ	**فلاحَ من وجهها في البيت لألاءُ**
فأرسلتْ منْ فمِ الإبريقِ صافيةً	**كأنَّما أَخْذُها بالعَيْنِ إغفاءُ**
رقّتْ عن الماء حتى مايلائمها	**لطافةً وجفا عن شكلها الماءُ**
فلو مزجْتَ بها نوراً لمازجَها	**حتى تولَّدَ أنوارٌ وأضواءُ**
دارتْ على فتيةٍ دانَ الزمانُ لهم	**فما يصيبُهمُ إلا بما شاؤوا**
لتلك أبكي ولا أبكي لمنزلةٍ	**كانت تحلّ بها هندٌ وأسماءُ**
حاشا لدُرّةَ أنْ تُبنى الخيامُ لها	**وأنْ تروح عليها الإبلُ والشّاء**
فقُلْ لِمَنْ يَدّعي في العلم فلسفةً	**حفظْتَ شيئاً وغابتْ عنكَ أشياءُ**
لاتَحظُرِ العفوَ إن كنتَ امرأً حَرِجاً	**فإنَّ حَظْرَكَهُ في الدِّين إزراءُ**

ثورة على نهج القصيدة

يرى النواسي أنّ الوقوف بالأطلال خطلٌ يجب العدول عنه إلى مجالس الخَمْرة ، حيث تدور بكؤوسها سَقّاءة فاتنة تقدّم نوعين من السُّكْر ، من عينها ، ومن الكؤوس :

لاتَبْـكِ لـيـلى ولاتــطـربْ إلى هـندِ
واشربْ على الوردِ من حمراءَ كالوَرْدِ
كأساً إذا انحدرت في حَلْقِ شاربِـهـا
أجـــدَتْهُ حـــمـــرتَـها في العين والخَدّ
فالخمرُ ياقوتةٌ والكــأسُ لـــؤلـؤةٌ
في كفّ جارية مـمـشــوقـة الــقَـدّ
تسقيكَ من عينها خمراً ومن يــدها
خمراً ، فما لكَ من ســـكريـنِ مِن بُدّ
لي نَـشْوَتَــانِ ولـلـنُـدمــان واحدةٌ
شيءٌ خُصِصتُ به مِنْ بـيـنـهم وحدي

الاستصباح بأمّ الخبائث

أطغى الشيطانُ أبا نواس ، فلم يعدْ يتصيّد الأوقات الثمينة لما ينفعُــه ، إنّ وقتَ السَّحرَ الذي يتجلّى فيه ربّ العالمين على عباده ، ليقبل دعاءَهم ، ويحقّـق لهم مبتغاهم .. لم يُفدْ منه هذا الشاعر ليرفع استغفاراً ، أو يسـجّل توبـة ، وإنمـا ليزداد إثماً على إثم :

ذكرَ الصَّبُوحَ بسُحْرةٍ فارتــاحـا	وأمـلّه ديـكُ الصَّباحِ صياحا (١)
أوفى على شرف الجدار بسدفة	غرداً يـصفّقُ بالجناح جناحا (٢)

---

(١) الصَّبوح : شراب الصبح .

(٢) سدفة : ظلمة .

بادرْ صَباحكَ بالصَّبوحِ ولا تكنْ كمُسَوِّفِينَ غَدَوْا عليكَ شِحاحاً (١)

هل كان الناس راضين عن مَسْلكه

ما كان لأبي نواس وعصابته من المُجّان أنْ يحْظَوْا برضى المجتمع العباسي ، ويدلّنا على هذا عدّة ظواهر .

أنّه لم يكن يستطع أن يمارس انحرافه في وضحَ النهار ، ولا أمامَ أعيُنِ الناس ، فكان يذهب أحياناً إلى دير من الأديرة النصرانية ، فيقول :

يا دَيْرَ حَنَّةَ من ذاتِ الأُكَيْراحِ
مَنْ يَصحُ عنكَ فإني لستُ بالصّاحي (٢)

وأحياناً كان يذهب إلى خمّار يهودي غدّار ، فيقدّم لهم الخمرة ، فإذا هم يسجدون لها من دون الله ، ويُقيمون شهراً على وثنها :

وفتيانِ صِدْقٍ قد صرفتُ مطيَّهمْ
إلى بيتِ خَمَّار نزلنا به ظُهْرا (٣)
فلمّا حكى الزُّنَّارُ أنْ ليس مسلماً
ظَنَنَّا به خيراً فظَنَّ بنا شَرّاً (٤)
فقلنا على دين المسيح بن مَرْيمٍ ؟
فأعرضَ مزوراً وقال لنا هُجْرا (٥)

---

(١) مسوِّف : مؤجّل . شحاح : بخلاء .

(٢) دير حنّة : اسم دير وذات الأكيراح : موضع .

(٣) المطيّ:الرّحال. نزلوا ظهراً:استغرق ذهابهم إليه من الصبح إلى الظهر لِبعده عن بغداد

(٤) الزنار : كان النّصارى واليهود يتّخذون الزنانير في ملابسِهم .

(٥) مزوّر : ملتفت : غير مُقبِل .

ولكنْ يـهـوديٌّ يحبّـك ظـاهـراً

ويُضمرُ في المكنون منْهُ لكَ الغَدْرا

فجـاءَ بـهـا زيـتية ذهـبـيّـة

فلم نستطعْ دون السجودِ لها صَبْرَا

خرجْنا على أنّ المقـامَ ثـلاثةٌ

فطابتْ لنا حتى أقمنا بها شَـهرا

عصابةُ سـوءٍ لاترىالدهر مثلَهم

وإنْ كنتُ منهم لابريئاً ولا صِفْـرا

إذا ما دنا وقتُ الصَّـلاةِ رأيتَهم

يحثّـونها حتى تـفـوتَهُمُ سُـكْـراً

اضطرارهم أن يُبْعدوا المَشْرب

إضافة إلى أنّهم كانوا يشربون في السرّ مـن خمّار يهـودي أو نصراني ، وأحياناً من خمّار مجوسيّ ، كانوا يتجشمون سيراً طويلاً وعناء إلى أن يصلُوا إلى محلّ الخمّارة أو الدَّيْر ، فيطرقون الباب ، فيسألهم الخّمار خائفاً : مَنْ أنتم ، لأنـه يحذرُ أن يكونوا شرطة أو من جماعة الفتوّة الـتي كـانت تـأمر - تطوّعـاً منهـا - بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، بالأيدي ، أو بالألسنة ، فإذا ما أعطاه أبو نـواس إشارة خاصّة ذات رمز فتحَ له ... ليسكر هو وعصابتُه :

دع الرَّبْعَ ما للربع فيكَ نَصِـيـبُ   وما إنْ سبتـنـي زينـب وكَعُوبُ (١)

ولكنْ سبـتْنـي الـبابليّة ، إنَّهـا   لمثليَ في طول الـزمانِ سَلُوبُ (٢)

---

(١) لايحب الوقوف على الأطلال ، وتذكر المحبوبات . سبتني : أسرتني .

(٢) البابليةّ : الخمرة .

جفا الماء عنها في المزاج لأنَّها	خيـالٌ لها بيـن العظيم دبيبُ (١)
إذا ذاقَها مَنْ ذاقَهـا حلَّقتْ بـه	فليسَ لَـهُ عقلٌ - يُعَدّ - أديب (٢)
وليلـةِ دَجْن قـد سـريتُ بفتيةٍ	تنازعُها نحو المـدام قُـلـوبُ (٣)
إلى بيـت خَـمّـار ودونَ محلّه	قـصـورٌ مُنـيفاتٌ لنا ودروبُ
ففزّع من إدلاجـنـا بعـد هجعةٍ	وليس سوى ذي الكبرياء رقيبُ
تناوَمَ خوفاً أن تـكون سعايـة	وعـاوده بعـد الـرقادِ وجيبُ
ولمّا دعونا باسمه طارَ ذُعْـرُهُ	وأيقن أنّ الرحلَ منـه خصيبُ
وبادرَ نحوَ البـابِ سَعْياً ملبّيـاً	لـه طربٌ بالزائريـن عجيـبُ
فأطلقَ عَنْ نابَيْه وانكبَّ ساجداً	لنـا وهو فيما قد يظنّ مصيـبُ
وقال ادخُلوا حُيِّيتُمُ مِنْ عصابـةٍ	فمنـزلُكم سَـهْلٌ لديَّ رَحِيـبُ (٤)
وجاء بمصبـاحٍ لـه فـأنـارَهُ	وكـلُّ الذي يبغي لديه قريـبُ
فقلنا أرِحْنا هاتِ إن كنتَ بائعـاً	فـإنّ الدجى عن ملكه سيَغيـبُ (٥)
فأبدى لنا صهباءَ تمَّ شبـابُهـا	لهـا مَرحٌ في كأسِها ووثـوبُ (٦)
فما زال يـسـقيّنا بكأسٍ مجـدّة	تُـولّي وأخرى بعد ذاك تـؤوبُ

---

(١) يتحدّثُ عن رقّة الخمرة ، فإذا مُزِجتْ مع الماء كانت - بزعمه - أكثر صفاء .

(٢) أديب : صفة لكلمة عقل . أي إذا شربها ذهب عقله وسَكِرَ .

(٣) دجْن : غيم .

(٤) رحيب : واسع .

(٥) الدجى : الليل .

(٦) صهباء : خمرة حمراء .

بين الآكام والركّام

كان أبو نواس وعصابته يَتعاطَوْنَ الخمرة - كما رأينا - في الديارات وكنس اليهود ، ولدى بعض المجوس ، أو بين المقابر والآكام والرُّكام ، ولو عُدْتَ إلى سينيّته التي يعدُّها الجاحظُ أحسن خمريّاتِه لرأيناه يحتسي فيها الخمرة هو وعصابته في خرائب بلدة ساباط الأثرية القديمة وهي من ضواحي بغداد :

ودارِ ندامى عطّلوها وأدلجُوا ... بها أثرٌ منهم جديد ودارسُ (١)

مساحبُ مِنْ جَرّ الزقاقِ على الثرى ... وأضغاثُ ريحانٍ جَنِيٍّ ويابس (٢)

ولم أدرِ مَنْ هم ؟ غيرَ ماشهدتْ به ... بشَرقيِّ ساباطَ الديارُ البسابسُ (٣)

أقمْنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ... ويوماً له يومُ الترحلِ خامسُ

تُدارُ علينا الرّاحُ في عسجديّةٍ ... حَبتْها بألوان التصاويرِ فارسُ (٤)

قرارتُها كسرى وفي جنَباتِها ... مَهاً تدَّريها بالقِسِيِّ الفوارسُ (٥)

فللخمْرِ ما زُرَّتْ عليه جيوبُها ... وللماءِ مادارتْ عليه القَلانِسُ (٦)

---

(١) عطّلوها : تركوها . أدلجوا : ساروا ليلاً .

(٢) مساحب : أماكن سحب الجرار . الزِّقاق : جمع زق ، وهو إناء الخمرة .

(٣) ساباط : مدينة أثرية خَرِبة قرب بغداد .

(٤) حبا : أعطى . عسجدية : زجاجة مذهّبة .

(٥) قد رسم في أسفلها صورة كسرى ، وعلى جوانبها صورة بقرة وحشية تصطادها الفرسان بالقسيّ .

(٦) صبّوا فيها خمراً إلى أن وصل مستوى الخمرة إلى أماكن عقد القمصان من هؤلاء الفرسان ، أي إلى قرابة ثلاثة أرباع الكأس ، ثم زادها ماء إلى ما يوازي أعلى قلانسهم .

ولكنْ إلى متى ؟

إنه يرى أفواج الراحلين إلى عالم الآخرة بأمّ عينيه ، من بين أقاربه وجيرانه وأصحابه ، وغيرهم ، وارتحالهم متوالٍ متعاقبٌ ليلَ نهارَ ، كانوا يتسلسلون في دَوْرهم وهم ينتظرون أيّام الرحيل ، إلى أن وافتْهم ، فماذا أعدّ لذلك المصير ؟

حسبُه أنّ الله عزَّ وجلّ عفوٌ غفور ، وأنّه هو مهما كان قد فرط منه .. مسلم :

يــاربِّ إنْ عظمتْ ذنوبي كثرةً ... فلقد علمتُ بأن عفوك أعظمُ

إنْ كان لايرجوكَ إلا مــســلمٌ ... فبِمَنْ يلوذُ ويستجيرُ المجرم

أدعوكَ ربِّ كما أمرتَ تضرُعَاً ... فإذا رددْتَ يدي فمَنْ ذا يرْحَمُ

مالي إليكَ وسيلةٌ إلا الــــرَّجا ... وجميلُ عفوكَ ثم أنّي مسلم

القبور الواعظة

ويُرْسل الطَّرفَ في جنَباتِ القبُور ، وماذا تضمّ بين جوانحها ، إنها صامتة ، وإنّنا لانحسّ بمَ يجري لِمَنْ فيها ، مع أنّه ما من قبر إلا هو حُفْرة من حُفَرِ النار ، أو روضةٌ من رياض الجنّة ، كانوا مثلَنا ، أو خيراً منّا ، أو أكثر مالاً ، أو أشدّ قوّة .. وإنهم السابقون ، ونحن بهم لاحقون .

وعظتْكَ أجداثٌ خفتْ ... فيهن أجساد سبُتْ (١)

---

(١) أجداث : قبور : خفت : صامتة . سبت : متفتّتة بالية .

وتـكـلّمـتْ لكَ بـالبِلَى		منهنّ ألسنةٌ صُمُتْ
وأرتْكَ قبرَكَ في القبورِ		وأنـتَ حيٌّ لم تمتْ

تأثير السّنّ

إنْ كان راجحو العقول لايضلّون ولو كانوا في مُقْتَبَل أعمارهم فلمْ يعدمْ أبو نواس أنْ ينضج عقلُه بعدما تقدّمتْ به السّنون ، وحـنكتْه تجـاربُ الأيّـام ، وصار يتلفّتُ ما حوله فإذا قطارُ العمر قد سبقه ، فيُلملمُ نفسَه ، ويغـذّ الخُطـا ، لعلّه أن يتدارك ما فـات ، وممـا أعانـه علـى إدراك بعـض غايتـه ائتسـاؤه ببعـض الشخصيات الرسمية التي كـانت في عصـره ، كـالفضل بـن الربيـع ، والرشـيد ، والأمين .. مع أنّ هؤلاء الثلاثـة أسـهموا في رَدْعـه بـالقُوَّة عـن غَيِّـه ، وحبسـوه مرّتين كما تقدّم :

وعـظـتْكَ واعظةُ الـقـتيـرِ		ونَـهتْـكَ أُبّـهـةُ الكبـيـرِ (١)
وردتَ مــا كنت اسـتعــرْ		تَ من الشباب إلى الـمُعِيرِ
فالآنَ صـرتَ إلى النهـــى		وبلوتَ عاقبةَ الـســـرور (٢)
يا فَضْلُ جـاوزْتَ الـمــدى		فجَلَلْتَ عن شَـبَــهِ النَّظيرِ
فإذا العقولُ تفاطنتكَ عرضْنَ		في كـــــرمٍ وخــــيــــر (٣)

فهو إذا تذكّر الفضل بن الربيـع هربـت مـن فكـره وسـاوس الشـيطان ، وحلّ محلّها كل معنى جليل كريم .

---

(١) القتير : الشيب . الأبهّة : النخوة والعظمة . الكبير : العمر المتقدّم .

(٢) النهى : جمع نهية ، وهي العقل . بلوت : اختبْرت .   (٣) الخِير:الكرم والشرف .

إنّ من الناس مَنْ إذا رأيتَه ذكّرَتكَ رؤيتُه بطاعة الله ، والنواسيُّ إذ يمدح أمير المؤمنين الأمين يتوب من الآثام :

ولقـد نَهزتُ مع الغواةِ بدلوهمْ ... وأسمتُ سَرْحَ اللّهوِ حيثُ أساموا

وبلغـــتُ ما بلغَ امرؤٌ بشبابِه ... فـإذا عُـصـــارةُ كـــل ذاك أثامُ

تديُّن وظَرْف

أفادَ أبو نواس من نصائح ذوي الخـير ، كـالفضل بـن الربيـع ، الوزيـر ، فصار يشهد الصلوات جماعةً ، ويتوقّر حتى يشـبه أعـلام الزُّهـدُ ، ويستصحب السُّبحة ، ويصلّي مطيلاً من السجود ، حتى ارتسم أثر السجود على جبهته :

أنـتَ يـا بـنَ الربيع ألزمتَني ... النُّسْـكَ وعوّدتَنيه والخيرُ عـاده (١)

فـارعــوى باطلي وأقصر حبلي ... وتـبـدّلْـتُ عِـفّـةً وزَهـــاده (٢)

لـو تراني أنكِـرتَ بالـحـسن ... البصريَ في حُسْن سَمْتِهِ أو قتاده (٣)

المسابيحُ في ذراعيَ والمُصْحفُ ... في لـبّـتي مـكـان الـقـلاده (٤)

فادعُ بي -لاعدمتَ تقويمَ مثلي- ... وتفطّنْ لـمـوعـد السجّـاده

ترَ إثراً من الصلاة بـوجـهي ... تـوقـنُ الـنـفسُ أنها من عباده

ولـقـد طـالـمـا شقيتُ ولكنْ ... أدركـتْـني عـلى يـديكَ السّعاده

---

(١) النسك : التعبّد .

(٢) ارعوى : كفّ وارتدع . أقصر حبلي : كناية عن توبته عن المعاصي .

(٣) الحسن البصري ، وقتادة من كبار التابعين .

(٤) لَبّتي : صدري .

نـــــــدم

ألم ترني أبحتُ اللهو نفسي   وديني واعتكفتُ على المعاصي
كـأنّي لا أعــود إلى معادٍ   ولا أخشى هنالكَ من قِصَاصِ

* * *

أيا مَنْ بين باطيه وزقٍ   وعـودٍ في يـديْ غانٍ مغنّي
إذا لم تَنْهَ نفسكَ عن هواها   وتُحْسِنْ صونَها فإليكَ عنّي
فإنّي قد شبعتُ من المعاصي   ومن إدمانها وشبعن منّي
ومَنْ أسوا وأقبحُ من لبيبٍ   يُرى مُتطرّباً في مثلِ سنّي؟

* * *

خلِّ جنبيكَ لرامٍ   وامضِ عنه بسلامِ
إنّما السّالمُ مَنْ   ألجمَ فاهُ بلجامِ
فالبس الناس على الصحّة   منهم والسّقامِ
شِبْتَ يا هذا وما تترك   أخلاقَ الغلامِ
والمنايا آكلاتٌ   شارباتٌ للأنامِ

رثاء مَنْ قَبْلنا

أيا رُبَّ وجهٍ في الترابِ عتيق   ويا رُبَّ حُسْنٍ في الترابِ رقيقِ
ويا رُبَّ حزمٍ في التّرابِ ونَجْدَةٍ   ويا ربَّ رأيٍ في التراب وثيقِ
أرى كل حيٍّ هالكاً وابن هالكٍ   وذا حسَبٍ في الهالكين عريقِ
فقُلْ لمقيم الدار إنَّك ظاعنٌ   إلى منزلٍ نائي المحلِّ سحيق
إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ   له عن عدوٍّ في ثيابِ صديقِ

وقال يرثي نفسه

دبَّ فيَّ الفناءُ سُفْلاً وعُلْوَا   وأراني أموتُ عُضْواً فعُضْوا
قد أسأْنا كلَّ الإساءةِ فاللهمَّ   صفحاً عنا وغفراً وعفْواً

وكان موته في نهاية القرن الثاني للهجرة .

تاريخ شعراء العربية

شعراء العصر العباسي الأول

عبد الله بن المبارك



إعداد وشرح
لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُوريَة ـ حَلَبْ ـ خلفَ الفندُقِ السيَّاحِي

شارع هدى الشِعرَاوي

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٢١٢٣٦١، ٠٢١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

بداية حياته

وُلِدَ أبو عبد الرحمن عبدُ الله بن المبارك سنة /١١٨/ هـ ، في مدينة مَـرْوَ وكان أبوه المباركُ من أهل هذه المدينة الأتراك ، وكـانتْ أمُّـة خُوَارزميـة ، وقـد أرسله والدُه إلى الكُتّاب منذ نعومةِ أظفـاره لاستظهار القـرآن الكريـم ، وأخـذ مبادئ المعارف ، وكانت تُدرَّسُ بالعربية ، اللغةِ المحبوبـة في قلـوب تلـك الديـار ويبدو أنّه كان ذكيّاً مُفْرطاً في الذكاء ، ويُرْوى عن صَخرٍ ، وهـو صديـق لعبـد الله بن المبارك ، أنه قال :

((كنّا غلْماناً في الكُتّاب ، فمررْتُ أنـا وابـن المبـارك ، ورجـل يخطـب فخطب خطبة طويلة ، فلمّا فرغ قـال لي ابـن المبـارك : قـد حفظْتها ، فسـمعه رجل من القوم ، فقال : هاتها . فأعادها عليه ابن المبارك وقد حفظها)) .

تلقّيه العلم

أحبَّ عبدُ اللهِ بن المبارك العلمَ ، فأخذه عن شيوخ بلدتِه مَرْو ثمّ طـوّف في أنحاء العراق والحجاز والشام ومصـر واليمـن ، وقـابل في تلـك البـلاد علمـاء كثيرين ، فنَهَلَ مِنْ مَعِنيهم ، وبلَغ عَددُ الّذين حـدَّثَ عنهـم في كتبـه فقـط مائـةً وألفاً ، وجمع هذا العلاّمة الجليلُ حديثَ رسول الله صلى الله عليـه وسلـم حتى

عدّ حافظاً له ، ونال مرتبة ((أمير المؤمنين)) في الحديث الشريف . وقال فيه أحمد بن حنبل رضي الله عنه لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه .

الرشيد يثق بعلمه

أخذ هارونُ الرشيدُ زنديقاً ، فأمر بضرْب عنقه ، فقال له الزنديقُ : لِمَ تضربُ عنقي ؟ فقال له : أريحُ العبادَ منكَ . قال : فأينَ أنتَ مِنْ ألفِ حديثٍ وضعتُها على رسول الله ، كلّها مافيها حرفٌ نطَق به . قال : فأينَ أنتَ ياعدوَّ اللهِ مِنْ أبي إسحاق الفزاري وعبدِ الله بن المبارك ينخلانها ، فيخرجانها حرفاً حرفاً ؟

وقد أودع كثيراً من أحاديث النبيّ صلى الله عليه وسلم التي حفظها – وزادتْ عِدَّتُها على عشرين ألف حديث – في كتابيه : الجهاد ، والزهد والرقائق .

حبّه للعلم

التزم عبد الله بن المبارك رضي الله عنه حياة علمية رصينة ، فألّف كتابيه السالفَيْن ، وألّف أيضاً كتاب السنن في الفقه ، وكتاب التفسير وكتاب التاريخ ، وكتاب البِرّ والصِّلة .

ومن أجل أنْ يتسنَّى له أن يحيا حياةً علمية هادئة كان كثيرَ الملازمة لبيته وسأله يوماً سائل : مـن النـاس ؟ قـال : العلمـاء . قـال : فمـن الملـوك ؟ قـال : الزّهاد قال : فمن السِّفْلة ؟ قال : الذي يأكل بدينه .

وقال عبد الله بن المبارك رضـي الله عنـه : لاتسَـمَّى عالماً حـى لايخطـر حبُّ الدنيا بقلبك .

سخاؤه

من البدَهيّ أن يكون طُلاّب العلم ممَّنْ كان لهم نصيبٌ من عطاء عبدالله ابن المبارك رضي الله عنه ، وكان يُوصِلُ إليهم عطاءَهم ولو كانوا في غـير بلـده وقد عوبت مرة فيم يفرق المال في غير أهل بلده ، فقال : إني أعرف مكان قـوم لهم فضل وصدق ، طلبوا الحديث ، فأحسنوا الطَّلـب للحديـث ، بحاجـة للنّـاس فإنْ تركْناهم ضاعَ عِلْمُهم ، وإنْ أعنّاهم بثّوا العلم لأمّة محمّـد صلـى الله عليـه وسلم ، ولا أعلمُ بعد النبوّة أفضل مِنْ بثّ العلم .

على أنّ عطاءَه كان ينهمر على أهل العلـم وعلـى غـير أهـل العلـم ، إذ كان يصدَّق على الفقراء في كل سنة مائة ألف درهم .

وكان ابن المبارك إذا كان وقت الحجّ اجتمع عليه إخوانه مـن أهـل مَـرْو فيقولون : نصحبك ياأبا عبد الرحمـن ؟ فيقـول لهـم : هـاتوا نفقـاتكم . فيـأخذ نفقاتهم فيجعلها في صندوق ، فيقفل عليها ، ثم يكتري لهم ويخرجهم مـن مـرو إلى بغداد ، فلا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام ، وأطيب الحلوى ، ثم

يخرجهم من بغداد بأحسن زي ، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول صلى ا لله عليه وسلم ، فإذا صاروا إلى المدينة قال لكل رجل منهم : ماذا أمَرك عيالك أنْ تشتري لهم من طُرَف المدينة ؟ فيقول : كذا . فيشتري لهم . ثم يخرجهم إلى مكّة ، فإذا صلوا إليها وقضوا حجَّتهم قال لكلّ واحد منهم : ماذا أمرك عيالُكَ أن تشتريَ لهم من متاع مكّة ؟ فيقول : كذا وكذا . فيشتري لهم . ثمّ يخرجُهم من مكّة ، فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو ، فإذا وصل إلى مرو جصَّص (١) أبو ابهم ودورهم . فإذا كان بعد ثلاثة أيام صنع لهم وليمة ، فإذا أكلوا وسروا دعا الصندوق ففتحه ، ودفع إلى كل رجل منهم صرّته ، بعد أنْ كتب عليها اسمه .

تصوّفه

كان عبدُ ا لله بن المبارك رضي ا لله عنه يرابط على الثغورِ الواقعة بين المسلمين والبيزنطيين ، مجاهداً في سبيل ا لله ، خلالَ النهار متهجّداً في الليل يتلو كتاب ا لله ، ويكثر من الصِّيام والذِّكْرِ ، والتَّقْوى ، وكلّ ما يَصِلُه با لله عزَّ وجلَّ . ويقول عبد ا لله بن المبارك رضي ا لله عنه : أهل الدنيا خرجوا من الدُّنْيا قبل أنْ يذوقوا أطيبَ ما فيها . قيل له : ما أطيبُ ما فيها ؟ قال :معرفة ا لله عزَّ وجلَّ . ويقول أيضاً : مَنْ خَتَمَ بذكْرٍ كُتِبَ نهاره كلّه ذاكراً .

---

(١) جصّص : وضع لها الجصّ وهو الكلس ، والمراد تبييضها .

شعره

انعكست حياةُ عبد الله بن المبارك بجانبيها الاثنين : الجهاد والزهـد ، في شعره ، ولاحظ ذلك الأقدمون ، فقال ابن سعد في طبقاته ، والنووي في كتابه تهذيب الأسماء واللغات : قال (ابن المبارك) الشعر في الزهد والحثّ على الجهاد . ويغلب على شعره الحكمة ، فهو كثيراً مايحضّ على الزَّهادة في الحياة الدنيا الراحلة الفانية والإقبال بإخلاص على الحياة الباقيـة ، وتربية النفس على طاعة الله تعالى وتقواه ، والاستمساك بعُرَى الأخلاق الطيبة والاعتبار بالأفواج المتلاحقة تترى إلى الآخرة .

الزهد

لا يبالي هذا العالم الجليل أنْ يَطْعَم (١) في دنياه القليل اليسير ، مادامَ ذلك حَلالاً طيباً لايُرْديه في عذاب الآخرة :

والتمسْ رِزْقَكَ من ذي العرش	-	والـرَّبِّ القديرِ
وارْضَ يا وَيحكَ مِنْ دنْياك	-	بالقوتِ اليَسِيرِ
واجعلنْ ذاك حَلالاً	-	تَنْجُ من نارِ السَّعيرِ

(١) يَطعم ، بفتح الياء : يأكل .

ومن أصعب البلاءِ أن يخضع المرء لهواه ، ويتّبع شهواته :

ومـن البـلاءِ وللبـلاء علامةٌ   **أنْ لايُرَى لكَ عَنْ هواكَ نُزوعُ**
العبدُ عبدُ النّفس في شهواتِها   **والحُـرُ يشبـعُ مَـرّةً ويَجُـوعُ**

والمرء ما أحْراهُ أن يقْنع بما قَسَمَ له مولاه ، وينظرَ إلى مَنْ هو دُوْنَـه لئـلا يتملّكه الجشع والطّمع :

لله دَرُّ الـقُنـوع مِـنْ خلُقٍ   **كم مِنْ وَضِيعٍ به قد ارتفعا**
يَضيقُ صدر الفتى بحاجَتِهِ   **ومَـنْ تأسَّى بـدونه اتسعا**

ولايليقُ بطالب العلم نوم طويل ولااتّخامٌ ثقيل :

يا طالبَ العلم بادر الورَعا   **وهاجر النَّوْم واهجر الشبَعا**

الورع

إنّ من أمَارات (١) الورَع ألاّ تفوتَك فرصة من فراغ دون أن تقضيَها في محراب الطاعة وجَناب الرَّحمن ، وألاّ تنزلق في قولٍ باطل ولا كلمة حـرام ، وأنْ تستبدلَ به ذكْراً وتسبيحاً ، أو سكوتاً :

واغتنـمْ ركعتين زُلْفى إلى الله - إذا كنت فارغاً مستريحا
وإذا مـاهممتَ بـالمنطـق الباطل - فـاجعـلْ مكانَـه تسبيحا
إنّ بعض السكوتِ خيرٌ من النُّطق - إذا كنـتَ بالكلام فصيحا

---

(١) أمارات : علامات .

وإباحةُ المرء للسانِه أنْ يسترسلَ دونما ضابطٍ تتبّره تتبيراً ، فمـن الخير أن يهتّم بلسانه ، فهو الذي يعكس ما يملكه من عقل وفكْر :

احفظ لسانَكَ إنَّ اللّسانَ حريصٌ على المرء في قَتْلِهِ

وإنَّ اللسانَ بريدُ الفؤادِ دليـلُ الـلسان علـى عَقْلِهِ

التقوى

كان ابن المبارك رضي الله عنه يحرص على التقوى ، ويوصي بها وبكـل ما يكون معهـا من هِجْران للمعاصي ، ومن تسامح في المعاملة ، ومـن مسالَمةَ ودَعة :

ألا إنْ تـقـوى الله أكـرمُ نـسبـةٍ يسامـي بهـا عند الفَخار كـريمُ

إذا أنتَ نافسْتَ الرجالَ على التُّقَى خـرجْتَ مـن الدنيا وأنتَ سليمُ

أراك امرأً ترجو مـن اللهِ عفـوَهُ وأنتَ على ما لا يـحبُّ مقيمُ

وإنَّ امرأً لا يرتجي الناسُ عفوَه ولـم يـأمـنُوا منه الأذى للئيمُ

إنَّ مِنْ مظاهر التقوى أن ينبذ المرءُ الإثمَ الذي يميـتُ القلـب ، وإذا فعـل ذلك كان سيّداً حُرّاً لا تستعبده شهوة ولا يقهره هوى :

رأيتُ الذّنوبَ تُميتُ القـلوبَ ويـورثُك الـذُّلَّ إدمانُها

وتركُ الذنوب حياةُ القُلـوبِ وخيرٌ لنفسِكَ عصيانُها

حُسْنُ المعاشرة

منْ محامد الأخلاق حُسْنُ المعاشرة ودَماثةُ الصُّحْبة والمعاملةُ الليِّنة الرفيقة وأنْ يأخذ كلُّ فرد نفسه بالمحاسبة والمراقبة ، ويعفوَ عن هفوات خُلاّنه في الوقت الذي لا يضنّ عليهم بالموعظة الحسنة والنصيحة الطيّبة دون تجريح ولاتعييب وإلاّ فقدَهم واحداً واحداً :

إذا صاحبتَ في الأسفار قوماً فكنْ لهمُ كذي الرَّحِمِ الشَّفِيقِ

بعيب النفس ذو بصرٍ وعلم غليّ النفس عن عيب الرفيق

ولا تأخذْ بعثرةِ كل قومٍ ولكنْ قلْ هلمَّ إلى الطريق

فإنْ تأخذْ بعثرتهمْ يقلُّوا وتبقى في الزمان بلا صديقِ

من كنوز الحكمة

أدَّبْتُ نفسي فما وجدتُ لها من بعد تقوى الإله مِنْ أدبِ

في كلّ حالاتها وإنْ قصرتْ أفضل من صمتها عن الكذبِ

إن كان من فضّة كلامُكِ يا نفسُ فإنّ السكوت من ذَهبِ

***

آخرُ العلم لذيذٌ طعمُهُ وبديءُ الذّوقِ منه كالصَّبِرْ

***

دنيا تَداولَها العبادُ ذميمةً شيبتْ بأكرهَ مِنْ نقيع الحَنْظَلِ

وبنات دهرٍ لاتزالُ ملمَّةً فيها فجائعُ مثلُ وَقْعِ الجنْدَلِ

نظرة في الحياة

ما أصعبها من حياة ، مُتْرَعة بالكَبَد (١) ، فيّاضة بالهُموم ، ما إنْ يستقيم لِأَمْرٍ فيها شأن حتى يأخذ بالمَيلِ ، وجديرٌ أن يحذَرها الإنسان ، ويكـون حكيمـاً كيّسَاً ، فإذا أوتي نعمةً حفظها ، وقدّرها ، وشكر مولاه عليها ، واتّقى المعاصي التي تمحقُ كل نعمة ، والمرءُ لايحظى في حياته براحةٍ ما لم يصـبِرْ ، وإنّـه لايـدري ميقات أي مصيبة تنزل به ، وتُقَدَّرُ عليه :

همومُكَ بالعيشِ مقرونةٌ	فما تقطعُ العيشَ إلا بهمّ
إذا تـمَّ أمـرٌ بـدا نـقصُه	تـرقَّبْ زوالاً إذا قـيـل تـمّ
إذا كنتَ في نعمةٍ فارعَها	فإنَّ المعاصي تـزيلُ النِّعَمْ
وحامِ عليها بشكـر الإلـهِ	فـإنَّ الإلـهَ سريـعُ النِّقَمْ
حـلاوةُ دنيَـاك مسمـومة	فـمـا تـأكل الشهدَ إلا بسم
فكـم قدَرٍ دبَّ فـي مُهْلَـةٍ	فلمْ يعلم الناسُ حتى هجمْ

عُقْدة الحسد

كلُّ ذي نِعْمةٍ محسود ، وإن الحسودَ ليعادي ذلك الـذي أنعـمَ ا للهُ عليـه عداوةً شديدة لايُرْجى لها زوال ، إذ تحولُ في نفسه عقدة نفسيّة ليس يقدرُ علـى حلّها إلاّ ا لله :

---

(١) الكبد : المشقة .

كلُّ العداوةِ قد تُرْجَى إماتتُها ... إلاَ عداوةَ مَنْ عاداكَ مِنْ حَسَدِ

فإنَ في القلبِ منها عقدة عُقِدت ... ولـيس يفتحُها راقٍ إلى الأبد

إلاّ بالإلهَ فـإنْ يرحمْ تـحـلّ بــه ... وإن أباه فلا تـرجـوه من أحدِ

تحريم الغيبة

يحرصُ عبدُ ا لله بن المبارك رضي ا لله عنه على تجنُب الغيبة التي نهـى ا لله سبحانه عنها في كتابه العزيز :

وغيبة الناس ، إنّ غَيبتهم ... حرَّمها ذو الجلال في الكتبِ

مأخذه على أبي العتاهِيَة

ليس معنى الزهد الصحيح في عُـرْف الزاهدين أنْ يكون على حساب شعيرةٍ أخرى من شعائر الإسلام ، وقد نظر ابن المبارك رضي ا لله عنه في بغـداد إلى رجل عليه ثياب رَثَة من صوف لا يخالطها غيره ، فقال : مَنْ هـذا ؟ فقيل له : هذا أبو العتاهية الشاعر ، فكتب إليه :

أيُها القارئُ الذي لَبِسَ الصو ... ف وأضحى يُعَدُّ في العُبَّادِ

الـزمِ الثَّغْـرَ والتعبُّـدَ فـيـهِ ... ليس بغدادُ موضعَ الزهادِ

إنَّ بـغـداد للملـوك مَحَلٌّ ... ومُـنـاخٌ للقارئ الصيّاد

وكأنّه يقول لأبي العتاهية : إنّك قد أصبْتَ أحدَ شطري الزهد القويم وهو نبذ الدنيا ، وبقي عليك أنْ تستكملَه بالعمل والدأب والسعي والجهاد .

ثناء ودعاء

أيا ربَّ هذا العرش أنتَ رحيمُ | وأنتَ بما تُخْفِي الصُّدُورُ عليمُ
فيا ربِّ هبْ لي مَنكَ حِلْماً فإنني | أرى الحِلْم لم يندمْ عليه حليمُ
ويا ربِّ هبْ لي منك عزماً على التقَى | أُقِيمُ به في الناس حيث أقيمُ

الناس كالعشب

ما أشبهَ الناسَ في مراحل حياتِهم بالنبات ، فما إنْ يطلعُ وينضُرُ حتى يحصدَه الفَناءُ ، وليسَ أعمالُهم إلا غِراساً لهم يقطفون جناها يومَ القيامة :

يا أيُّها الناسُ أنتمُ عُشُبٌ | يحصدُه الناسُ كلّما طلعا
لا يحصد المرءُ عند فاقته | إلّا الّذي في حياته زرَعا

أطْوَلُ قصيدة لابن المبارك رضي اللهُ عنه

لهذا الحَبْر الجليل ، الشاعر الحكيم ، قصيدةٌ هي أطولُ ما في أيدينا من قريضه (١) ، إذ تقع في ستة وثلاثين بيتاً رواها له الحافظ ابن عساكر ، ويقال

(١) القريض : الشعر .

في سبب تأليفها إنهم حفروا بخراسان حُفَيْراً فوجدوا فيه رأسَ إنسان ، ضخماً جدّاً ، فوزنوا سناً من أسنانه ، فوجدوها (١) سبعة أساتير (الإستار الواحد يَزِنُ ٢٠,٠٥ غراماً) أي بحدود /١٥٠/ غ . فاهتزّ الشاعر الحكيم لهذه الواقعة ومضى يتصوّر ضخامة السابقين ، وكيف طوتْهم المنيّة ، فانهمرتْ عيناه بغزارة :

تـذكَرتُ أيّامَ ما قد مضَى فهاجَ لي الدمع سَحّاً هَتُونا (٢)
فردَّدتُ في النفسِ ذكراهمُ لِـيُحْـدِثَ ذلك للقلـب لـينـا

ويستمّر في تفكيره بذلك الأثر العجيب ، ويجعل منه عبرةً ناطقة باقية وكأنّما تخطر له حوادث أخرى لا تقلّ عنه إلفاتاً ومَنْبَهَةً ، فيخاطب نفسَه :

وما إنْ نزالُ على حـادثٍ يطيرُ له القلبُ رَوْعاً حَزِينا
وفي كلّ يومٍ وفي مِسيَـةٍ تكونُ النوائبُ بالموتِ فينا
وإمّا قـريـباً تُـراشُ بـهِ وإمّـا شِمـالاً وإمّـا يـمينـا (٣)
إذا سكَن الرُّوْع عن ميّت بُـدِهنا بآخر ينعى السُّكونا (٤)
وكيفَ البقاءُ على ما أرى ستَـوْتَـيْنَ عمّا قليلٍ يَقِينا

---

(١) السّنّ : مفرد الأسنان ، وهي مؤنثة .

(٢) سَحّ الدمع : سال . هَتُوْنٌ : كثير القَطْر .

(٣) تُرَاشُ به : تضعفُ به .

(٤) الرُّوع : بضم الراء القلب . والرَّوْع (قبل ثلاثة أبيات) : الخَوْف . وينعَى (بفتح العين : يخبر بالموت . والسُّكون هنا : الساكنون ، وهم الموتى ، لأنهم لا يتحركون . وبُلِهَ : فوجئ .

وهاهم أولاءِ كرامٌ أعزَّةٌ يُوَارَوْن في مقابرهم ، وفيهم مَنْ كان حبيباً إلى أهله ، ولم يبرحْ مِنْ قلوبهم حتى بعد وفاته ، وفيهم الوقور الشريف والتقي الصالح ، وفيهم الأقارب والأصحاب .. كل أولئك غودروا ، وآبَ أشياعُهم وهم يتأوّهون عليهم ، وفي أعينهم دموع آسية ، وفي قلوبهم لوعة دامية :

دفَنْتُ الأحبَّةَ لم آلُها ⁂ أُهيلُ عليها تراباً وطينا (١)

وكانت تعزُّ على أهلِها ⁂ وأعززْ بها اليوم أيضاً دفينا

لقد غيَّب الموتُ في لحده ⁂ وَقاراً نبيلاً وبِرًّا ودينا

وصحبيَ والأهلَ فارَقْتُهمْ ⁂ ولَيتَ أراهم رفاقاً عزينا (٢)

كأن تأدُّبَ أهليهمُ ⁂ حنينُ عشارٍ تحبّ الحنينا (٣)

وإخوان صدق لحقْنا بهم ⁂ فقد كنْت بالقُرْب منهم ضنينا

وأوْحشَتِ الدّارُ مِنْ بعدِهم ⁂ أظَلُّ على ذكرِهمْ مُستَكينا

هكذا ناموس الحياة ، يجري عليه أفواج البشر من دون أنْ يتأبّى عليه منهم مَلِكٌ ولا سوقة ، ولا يُفْلِتَ من قبضته قديمٍ ولا أخير :

وإنْ كنتِ بالعيشِ مغتَّرةً ⁂ تُمنِّيكِ نفسُك فيها الظنونا

فنادي قبورك ثمّ انظري ⁂ مصارع أهلِكِ والأقربينا

إلى أين صاروا وماذا لقُوا ؟ ⁂ وكانوا كمثلِكِ في الدَّورِ حينا

وأين الملوكُ وأهلُ الحجا ⁂ ومَنْ كنتِ ترضَيْنَ أو تحذرينا ؟

وأينَ الذينَ بَنَوا قبلَنا ؟ ⁂ قروناً تتابَعُ تتلو القرونا

---

(١) لم آلها : لم يقصّر في الدفن ، لأنّ من مصلحة الميّت أن يُعَجل في دفنه .

(٢) عزين : متجمّعين .

(٣) تأدّب : ندب . عشار : جمع عُشَراء ، وهي الناقة الحامل .

ويعود في نهاية القصيدة إلى خبر الحُفَيْرِ ، وما أدهشه من أمر السِّنَّيْنِ الفخمتين ، ويذكر بقيّة الأسنان الثلاثين ، ويتخيّل صورةَ صاحبها وعِظَم جسمه ، ويتساءل ماذا كان يكفي هؤلاء ، وما كان يشبُعهم ؟ إنّ النفس لَتَضْؤُل أمامهم حقّاً ، وتَقِلُّ ، كيف لا وقد أتى الموت على أولئك الجبابرة الأقوياء ؟

أُتيتُ بسِنَّيْنِ قد رُمَّتا	من الحِصْنِ لمّا أثاروا الدفينا (١)
على وَزْنِ مَنَّيْنِ إحداهما	تُـقِلّ بـه الكفُّ شيئاً رزينا
ثلاثون أخرى على قَدْرِها	تباركْتَ يا أحسنَ الخالقينا
فماذا يقومُ لأفواههمْ	وما كان يملأ تلك البطونا ؟
إذا ما تذكّرْتُ أجسامَهم	تصاغرتِ النفس حتى تهونا
وكلٌّ على ذاك ذاق الرَّدَى	فبادوا جميعاً فهُمْ خامُدونا

وشعر ابن المبارك هادفٌ ذو توجيه سديد وتأثير نافذ ، وهو شعرٌ حسن الصياغة ، وقال ابن أبي حاتم الرازي في ابن المبارك ((من شعراء الفقهاء المبرّزين)) (٢) .

---

(١) رُمَّتا : أصبحتا رميماً ، أي أتى عليهما البلاء .

(٢) الجرح والتعديل ١٧٩/٢/٢ . وانظر البداية والنهاية ١٧٧/١٠ حيث يصف ابن كثير شعر ابن المبارك رضي الله عنه بأنّه حسن .

تاريخ شعراء العربية

شعراء العصر العباسي الأول

أبو العتاهية



إعداد وشرح
لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُورِيَة ـ حَلَبْ ـ خَلفَ الفُنْدُقِ السِّيَاحِي

شارع هدى الشِعْرَاوِيْ

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٢١٢٣٦١ ،٠٢١

نَشْأته

نشأ إسمـاعيلُ بـن القاسـم في الكوفـة ، ولكنـه أمَّ (١) بغـداد فيمـا بـعد واتّصل بدار الخلافة ، ومدح المهدي والهادي والرشيد ، ومات في خلافة المأمون سنة /٢١٢/ هـ ، ومولدُه في عَيْن التمر سنة /١٣٠/ هـ .

وتنقلُ الروايات أنه كان في بَدْءِ أمره يشتغل فاخوريّاً ، وأحـبَّ في تلـك الفترة فتاةً اسمها عُتْبة ، وقال فيها غزلاً كثيراً ، ويقال إنه كُنّي أبا العتاهية لتعتُّهِ ومجونِه واستهتاره .

ومن غزله في عتبة :

إنَّ المليكَ رآكِ أحسنَ خَـلْقِه ورأى جمالَكْ

فحذا بقدرةِ نفسِه حُوْرَ الجنان على مثالك

وهي مبالغة ، ورَجْمٌ بالظّنون ، فتوهُّمه هو الذي جعله يَحْسَبُها كـالحور العين ، وأنّى هيَ منهنّ ، وهل رآهنّ في الدنيا ليشبّه بهنّ محبوبته ؟

ويبدو أنّ هذه المبالغات ، وبعض المآخذ الأخرى هي التي جعلت بعض دارسيه يصمونه بالزندقـة أو المانويـة ، وروى المستشـرق جولدتزيهـر قـول أبـي العتاهية :

إذا أردْتَ شريفَ الناس كلّهم فانظرْ إلى ملك في زي مِسكِين

وتوهّم أنّ الشاعر ينوّه بفضل بوذا .

---

(١) أمّ : قصَد ، ذهب إلى .

الدكتور شوقي ضيف يحيف على أبي العتاهية

نقل الدكتور شوقي ضيف آراءَ بعضٍ معاصري هذا الشاعر وتشكّكَهم في حقيقة زهده ، وكيف ردّوه إلى عناصر مانويّة ، ورأى ((أن أبا العتاهية يذكرُ الثوابَ والعقاب في الآخرة حقّاً ، ولكنّه لا يفصّل الحديث فيهما تفصيلَ القرآن الكريم ، ومن المعروف أنّ المانويّة كانوا يَدْعون للزهد في الدنيا والعمل للآخرة ، كما كانوا يدعون إلى ظاهرٍ حسنٍ كاجتناب الفواحش . ومن هنا يختلط الموقف على من يقرأ أشعار أبي العتاهية الزاهدة .. غير أنّ من يتعمّق هذه الأشعار يجد أبا العتاهية مشغولاً بما كان يراه المانوية من أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظُلْمة ، ومن النور نشأ كلّ خير ، ومن الظُلْمة نشأ كل شرّ وأن أجناس الخير خلاف لأجناس الشرّ ، وفي كل حاسّة من حواسّ الإنسان جنس قائم بنفسه من النّوعين ، جنس مستقلّ عما يماثلُه في الحواسّ الأخرى وفي ذلك يقول أبو العتاهية :

لكلّ شيءٍ معدِنٌ وجوهرُ ... وأوسَطٌ وأصغَرٌ وأكبَرُ
كلُّ شيءٍ لاحقٌ بجوهره ... أصغرُه متّصلٌ بأكبرِهْ
الخيرُ والشرُّ هما أزواجُ ... لذا نِتاجٌ ولذا نِتاجُ
لكلّ إنسانٍ طبيعتانِ ... خيرٌ وشرٌّ وهما ضِدّانِ
والخيرُ والشرُّ إذا ما عُدّا ... بينهما بونٌ بعيدٌ جِدّا

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن أبا العتاهية مانويٌّ من نمط جديد ، إذْ يمزج بين المانوية والإسلام ، إلّا إذا كان قد مَوَّهَ عن مانويّته الخالصة بادّعائه الوحدانية بمثل قوله :

فياعجبا كيفَ يُعْصَى الإلهُ ... أمْ كيفَ يجحَدُه الجاحدُ
وفي كل شيء له آيــةٌ ... تــدلّ علـى أنّه واحِدُ

ويضيف الدكتور شوقي ضيف أنَّ تعاليم ماني كانت مزيجاً من الزرادشتية والنصرانية والبوذيّة ، ونرى أبا العتاهية يصوّر لنا في بعض شعره الزاهد الناسكَ في صورة بوذا المشهورة إذ يقول :

يامَنْ تشرّفَ بالدنيا وزينتها ... ليس التشرّفُ رفعَ الطين بالطين
إذا أردتَ شريفَ الناس كلّهم ... فانظرْ إلى ملكٍ في زيّ مسكين

ومعروف أن بوذا عند الهنود كان ملكاً أو ابن ملك خلَع ثيابَ ملكه وساح في العالم عابداً ناسكاً .

وخصلةٌ عند أبي العتاهية لا يمكن تفسيرُها إلا على أساس نزعته المانويّة ذلك أنّه كان مع دعوته إلى الزهد شحيحاً شديداً مع كثرة ما كان يكتنز من الذهب والفضّة .. حتى ليأبى أن يتصدّق بدانق (١) ، وتفسيرُ ذلك أنّ المانويّة كانوا يؤمنون بأنّ المانوي الصادق ينبغي أن يعيش على المسألة ، فلا يأكل إلا مِنْ كسْب غيره الذي عليه غُرْمه ومأثمه (٢) .

---

(١) الدانق : سدس الدرهم . والسّاقط المهزول .

(٢) انظر العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف /٢٤٢-٢٤٣/ .

وليس من السَّهْل أن نُخْرج مُسْلماً من دين ا لله الإسلام ، ونلحقه بالمانوية المجوسيّة ، وعندنا أنّ مَنْ نطقَ بالشهادتين فهو مسلم ، ومعنى هذا أنّ من يذكر إيمانه بالآخرة ، ولو مرَّة ، فقد دلّ على إيمانه بها ، وأبو العتاهية يقول :

فلو أنّا إذا مِتْنا تُرِكْنا	لكان الموتُ غايةَ كلّ حيٍّ
ولكنّا إذا مِتْنا بُعِثْنا	ونُسألُ بعدَها عن كلّ شيٍّ

تحوّله من اللهو إلى الزهد

أمضى أبو العتاهية قرابة خمسين سنة من عمره (١٣٠ - ١٨٠) هـ وهو يعيش اللهو والقَصْف ، حتى كانت سنة /١٨٠/ هـ ، وهي السنة التي نزلَ فيها الرشيدُ الرّقّةَ ، فإذا هو يتحوّلُ من حياة اللَّهْوِ إلى حياة الزهد والتقشُّف ولُبْس الصُّوْف .

ولكنّ أبا العتاهية الذي أكثر منذ هذا التاريخ من شعر الزُّهْد لم يكن متفقّهاً ، فندَّت عنه شوارد ، وأُخِذتْ عليه في طريقته مآخذ ، من ذلك أنَّ عبدا لله بن المبارك رضي ا لله عنه ، وكان عبدا لله أمير المؤمنين في الحديث النبوي في عصره ، مرَّ ببغداد برجل يلبس ثياباً رثّةً ، ويتظاهر بالتقشّف فقال : مَنْ هذا . فقيل له : أبو العتاهية ، فكتب إليه :

أيُّها الزاهدُ الذي لِبَسَ الصوفَ	- وأضحى يُعَدُّ في العُبّادِ
الزمِ الثَّغْرَ والتعبُّدَ فيهِ	ليسَ بغداد موضعَ الزُّهّادِ
إنّ بغدادَ للتُّجارِ محلٌّ	ومُناخٌ للقارئِ الصيّادِ

فليس الزُّهْدُ – في نظر ابن المبارك – في المظاهر الصُّوفية فقط ، بل لا بدَّ من العملِ الجثيث مع ذلك ، حتى يكفّ المرء وجهَه عن النـاس ، وحتـى يجـاهد في سبيلِ ا للهِ مدافعاً عن المسلمين ، على شاكلة ما كان يصنع عبدا لله بن المبارك الذي كان يهاجرُ مِنْ بلدتِه مَرْو ، ليسهرَ على ثغـور المسـلمين في شِمالِ الشَّـام وليحرسهم من غارات الأعداء .

أسلوبه

تنحَّى أبو العتاهية في قصائده عن المقدّمة الطَّلليّة ، وعن وصف الصحراء إلا ما قد يأتي عرَضاً ، ولم يعدْ يتمسّك بالأسلوب الجزل الرَّصين ، بل مـال إلى الأسلوب الليّن الخفيف ، وتفشَّـى في أشعاره الكـلام الشعبيّ الفصيـح ، الـذي اقتبسه من الحياة اليومية ، مبتعداً عن التكلّف والتّصنّع ، ومِنْ خير ما يمثّـل ذلـك عنده مدحتُه في المهدي ، وفيها يقول :

أتَـتْـه الـخـلافـةُ مـنـقـادةً — إلـيـه تـجـرِّرُ أذيالَها
ولـم تَـكُ تـصـلُـحُ إلّا لَـهُ — ولـم يـكُ يصلُحُ إلّا لها
ولـو رامَـها أحـدٌ غـيـرُه — لَزُلْزِلَتِ الأرضُ زلزالَها
ولـو لـم تـطعْهُ بناتُ القلوبِ — لـما قَـبِلَ اللهُ أعمالَها (١)
وإنّ الخليفةَ من بُغْضِ ((لا)) — إليه ليُبْغِضُ مَنْ قـالَـها

والقصيدة من البحر المتقارب ، وهو بحر خفيف ، وألفاظها عذبة سهلة.

---

(١) بنات القلوب : النيّات .

مع الرشيد

أكبرُ خليفةٍ عُني أبو العتاهية بمديحه هو الرَّشِيد ، وقد أشار إلى توليته العهدَ لبنيه من بعده فقال :

وشَدَّ عُرَى الإسلام منه بفتيةٍ ثلاثةِ أملاكٍ وُلاةِ عهودِ

وكان يحرص دائماً على مديحه بالتقوى والانصراف عن الدنْيا متعرّضاً لوصف جيوشه وذبِّه عن حمى الإسلام وما يُنْزل بأعدائه من موت يمحقُهم يقول :

وهارونُ ماءُ المُزْنِ يُشْفَى به الصَّدَى
إذا ما الصَّدِي بالرِّيقِ غَصَّتْ حَنَاجِرُهْ (١)
وأوسطُ بيتٍ في قريشٍ لَبَيْتُه
وأوَّلُ عِزٍّ في قريشٍ وآخرُهْ
إذا نُكِبَ الإسلامُ يوماً بنكبةٍ
فهارونُ مِنْ بينِ البريّةِ ثائرُهْ
ومَنْ ذا يفوتُ الموتَ والموت مدركٌ
كذا لم يَفُتْ هارونَ ضِدٌّ يُنافِرُهْ

والأسلوب هنا جزل رصين ، ولكنه لا يُبْعِدُ في جزالته ورصانته .

---

(١) المُزْن : السُّحُب . الصَّدَى : العطش . الصَّدِي : العطشان .

مرثيته في علي بن ثابت

قال أبو العتاهية يرثي علي بن ثابت :

فتىً لم يملَّ النَّدَى ساعـةً ... على عُسْرِه كانَ أو يُسْرِهِ
أتـتْــهُ الـمنـيَّـةُ مـغتالةً ... رُوَيْـداً تـخلَّلُ مِنْ سِتْرِهِ
فخَلَّى القصورَ لمَنْ شادَها ... وحلَّ من القبرِ فـي قَعْرِه
وأصبحَ يُهْدَى إلى مـنـزلٍ ... عميقٍ تُؤنِّقَ فـي حَفْرِه
أشـدُّ الـجـماعـةِ وَجْداً به ... أشَدُّ الجماعةِ في طَمْـرِهِ

غزله

لأبي العتاهية غزل رقيق ، يقول في عتبة :

كأنَّها مــن حُـسنـهـا دُرَّةٌ ... أخرجها اليَمُّ إلى السَّـاحِـلِ
كأنَّ فــي فيها وفي طَرْفِها ... سواحراً أقبلْنَ مِـنْ بـابـلِ
لم يُبْقِ منّي حبُّها ما خلا ... حشـاشـةً فــي بـدَنٍ ناحِلِ
يا مَنْ رأى قبلي قتيلاً بكَى ... مِنْ شِدَّةِ الوَجْد على القاتِلِ

زهديّاته

منذ توبة هذا الشّاعر ظلّ قرابةَ ثلاثين عاماً يتغنّى بكـأس الموت الدائـرة على الخَلْق .

فالمالُ إنّما ينفعُ المرءَ إذا بقي مملوكاً يُنْفَقُ على المحتاجين ، فينتفعُ صاحبُه بأجْرِهِ في الآخرة ، أمّا الذي يدّخره ويكتنزه فلا ينتفع منه : (١)

إذا المرءُ لم يُعتِقْ من المال نفسَه — تـمـلَّكَهُ المالُ الذي هـو مالكُهْ
ألا إنـمّا مـالـي الـذي أنـا منفقٌ — وليس لي المالُ الذي أنا تاركُهْ
إذا كنتَ ذا مالٍ فـبـادرْهُ بـالـذي — يـحـقّ وإلّا استهلكـتـه مَهالِكُهْ

السير في الفتن

عجباً لمن يسعى من أجل الدنيا ، ولا يفتُرُ ، ويغوص في الفتنة ، وفيها هلاكه ، فما مثله إلّا كمثل الأنعام ، دائماً تراها تطلب المرعَى ، وترجو أنْ تَسْمَنَ ، مع أنّها إذا سَمِنَتْ صارتْ جاهزةً للذّبْح فيذبحُها صاحبها :

للهِ دنـيا أنـاسٍ دائبين لها — قد أرتعوا في رياض الغيِّ والفِتَن (٢)
كسائماتٍ رتاعٍ تبتغي سِمَناً — وحتفُها لو دَرَتْ في ذلك السِّمَنِ (٣)

إلهي لا تعذِّبْني

لقد أخطأتُ ، يامولاي ، وأعترفُ بما جَنتْ يـدايَ ، فـاعْفُ عـني ، ولا تعذّبني ، فما وقع قد وقع ، وليس له من منقذ إلا عفـوُك ، وإنّـي لأحْسِنُ بـكَ

(١) قال صلى الله عليه وآله وسلم : ((إنّما لكَ من مالِكَ ما أكلت فأفنيت أو لبسْتَ فأبليتَ ، أو تصدَّقْتَ فأمضيْت)) .

(٢) دائب : جادّ ، كثير العمل . أرتعوا : رعَوْا وأصابوا . الغيّ : الضلال .

(٣) سائمات : راعيات . حتف : موت .

مولايَ ظنّي ، وأبوءُ بذنبي ، فقد فرطَتْ منّي خطايا كثيرة ، آهِ كـم أنـا عليها نـادمٌ ومع كل تلك الخطايا يظنّ الناسُ بي خيراً ، لأنّهم لا يَعْرفون ، ولا يَدْرُون أني أحبّ زينة الحياة الدنيا ، وزهرتها ، وعرَضَها الزائل :

إلهي لا تعذبني فإنّي — مُقِرٌّ بالذي قد كان منّي
وما لي حيلةٌ إلّا رجائي — لعفوكَ إنْ عفوتَ وحُسْنُ ظنّي
وكمْ مِنْ زلّة لي في الخَطايا — وأنتَ عليَّ ذو عَفْوٍ ومَنٍّ
إذا فكّرتُ في ندمي عليها — عضضتُ أناملي وقرعتُ سِنّي
أجَنُّ بزهرةِ الدنيا جنوناً — وأقضِي طولَ عمري بالتمنّي

آمال عريضة

ما أكثرَ الآمال التي حلِمْتُ بها ، وكم أقبلتُ على الدنيا وشُغِفْتُ ! حَسْبي حَسْبي ، لقد آنَ لي أنْ أستعدّ للرحيل ، وأحسُبَ حسابَ الموت :

تعلّقتُ بآمالٍ — طِوالٍ أيّ آمالِ
وأقبلْتُ على الدّنْيا — مُلِحّاً أيّ إقبالِ
أيا هذا تجهّزْ لِـ — فِراقِ الأهل والمالِ
فلا بُدّ من الموتِ — على حالٍ من الحالِ

لا تَلْعَبَنّ بك الدنيا

ينتهي الليلُ فيعقبُه نهار ، وخلالَ ذلك تَقْضي أجيال وتمضي أشياء وتفنى مخلوقات ، ويموت شخص ، فيندبه محبُّه ، ثمّ يسلو عنه ، ثم يموت هذا المحبّ السالي ، فيسلو عنه أيضاً أصحابه وأحبابه ، ويعيش المرء يَنْعَمُ بملاذّ الحياة ونعيمها ، ثمّ يتركُها وكأنّما كانت سراباً ، فما أحرى به ألّا تستهويَه الدُّنيا ولا يَغْفُلَ عن الاعتبار بمن مضى ، فإنّ الموتَ حقّ ، ولا ينفع المرءَ بعدَ موته إلا عملُه الصَّالح :

ما للجديدَيْن لا يبلى اختلافُهما	وكلُّ غضٍّ جديدٍ فيْهما بالِ (١)
يامَنْ سَلا عن حبيب بعد موتتهِ	كم بعد موتِك أيضاً عنكَ مِنْ سَالِ (٢)
كأنّ كُلّ نعيم أنتَ ذائِقُهُ	من لذَّةِ العيش يحكي لمعةَ الآلِ (٣)
لا تَلْعَبَنّ بكَ الدُّنيا وأنتَ ترى	ما شئتَ من عِبَرٍ فيها وأمثالِ
ما حيلةُ الموتِ إلّا كلُّ صالحةٍ	أوْ لا فما حيلةٌ فيها لمحتالِ

لِدُوا للموت

يتوالدُ النّاس ، وإذا الموتُ يأتي على كلّ مولود ، ويبنون ما يَبْنُون ، وإذا

---

(١) الجديدان : الليل والنّهار .

(٢) سَلا : شُغِل عنه ونسِيَ ذِكْرَه .

(٣) الآل : السَّراب .

بذلك يصير إلى يَباب (١) ، وإذا بالبُناةِ يؤولون إلى فنـاء ، ويـذرُون مـا بَنْـوا إلى ورثتهم ، مستسلمين إلى الموت الذي يـأتي علـى كـل البشـر ، دون أنْ يَحْنُـفَ على أحد ، ولا يجامل من أحد . وفي الآخرةِ يُسْأَلُ المـرءُ عمّـا كسَـبَ في دنيـاه وإنّ أجوبتَه تكونُ وَفْقَ صحيفة أعماله التي اكتسَـبها في دنيـاه ، وتكـون عاقبتُـه أيضاً بحسَبِ أعماله ، جنّةً أو ناراً :

لِدُوا لِلْموتِ وابنُوا للخَـرابِ	فـكُـلُّـكُمُ يـصيـرُ إلـى تبَابِ
لمَنْ نبني ونحنُ إلـى تـرابٍ	نصيرُ كما خُلِقْنا مِن تراب ؟
ألا يـامـوتُ لـم أرَ منكَ بُدّاً	أتـيت وما تحيفُ وما تُحَابي
سـأُسْـأَلُ عن أمور كنتُ فيها	فما عُذْري هناك وما جوابي
بأيّةِ حُجّةٍ أحتجُّ يوم الحساب م	إذا دُعِـيـتُ إلـى الـحسـابِ
هما أمرانِ يوضحُ عنهما لي	كتابي حين أنظرُ في كـتـابي
فـإمّـا أنْ أخـلّـدَ في نعيمٍ	وإمّـا أنْ أُخَـلَّدَ فـي عذابِ

غرور الدنيا

تَعْرِضُ الدنيا ألوانَ مَفاتنِها ، وإذا النفوسُ تُقْبِلُ عليها ، وتُعَلِّقُ عليها آمالاً عريضة ، ورغائبَ كثيرة ، كلّما أشبعَ منها المرءُ رغْبَةً تولّـدتْ لـه رغبـةٌ أخْـرَى أفيستسلمُ لرغائب دنيوية لا تكـاد تنتهـي ، مـعَ أنّ عمـره ينتهـي ؟ ﴿ قـل كـلٌّ يعملُ على شاكلته ﴾ ،ولا شكّ أنّ الذي لا يجْعلُ همَّه الآخرة لفقير فقير :

---

(١) يباب : خراب .

نَصبَتْ لنا دونَ التفكُّرِ يا دُنيا
أمانيَّ يفنى العمرُ مِنْ قبلِ أنْ تَفْنَى

متى تنقضي حاجاتُ مَنْ ليس واصلاً
إلى حاجةٍ حتى تكونَ له أُخرى ؟

لكلّ امرئ فيما قضى الله خطَّةٌ
من الأمرفيها يستوي العبد والمولى

وإنّ امرأ يسعى لغير نهايةٍ
لمنغمسٌ في لُجَّة الفاقةِ الكبرى

لا قرار في الدنيا

أيّاً ما تحرَّيْنا به القرار في هذه الدنيا فلن يكون قراراً ، كيف والدنيا كلُّها زائلة ، ومن يتّبع هواه ، ويسْتجبْ لرغائبه يصبحْ لها عبداً ، ومن عفّ ونهى نفسَه عن هواها ، كان حرّاً :

طلبْتُ المستقرّ بكل أرضٍ	فلم أرَ لي بأرضٍ مستقرّا
أطعْتُ مطامعي فاستعبدَتْني	ولو أنّي قنِعْتُ لكنتُ حُرّا

أهل القبور

يخاطب الشاعر صاحبين له ، ويوصيهما أن يمرّا بالقبور ، ويسلما على أهل ديار الآخرة ، فقد كان منهم البطل الفحْل ، والسيّد المبجَّل ، ومنهم ومنهم ، ثم أصبحوا تحت صفائح القبور ، ونحن الأحياءَ بهم لاحقون :

أخويَّ مُرَّا بـالـقـبو ... رِ وسلِّـمـا قبلَ المَسِيرِ
ثمَّ ادْعوَا مَنْ عادَها ... مِـنْ مـاجـدٍ قَرْمٍ فَخُورِ (١)
ومسوّدٍ رحبِ الفناء ... أغرّ كالقمرِ الـمـنـيـر
أصبحتُم تحتَ الثَّرى ... بينَ الصفائحِ والصُّخور
أهلَ القبورِ إلـيـكـمُ ... لا بـدّ عـاقـبـةُ الأُمورِ

غرور المطامع

إلى متى إلى متى أجري وراء مطامعي ورغائبي ولا أَعِفُّ ، إنَّ خـيراً مـن كلِّ ذلك صبرٌ وقناعة ، وحذرٌ من الغفلة ، فهذه الدنيا مكـدَّرة ، وحـريٌّ بـالمرء ألّا يركَنَ إليها ، وألّا يشتطّ في الفرَح ، ولا يبالغ في الحُـزْن ، ويعتـبرَ بمَـنْ قـبله كلٌّ لّما انتهى أجلُه مضى ، ومَنْ كان منهم ثرّياً لم يأخذْ من ماله شيئاً معـه . ألا وإنّ أمامنا حساباً وسؤالاً ، فلْنرعَوِ عن الأهواء ، ولْنجتنِبْ ما يُخـالفُ الجماعـة الإسلامية ويفرّق شملها :

حـتّـى متى يستفزّني الطَّمعُ ... ألـيس لـي بـالكفـافِ مُتَّسَعُ
ما أفضلَ الصّبرَ والقـنـاعـة ... للناس جميعاً لو أنّهم قـنعُوا
وأخدعَ الليل والنهار لأقـوام ... أراهم في الغيّ قـد رتـعـوا
أمّـا الـمـنـايـا فغيرُ غافلةٍ ... لكل حيّ من كأسِها جُـرَعُ
أيُّ لبيبٍ تصفو الحياة لَـهُ ... والـمـوتُ وردٌ لـه ومُنْتَجَعُ
لقد حلَبْتُ الـزّمـانَ أشطُرَهُ ... فكان فيهنّ الصَّـابُ والسَّـلَعُ (٢)

---

(١) عادَها :زارها ، أيْ مات وصار من أهلها . ماجد : سيّد عالي الشأن . قَرْم : فحل.

(٢) الصَّاب والسَّلَع : نباتان مُرَّان مثل العلقم .

مالي بما قد أتى بــه فـرَحٌ ولا علـى مــا ولَـى به جزَعُ (١)

للّـه درّ الـدنَـى لـقد لعبتْ قبلي بقوم فما تــرى صـنعوا

بـانُوا ووفّتهم الأهـلّـة مــا كان لهم والأيــام والـجُـمَـعُ

أثْرَوا فلم يدخلوا قبــورَهــمُ شيئاً من الثــروة التي جمعوا

غداً تُوَفّى النفوس ما كسبتْ ويحصد الزارعون ما زرَعُوا

تـبــاركَ اللهُ كيفَ قد لعبتْ بالنّاس هذي الأهواءُ والبِدَعُ

شتّتَ حبُّ الدنَى جـمــاعتَهم فيها فقد أصبحـوا وهم شِيَعُ

الموت والقبر

رأيتُ الحقّ لا يـخـفَــى ولا تخفَى شواكِلُهُ

ألا فـانـظـرْ لنفسِك أيّ - زادٍ أنــتَ حـامِلُهُ

لمنزل وحدةٍ بين المقابر - أنــتَ نــازلُــهُ

قصير السَمْك قد رُصّتْ عليك به جـنادله (٢)

بـعـيد تــزاور الجيران - ضيّـقة مــداخلُه

ألا إنّ المنـيَّـةَ مـنهـلٌ - والخَلْــقُ نـاهلُهُ

لِيعـلـمْ كلُّ ذي عملٍ بأنّ الله سائـلُــهُ

وعلى هذه الشاكلة يتحدّث هذا الشاعر عن الموت القريـب ، وضـرورة الزُّهْد في الدنيا ، وأنّ الموت حقّ لا مفرّ منه ، ووراءه حسـاب وجـزاء وجنّـة أو نار . وصبّ كلَّ هذه الحكم بقالب شعبي بسيط ، يفهمه الخاصّة والعامّـة ، من دون أن يستعمل اللغة اليوميّة العاميَّة .

---

(١) وَلَى : مخفف من ولّى .

(٢) السَّمْك : السقف . جنادل : حجارة .

تاريخ شعراء العربية

شعراء العصر العباسي الأول

أبو تمام



إعداد وشرح
لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُورِيَة - حَلَبْ - خَلفَ الفُنْدُقِ السِّياحِي

شارع هدى الشِعْرَاوِيْ

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٠٢١،٢١٢٣٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه ومولده ونشأته

هو حبيبُ بن أوس الطّائي ، وُلِدَ بقريةِ جاسم بقرب دمشق ، في أواخرِ القرْنِ الثاني للهجرة ، بحدود سنة / ١٨٨/ هـ ، ونشأ في دمشق وكان أبوه عطّاراً فيها ، وقد ألحقه بحائكٍ ليتعلّم خياطة الثياب ، وصار حبيب يختلف منذ نعومة أظفاره إلى حلقات المساجد ينهلُ ممّا كان يجري فيها من جداول الشعر والثقافة ، وسَرْعانَ ما تدفّق يَنْبوعُ الشعر على لسانه واتّجه به إلى بعض اليمنيين والطائيّين في بلدته وفي حمص .

ونراه يولّي وجهَه نحو مصر قاصداً عيّاش بن لهيعة الحضرمي الذي كان يقوم على شرطتها وخراجها ، وأغلبُ الظنّ أنه كان قد ذهب إلى مصر قبل هذه المرّة ، إذْ تنقلُ الرواياتُ أنّه عاش في صباه مدّة هناك ، وأنّه كان يسقي الناس في جامع عمرو بن العاص رضي ا لله عنه . وكذلك زارها إبّانَ ولاية المطّلب بن عبدا لله الخزاعي / ١٩٨ - ١٩٩ / هـ .

وخلال قدومه الأخير على مصر التقى بعبدا لله بن طاهر الذي ولي مصر /٢١١ - ٢١٣/ هـ . وفي ديوانه مدح لابن طاهر ، ويعود إلى الشام سنة /٢١٤/ هـ والمآتم منصوبة في كل مكان على بطل طيّئ المغوار محمد بن حميد الطُّوسي الذي كافح بابك كفاحاً مريراً ، ثم سقط في ميدان النضال لأوائل هذه السّنَة ، وقد رثاه أبو تمام بكاء حارّاً أخذ يدور على الألسنة وأخذ يحتلّ به مكانة ممتازة بين الشعراء ، يقول في رثائه :

كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ ولْيَفْدَحِ الأمْر

فليسَ لِعَيْنٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ (١)

توفِّيت الآمالُ بعد محمَّدٍ

وأصبح في شُغْلٍ عن السَّفَر السَّفْرُ (٢)

فتىً ماتَ بين الطَّعْنِ والضَّرْب مِيتة

تقوم مقام النصر إن فاته النصر

وما مات حتى مات مضربُ سيفهِ

من الضَّرْبِ واعتلَّتْ عليه القَنا السُّمْرُ (٣)

وقد كان فوتُ الموتِ سَهْلاً فردَّه

إليه الحِفاظُ المُرُّ والخُلُق الوَعْرُ (٤)

ونفسٌ تعافُ العارَ حتّى كأنّما

هو الكُفْرُ يومَ الرَّوْعِ أو دونَه الكُفْرُ (٥)

فأثبتَ في مستنقَع الموتِ رِجْلَهُ

وقال لها من تَحْتِ أَخْمَصِكِ الحَشْرُ (٦)

تردَّىثيابَ الموتِ حُمْراً فما دجى

لها اللَّيْلُ إلَّا وهْيَ من سُنْدُسٍ خُضْرُ(٧)

مضَى طاهرَ الأثوابِ لم تَبْقَ روضةٌ

غداةَ ثوَى إلّا اشتهتْ أنَّها قَبْرُ (٨)

---

(١) يجلّ ويفدح : يعظم . (٢) السَّفْرُ : المسافرون .

(٣) اعتلّت : مرضَتْ . القنا : الرّماح .

(٤) الحفاظ : المحافظة على الحرمات . الوعْر : الصَّعْب .

(٥) تعاف : تكره . يوم الرَّوْع : الحرب . (٦) الأخمص : باطن القدم .

(٧) دجَى : أظلم . سُندس : حرير . (٨) ثوى : مات .

وفي هذا الرثاء البديع قال أبو دلف العجلي : لم يَمُتْ مَنْ رُثِيَ بمثل هـذا الشّعْر .

وتردّد أبو تمّام بعد ذلك على الرّقّة والمَوْصل ، ورحل إلى بغداد ، ومـدح فيها الحسن بن سهل بقصيدته التي يقول فيها :

ستٌّ وعشرون تدعوني فأتبعها إلى المشيبِ ولم تَظْلِمْ ولم تَحُبِ (١)

اتّصاله بالمأمون

لعلّ أوّل قصيدة مدح بها أبو تمّام المأمونَ هي قصيدته :

كُشِفَ الغِطاءُ فأوقدي أو أخْمدي لم تَكْمَدِي فظَنَنْتِ أنْ لمْ يَكْمَدِ

ويُشيد بسياسة المأمون التي قضـتْ علـى فِتَـن المصريـين ، وقطعـتْ دابـرَ ثوراتهم ، يقول :

وانتاشَ مِصْرَ من اللَّتَيَّا والّتـي بتجاوزٍ وتعطُّف وتعمُّدِ (٣)

والمعروفُ أن المأمون زار مصر في أول سنة /٢١٧/ للهجرة ، وقـد عـادَ منها إلى دمشق ، ثم توجّه إلى ثَغْر ((أذنة)) مُعَسْكِراً بها وجيوشُه تتغلغل وراء البيزنطيّين مبدّدين لجموعهم في غير جبهة ، وتقدَّمَ بنفسهِ إلى حِصْن ((لؤلؤة)) فأناخ به ، ونرى أبا تمام يتغنّى بتلك الانتصارات في ميميته التي مدح بها المأمون ويصور تلك الجيوش واستبسالها في القتال :

---

(١) لم تحب : من الحوب وهو الإثم .

(٢) باح لسرّ : فإنْ شئتِ فلومي ، وإنْ شئتِ فذري .

(٣) انتاش : أنقذ .

مُستَرسِلِينَ إلى الحُتوفَ كأنما   بين الحُتوفِ وبينهم أرحامُ (١)
آسادُ موتٍ مُخْدَراتٌ مالَها   إلاّ الصَّوارمَ والقنا آجامُ (٢)

مع رجال المأمون

مدَح أبو تمام كثيراً من قادة المأمون وولاته ، من هؤلاء عبدُ الله بن طاهر والي خراسان ، وكان قد التقى معه خلال ولايته على مصر ، وقد أكرم ابنُ طاهر أبا تمام لمّا قصده واستقبله استقبالاً حافلاً هو وكُتّابه وشعراؤه ، ومن القصائد التي أنشده أبو تمام بائيّته :

أهنَّ عوادي يوسف وصواحبُهْ   فعَزْماً فقِدْماً أدركَ السُّؤْلُ طالبُهْ

وفيها يقول في عبد الله بن طاهر :

سَما للعُلا مِنْ جانبَيْها كليهِماسُمُوَّ عُبابِ الماءِ جاشتْ غواربُهْ (٣)

فنوّلَ حتى لم يجدْ مَنْ يُنيلُهُ   وحاربَ حتى لم يجدْ مَنْ يحاربُهْ(٤)
ويا أيُّها الساعي ليُدْرِكَ شأوَه   تزحزَحْ قَصِيّاً أسوأُ الظّنّ كاذبُهْ (٥)

---

(١) الحتوف : جمع حتف . وهو الموت .

(٢) مُخْدَارت : ساكنات بيوتها وغاباتها . آجام : جمع أجمة وهي الشجر الكثيف الملتفّ .

(٣) العباب : كثرة الماء ، وارتفاع الموج واصطخابه . وغواربه : أعاليه . وجاشت : ثارتْ .

(٤) نوَّل : أعطى .

(٥) شأوه : غايته .

ولمّا أنشدَ أبو تمّام هذه المِدْحةَ في عبد الله بن طاهر نَثَر عليه ذلك الوالي ألْفَ دينار .

عودته إلى سُرّ مَنْ رأى

عاد أبو تمّام إلى سُرَّ مَنْ رأى ، وفي طريق عودته نزلَ بهمذان على أبي الوفاء بن سلمة ، وهَطَلَ خلال تلك الفترة ثلج كثيف ، حبَسه أشهراً ، فأكبَّ على خزانة كتبه يؤلّف ويصنّف مجاميع من الشعر أشهرها كتاب الحماسة .

ولمّا وصَل إلى سُرّ مَنْ رأى أخذ يتغنّى بانتصارات القوّاد على بابك الخُرَّمي ، وكان هذا المرتد قد ثار منذ سنة /٢٠١/ هـ ، ونازله كثيرون من قُوّاد المأمون ، دون أن يظفروا به ، وما توافي سنة /٢٢٠/ هـ حتى يعقد المعتصم للأفشين على الجيوش التي تُنازل أتباعه من الخرّميّة في الجبال وأرمينية وأذْربيجان ، فأحمد حركته ، وقدم به مأسوراً إلى سُرَّ مَنْ رأى ، في أوائل سنة /٢٢٣/ هـ فتعالى بها التكبير ، وقَتَلَ المعتصمُ بابكَ وصلبَه جزاء وِفاقاً لبغيه ونكثه بالعهود . وأخذ الشعراءُ وفي مقدّمتهم أبو تمّام يهنّئون المعتصم والأفشين بهذا النصر المبين ، وله فيه ثلاث قصائد رائعة . الأولى :

غدا المُلْكُ معمورَ الحمى والمنازلِ   مُنَوَّرَ وَحْفِ الرَّوْضِ عَذْبَ المناهِلِ (١)

(١) الوَحْف : الملتفّ .

وفيها يقولُ :

فيا أيُّها النُّوَّامُ عن ريِّقِ الهُدَى وقد جادكم من دِيمةٍ بَعْدَ وَابِلِ (١)

هو الحقُّ إنْ تَستيقظُوا فيه تَغْنَمُوا وإنْ تَغْفلوا فالسيف ليس بِغافِلِ

وفيها أيضاً يشيد بالأفشين قائد المعتصم الذي تعاون هـو وعبد الله بـن طاهر والي خراسان على الإطاحة ببابك ، وتدميره :

لقد لَبِسَ الأَفْشِينُ قَسْطَلَةَ الوغى

مِحَشّاً بِنَصْلِ السيفِ غيرَ مُوَاكِلِ(٢)

رأى بابَكٌ منه الّتي لاشَوَى لهَا

فتُرْجَى سوى نَزْعِ الشَّوى والمفَاصِلِ (٣)

والقصيدة الثانية :

بذَّ الجِلادُ البَذَّ فهو دفينُ ماإنْ به إلاّ الوحوشَ قَطِينُ

وبَذَّ : سبق وغلبَ . والبَذّ : الموضع الذي كان فيه بابك الخرّمي . فبـين الكلمتين جناس . وقطين : ساكنون .

---

(١) الريّق : ريّق السّحاب : أوّله . الدّيمة : مطر ليس بالشديد ، يدوم يوماً وليلة . الوابل : المطر الشديد .

(٢) القسطلة : الغبار . المحشّ : ما تحرك به النار من حديد . ويروى : مِخَشّاً أي شجاعاً مواكل : يكل أمره إلى غيره . أي دخل في غبار الحرب وهو كمحشّ النار في نفوذه واصطلائه نار الحرب ، وهو يتولّى المحاربة بنفسه ، لا يعتمد على غيره من المقاتلين .

(٣) لا شوى لها : لا أخطاء . الشَّوى : جلدة الرأس

فقد عصفت الحرب ببابك ، ودمّرت موقعه في البذّ ، وفتكت بأتباع بابك ، فلم يبقَ منهم أحد ، و لم يبق في منطقة البذّ إلاّ الوحوش البّريّة .

لمْ يُقْرَ هذا السيفُ هذا الصَّبْرَ في هيجاءَ إلاّ عزَّ هذا الدّيْـنُ (١)
قد كـان عُذْرَةَ مَغْرِبٍ فافتَضَّها بالسَّيفِ فَحْلُ المَشْرقِ الأَفْشِينُ(٢)

والقصيدة الثالثة :

آلـتْ أمـورُ الشِّـركِ شَرَّ مـآلِ
وأقَـرَّ بَعْـدَ تَـخَمُّطٍ وَصِيـالِ (٣)
غَضِبَ الخليفةُ للخلافةِ غَضْبَـةً
رخُصتْ لها المُهْجاتُ وهْي غَوالِ
لـمَّا انـتضى جَهْلَ السيوفِ لبَابَك
أغْـمَـدْنَ عـنـه جَهالـةَ الـجُهَّالِ
يا يومَ أرْشَقَ كنتَ رَشْقَ منيَّـةٍ
للخُـرَّمِـيَّـةِ صـائـبَ الآجـالِ (٤)
أسرى بنو الإسلام فيه وأدْلَجُوا
بقلـوبِ أُسْدٍ في صـدور رجالِ (٥)

---

(١) القِرَى : طعام الضيف . و لم يُقْرَ : لم يُطْعَمْ . هيجاء : حرب .

(٢) عُذْرة : بِكْر . كان فتح موضع البـذّ بعيـد المنـال ، مثـل عـذراء أهلُهـا في المغـرب ، فكيف يصل إليها أهل المَشْرق ؟ لكنّ الأفشين فتحَ ذلك الموضع الحصين .

(٣) آلت : انتهت ، صارتْ إلى . تخمُّط : هياج وثورة . صيال : مصاولة ومقاتلة .

(٤) أرشق : اسم جبل في منطقة موقان . الخُرَّمية : جماعـة باطنيـة كـانت تـوالي بـابك . الآجال : جمع أجَل ، وهو موعد الموت ، وحِينه .

(٥) الإسراء والإدلاج : نوعان من السير في الليل .

فتح عمورية

أغار تيوفيل إمبراطور بيزنطة على زِبَطْرةَ بالقرب من سُمَيْساط والحدَث وكل هذه البلدان كان تابعةً للخلافةِ الإسلامية ، ويدين أهلها بالإسلام ، وقد نَكَّلَ الروم بأهل زبطرةَ تنكيلاً فظيعاً ، فصرختْ إحدى المسلمات : وامعتصماه وكان المعتصم قد استشاط غضباً لما وافتْه أنباء الغزو البيزنطيّ ، فجهّز جيشاً ضخماً ، والتقى بتوفيل وهزم جمعَه ومزّقه شرّ ممزّق ، وفتح عمّورية . فقال: أبو تمّام عِدَّة قصائد في تلك المناسبة ، أشهرها ملحمته الرائعة :

السيفُ أصدق أنباءً من الكتبِ في حَدّه الحدّ بين الجِدّ واللّعِبِ

وأبو تمّام يبتهج في هذه القصيدة ابتهاجاً لا حدَّ له بهذا الفتح المبين ،وقد استهلّها بتفضيل القوّة على العقل ، وبتفضيل السيف على الكتب ، والهزء بالمنجمين وما زعموا من أنّ المعتصم لا يفتح عمّورية فإذا هي تسقط أركانها ويتداعى بنيانها أمام مجانيقه وجنوده البواسل ، ويفرّ تيوفيل إمبراطورا بيزنطة على وجهه ، وقد عصف بِقلبه الرعب ، والنيران تأخذ عمّوريةَ من كل جانب يقول :

فتحُ الفتوح تعالى أنْ يحيطَ بهِ
نظمٌ من الشّعْر أو نثرٌ من الخُطَبِ
فتحٌ تفتَّحُ أبواب السماء له
وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القشُب (١)

---

(١) القشب : الجديدة .

ويتحدَّث عن وقعتها وما حقّقت للمسلمين من مُنىً معسولة ومِنْ عزّ ومَجْدٍ ، بينما هوتْ بالروم وديارهم في الحضيض ، ويصوّر استعصاءها على ملوك الفرس والتبابعة وأنها قديمة منذ الإسكندر ، ومع ذلك تحتفظ بشبابها للخليفة الموعود بفتحها ، وكأنما كان نصرُ جنود المعتصم في يوم أنقرةَ جرَباً أصابها فإذا هي تركع صاغرة تحت قدمي المعتصم وقد لطّخ الدمُ ذوائب فرسانها وجباههم ، والتهمتهْا النيران التهاماً ، وعلى الرغم ممّا أصاب جسدَها من جرب ووجهها من تشويه تسكُبُ في نفوس العرب من الفرح والبهجة ما لا تُذْكر بجانبه فرحة ذي الرمّة (غيلان بن عقبة) وبهجته حين كان يلمّ بربع محبوبته ميّة :

لقد تركْتَ أميرَ المؤمنينَ بها
للنار يوماً ذليل الصَّخْرِ والخشَبِ (١)
غادرْت فيها بهيمَ الليلِ وهو ضحىً
يشلُّه وسطَها صبح من اللَّهَبِ (٢)
حتى كأنَّ جلابيب الدُّجَى رغبتْ
عن لونها أو كأنَّ الشمس لم تَغِبِ (٣)

---

(١) أميرَ المؤمنين : منادى بأداة نداء محذوف ، التقدير : يا أمير المؤمنين .

(٢) بهيم : مظلم . يشلّه : يطرده .

(٣) الجلباب : ثوب ضاف .

ضـوءٌ مـن الـنـار والظَّلْماءُ عاكفةٌ
وظلمةٌ من دخانٍ في ضُحىً شَحِبِ (١)
فـالشمسُ طـالـعـةٌ من ذا وقد أفلتْ
والـشمسُ واجبةٌ مـن ذا ولم تجب (٢)
مـا ربـعُ ميَّـةَ مـعـموراً يُطيفُ بهِ
غيلانُ أبهى ربىً من ربعها الخرِبِ(٣)
ولا الخـدودُ وقـد أُدمين من خجل
أشهى إلى نـاظري من خدها الترب

وواضح أنّه يَسْتمدّ من قـانون الأضـداد في وصـف حريـق عمّوريـة ليـلاً وهو استمداد أتاحَ له مثل هذا التصوير الرائع ، فهو في الليـل البهيـم ، ويتصـوّر كأنّه في الصبح المضيء ، أو في الضحى المنـير ، وكأنّمـا خلـعَ الليـلُ لباسَـه ، بـل لكأنّه رغب عنها ، بل كأنّ الشّـمس لم تغـبْ ، بـل لقـد غربـتْ ولم تلبـثْ أنْ أشرقتْ في ربوع عموّرية وإنّ نَشوةَ الظفر ليجري رحيقها في نفسـه ، فـإذا هـو يحسُّ إزاءَها بمثل أحاسيس ذي الرمّة إزاء ميّة التي شغفت قلبه حُبّاً .

وقد مضى يصوّر قوّة المعتصم وجنوده ، وكيف فرّ تيوفيل بفلول جيشـه أمامه وقد ضاقتْ عليه الأرضُ بما رحُبتْ ، وما زال يصوّر فتكَ المعتصم بجيوشه وأبطاله ، حتى قال :

---

(١) في البيت مقابلة بين المضادّات : ضوء وظلمة ، والظلماء وضحى .

(٢) واجبة : آفلة أي غائبة .

(٣) غيلانُ بن عقبة : هو الشاعر المشهور بذي الرّمّة ، وهو من شـعراء الغـزل في العصـر الأموي .

خليفةَ اللهِ جـازى الله سَعْيَكَ عن
جُـرثـومةِ الدِّيْنِ والإسلام والحسَبِ (١)

بَصُرْتَ بـالـراحةِ الكبرى فلم تَرها
تُنـال إلاّ علـى جسْـرٍ مـن التَّعَبِ

إنْ كان بَيْنَ صروفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمٍ
مـوصـولـةٍ أو ذِمـامٍ غيرِ مُنْقَضِبِ (٢)

فبيـنَ أيـامِكَ اللاتي نُصِـرْتَ بـها
وبيـنَ أيَّامِ بـدرٍ أقربُ النَّـسَـبِ

أبقتْ بني الأصفرِ الممراضِ كاسْمِهِمُ
صُفْرَ الوجوهِ وجلَّتْ أوجهُ العَرَبِ (٣)

ذكاء أبي تمام وتصنيعه

كان أبو تمام حادّ الذكاء ، نادر الفِكْر ، سريع البديهية قويّ الحَدْسِ ومعروفٌ كيف امتدح في بعض المجالس الثقافية أحمدَ بن المعتصم ، بقصيدة سينية ، فلما انتهى منها إلى قوله :

إقدامُ عمرٍو في سماحةِ حاتمٍ   في حِلْمِ أحْنَفَ في ذكاء إياس (٤)

---

(١) جُرْثومة : أصل .

(٢) صروف الدهر : أحداثه . ذمام : ذمّة . منقضب : منقطع .(٣) بنو الأصفر: الروم .

(٤) عمرو بن معد يكرب الزبيدي فارس مشهور ، من أبطال الفتوحات الإسلاميّة والأحنف بن قيس زعيم تميم في البصرة في العصر الأموي ، وكان مشهوراً بحلْمِه . وإياس ابن معاوية قاضٍ من قضاة البصرة فذّ الذكاء .

فقال له الفيلسوف الكندي (يوسف بن اسحاق) ، وكان حاضراً الأميرُ فوقَ ما وصفْت . فأطرقَ قليلاً ، ثم رفع رأسه وأنشد :

لا تُنكِرُوا ضَرْبِي له مَنْ دونَهُ مثلاً شَرُوداً في النَّدَى والباسِ (١)

فالله قد ضربَ الأقلَّ لنورهِ مثلاً من المِشْكاةِ والنّبْراسِ

فعجب الحاضرون من سرعة فطنته .

وهذا الذكاء الحاد استخدمه أبو تمام استخداماً واسعاً في تمثُّل الشعر الذي سبقه من قديمٍ وحديث ، وانتحى ناحية مسلم بن الوليد في تصنيعه مكثراً من التصْنيع في ألفاظه ومعانيه .

التصوير

اهتمّ أبو تمام بالتصوير اهتماماً كبيراً ، فإذا بكَ تجدُ بعضَ لوحاته الفنيّة تضعك أمام مشاهد حيّة لم تبدعْها ريشة ولا ألوان ، إنما قلمٌ وكلمات . يقول في وصف قمريّ وأنثاه على فَنَنِ شجرة :

غنىَ فشاقَكَ طائرٌ غِرّيدُ لمّا ترنَّم والغصونُ تميدُ (٢)

ساقٌ على ساقٍ دعا قمريّةٍ فدعتْ تقاسمُه الهوى وتصيدُ (٣)

إلفان في ظلّ الغصونِ تألّفا والتَفّ بينهما هوًى معقودُ

يا طائرانِ تمتّعا هُنّيتُما وعِمِا الصَّباح فإنني مَجْهودُ (٤)

---

(١) شرود : طريف . الندى : الكرم . الباس : الشجاعة .

(٢) شاقك : هاجك وأطربك . غريد : كثير التغريد . تميد : تتحرك .

(٣) الساق الأولى : القُمْريّ أو ذكر الحمام . والساق الثانية : ساق الشجرة . تصيد : تصيده وتوقعه في شباكها .

(٤) عما الصباح : تحيّة قديمة ، وعما مختصرة من أنعما أي حظيا بالنعمة .

ومن أجمل أشعاره رائيّته في وصف الربيع :

رقّتْ حواشي الدهرِ فَهْي تَمَرْمَرُ   وغدا الثَّرى في حَلْيه يتكسَّرُ (١)

وهو يمثّل في هذا المطلع الدهر مكسوّاً بتلك الحواشي الزاهية المشرقة التي يتمايل فيها الثرى وكأنه عروس تتثنى في حليها وتتكسّر في زينتها . ويقول :

من كلّ زاهرةٍ ترقرقُ بالنَّدَى   فكأنَّها عينٌ إليك تُحَدَّرُ (٢)

تبدو ويحجُبها الجَميمُ كأنّها   عذراءُ تبدو تارةً وتَخَفَّرُ (٣)

حتى غدَتْ وهَداتُها ونجادُها   فِئتَيْنِ في حُلَلِ الربيعِ تَبَخْتَرُ (٤)

خصائص فنية أخرى

كان أبو تمام يعتمد في شعره على الغموض ، وأنْ تغشاه سُحُبٌ زاهية من الفلسفة والثقافة ، فكثر في شعره الرمز ، فهو يعبر عن قتل محمد بن حُمَيْد الطوسي ، بتلك الثياب الحمراء التي غرقت في أصباغ الدم ، حتى إذا دجى الليل وأظلم القبر أبدله منها ثياباً سندسية خضراء ليعبر عن رضوان ربّه :

تردَّى ثيابَ الموتِ حُمْراً فما دجَى   لها الليلُ إلّا وهْي من سندسٍ خُضْرُ

ويكثر أبو تمام أيضاً من نوافر الأضداد ، فهو يصف الربيع فإذا بأنوار الشمس تختلط بأزهار الرُّبا كأنّها أضواء القمر :

---

(١) تمرمر : تتمايل ليناً ونعمة . يتكسّر : يتثنّى .

(٢) زاهرة : زهرة . ترقرق بالندى : يضطرب النّدى ، وهو حبيبات الماء التي تتشكلّ على سطوح النباتات صباحاً . تحدَّر : ينحدر منها الدمع وهي تنظر إليك .

(٣) الجميم : نبات كثيف . تخفَّرُ : أصلها تتخَفّرُ : أي تستحي فتختفي .

(٤) الواهدات : السهول المنبطحة . النجاد : التلال . تبخترُ : تتبختر .

يا صاحبيَّ تقصَّيا نظريكما **تريا وجوه الأرض كيف تَصَوَّرُ**
ترياً نهاراً مشمساً قد شابَهُ **زهْـرُ الـرُّبا ، فكأنَّما هو مُقْمِرُ**

فقد امتزجتْ أصباغ الطباق عند أبي تمام بهذه الأصباغ الفلسفية الغربية من نوافر الأضداد ، فإذا بها تُخْرِجُنا من أوقاتنا التي تقيِّدنا ، ومن أمكنتنا أيضاً.

وعند أبي تمام ظاهرة أخرى هي القياس الفني ، يقـول في تحبيـب الرحلـة ومفارقة الأوطان :

وطولُ مُقام المرء في الحيِّ مُخْلِقٌ **لـديباجـه فـاغتـربْ تـتـجـدَّدِ**
فـإنـي رأيتُ الشمسَ زيدتْ محبَّةً **إلى الناس أنْ ليستْ عليهم بِسَرْمَدِ**

وتنبث خلال أشعار أبي تمام حكم كثيرة تدلّ علـى عقـل نـافذ وبصـيرة خبيرة ، يقول :

بصرتَ بالراحة الكبرى فلمْ ترَها **تُنالُ إلاَّ على جسرٍ من التَّعَبِ**

ويقول أيضاً :

كم منزلٍ في الأرضِ يألفُه الفتى **وحنينُه أبداً لأول مَنْزِلِ**

ولم يُعَمَّرْ أبو تمام كثيراً ، إذ مات في سنة /٢٣٠/ أو /٢٣١/ هـ ، ودفن في الموصل ، لأنّه كان يشتغل في سنواته الأخيرة مديراً لسِلْك البريد فيهـا . وقـد حجَّ أبـو تمـام ، وشـارك في شعره بذكـر أهـم الأحـداثِ الجِسـام الـتي جـرتْ للمسلمين في عصره .

تاريخ شعراء العربية

شعراء العصر العباسي الأول

مسلم بن الوليد



إعداد وشرح

لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُورِيَة - حَلَبْ - خَلفَ الفنْدُقِ السِّياحِي

شارع هدى الشِعْرَاوِيْ

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٢١٢٣٦١، ٠٢١

اسمه وأسرته

هو مُسْلِمُ بن الوَليـد ، وُلِـدَ في الكوفـةِ حوالَـيْ سـنةِ /١٤٠/ هـ ، لأبٍ كان يشتغلُ بالحِياكة ، واختلفت المصادر القديمة في تصحيح نسـبته ، فقيـلَ إنّـه خزرجي من الأنصار وقيل بل هو من مواليهم ، وهو القولُ الصَّحيـح ، ويشـهد له أنّه كان من الصّناع ، ولم يكـن العرب يُقْبلون على الصناعـات حتّى هـذا التاريخ .

وفي أخبـارِ مُسْـلمٍ وأشـعاره مـايدلّ علـى أنّ أبـاه كـان شـيخاً صالحـاً ، وأغلبُ الظّنّ أنّه كان من موالي الفرس ، ووُلد لـه قبـلَ مسـلم أخـوه سـليمان ، وكان كفيفاً ، كما كان شاعراً مجيداً ، ويُجْمع الرواة علـى أنـه كـان زنديقـاً ، وأنّ الذي لقّنه زندقته هـو بشّـار ، قـال الجـاحظ : ((كـان (أي سـليمان بـن الوليد) من مستجيبي بشار الأعمى ، وكان يختلف إليه وهو غـلام ، فقبـل عنـه ذلك الدِّين (١))) .

نشأته وثقافته

نشأ مسلم بن الوليد في الكوفة ، ثم انتقل مع أبيهِ وأسـرته إلى البَصْـرة ، وكان يختلفُ مع أخيه سليمان في البصرة إلى بشّار بن برد ، فأتـاح لـه ذلـك أن يحمل عنه شعره ، ولكنّه لم يحملْ عنه زندقته ، كما حملها أخـوه ، إذ لم يُعْـرَفْ عنه شيء من الزندقة .

---

(١) أي دين المجوسية .

ويظهرُ أنّ مسلم بن الوليد مضى يثقّفُ نفسَه بكلّ معارف عصره ، وأنّه قرأ كثيراً من الكتب المترجمة ، ونراه يصرّح بأنّ قوله :

دلّتْ على عيبِها الدنيا فصدَّقها　　　ما استرجعَ الدّهرُ ممّا كان أعطاني

قد أخذ معناه من التوراة .

وفي أشعاره من التعمّق ما يدلّ دلالةً قاطعةً على أنّه اختلف إلى متكلّمي البصرة ، وحذَق على أيديهم النَّظرَ والتفكير وتصحيحَ المعاني والخلوص إلى دقائقها وطرائفها وحدودها الخفيّة . وأيضاً في أشعاره مايدلّ دلالةً بيّنةً على ثقافة واسعة بالشعر القديم : الجاهليّ ، والإسلاميّ ، سواء في صياغاته وفي معانيه وصوره وخصائصه الموسيقية .

بدايات شعره

يبدو أنّ مواهبه الشعرية استيقظتْ في نفسِه مبكّرة ، وليس في أيدينا أخبارٌ واضحةٌ عن حياته في موطنه الأوَّل الكوفةِ ، ولا في البصرة ، غير أننا نراه يصطدم بشاعر بصري يسمّى ابن قُنْبُر ، وكان قد هجا الطّرمّاح ، وهجا بعضَ قبائل اليَمن ، فامتعضَ مسلمُ بن الوليد لمواليه من الأنصار ، وهم ينحدرون من أزد اليمن ، وزجّ بنفسه معه في معركة هجاء عنيفة .

وجذبت بغدادُ مسلماً فهاجرَ إليها ، لعلّ بضاعته تروج فيها ويحظَى بما حَظِيَ به أعلام الشعراء في عصره من جوائز الخلفاء والأمراء والوزراء ، فمدح

يزيد بن مزيد ، أحد مشاهير القادة ، ومحمد بن منصور كاتب البرامكة ، ومنصور بن يزيد الحميري خال الرشيد ، ومدح هارون الرشيد بعد ذلك ، وأيضاً مدح البرامكة ووزراء الرّشيد .

وفي ديوانه أربع قصائد في مديح الرشيد ، ويقال إنّه لمّا أنشده لاميتّه فيه ، وأورد على سمعه قوله في مقدّمتها :

هل العيشُ إلا أنْ أروح مع الصبَا وأغدو صريعَ الراحِ والأَعْينِ النُّجْلِ(١)

قال له : أنت صريع الغواني (٢) ، فلصقت به الكلمة وأصبحتْ لقباً لايُعْرفُ إلاّ به .

ونراه دائماً ينوّه بانتصاراته على أعدائه ، من مثل قوله :

لقد بعثْتَ إلى خاقانِ جائحةً خَرْقاءَ حصَّاءَ لاتُبقي ولا تَذَرُ (٣)
أظلَّهُم منكَ رُعْبٌ واقفٌ بهِمُ حتّى يوافقَ فيهم رأْيُكَ القَدَر

ومن مديحه للقائد يزيد بن مزيد ، قصيدته :

طيفَ الخيالِ حَمِدْنا منكَ إلمَاما داوَيْتَ سُقْماً وقد هيّجتَ أسقاما

---

(١) نُجْل : جمع نجْلاء ، وهي الواسعة . الراح : الخمر .

(٢) وقال مسلم بن الوليد أيضاً

تركتْني لدى الغواني صريعاً فلهذا أُدْعَى صريعَ الغواني

(٣) خاقان : زعيم الترك . جائحةً : مصيبة . خرقاء : يقال ريح خرقاء إذا كانت شديدة الهبوب : وحصاء : ريح صافية لاغبار فيها .

مديحه للأمين والمأمون

مدح مسلم بن الوليد أمير المؤمنين الأمين بقصيدته :

شُغْلي عن الدار أبكيها وأرثيها   إذ خلتْ من حبيبٍ لي مَغانيها (١)

ونراه يشيد بانتصاراته على أعدائه في الشرق ، وهو بلا ريب يشير إلى انتصار هرثمة بن أَعْيَنَ على رافع بن الليث الذي ثار في سمرقند سنة /١٩٤/ هـ .

ولا يلبث الأمين أن ينقُضَ عَقْدِ ولاية العهد من بعده لأخيه المأمون ، ويأخذ من الناس البيعة لابنه موسى ، مما أدّى إلى تطاحن الأخوين ، وهو تطاحن انتهى بظفر المأمون ، ونرى مسلماً يولّي وجهه شطر مَرْو حيث المأمون ووزيره الفضل بن سهل ، فمدح المأمون بقصيدته :

وردتْ على خاقان خيلُكَ بعدما   كرِهَ الطِّعانَ وقد أطلْنَ عِراكا (٢)

حتى وردْنَ وراءَ شاشَ بمنزلٍ   تركتْ به نفَلاً لـه الأتـراكا (٣)

ومدح الفضل بن سهل أيضاً بقوله :

لـو نطق الناسُ وأَثْنَوْا بعلمهمِ   ونبَّأتْ عن مَعالي دهركَ الكُتبُ

لم يبلغوا منك أدنى ما تَمُتُّ به   إذا تفاخـرتِ الأملاكُ وانتسبوا

---

(١) مغانيها : منازلها .

(٢) الخاقان : ملك الترك   (٣) شاش : مدينة في وسط آسيا .

وقد ولاّه الفضل بن سهل في جرجـــان ، فكـان يربـحُ كـلّ عـام مليـون درهم ، وما زال فيها إلى مات سنة /٢٠٨/ هـ ، بعد أنْ ترك ابنةً وولديـن همـا مخلد وخارجة ، وكانت زوجته قد سبقته إلى دار البقاء .

صناعته الشعريّة

لعلّ القرنَ الثاني للهجرة لم يعرفْ شاعراً أجهد نفسَه في صنـع الشـعر ، كما أجهد مسلم بن الوليد ، فقـد أقبـل يتمثّـل نمـاذج الشـعر القديـم : جاهليّـة وإسلامية ، بكل معانيهِ وصوره وأساليبه، وأضاف إلى هـذا التمثّـل تمثّـلاً لايقـلّ عنه عمقاً ولا دقّة لنماذج الشعر العباسي عند بشـار ومعاصريـه . وبذلـك التـأم القديم والجديد في نفسه ، وعاش يُنْفِقُ حياته الفنية في المزج بينهمـا ، مفكّراً في كل التراث الشعري الذي سبقه وناقداً ومحلّلاً ومستنبطاً . وهداه ذلك منـذ أوّل الأمر إلى أنْ يستكشف في وضوح أدوات البديـع والتّصْنيـع مـن جنـاس وطبـاق ومقابلة ومشاكلة وتصوير ، وأنْ يجعلها أساساً في تصنيـع شـعره ، واعـترف لَـه القدماء بذلك حتى قالوا : إنه أوّل من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو الـذي أعطاه لقبه .

وحقاً نجد المحسّنات البديعية والبلاغية مبثوثه في أشعار بشار وأبي نواس وأضرابهما من سابقيه ومعاصريه ، ولكنّه يأتي عندهم في الحين بعد الحين ، أما عند مسلم فإنّه يتّخذه وُكْده وغايته من عمل الشعر ، ومذهباً له ، معتمداً على حسّ دقيق ، وشعور رقيق ، وعقل مثقّف ثقافة ممتازة .

المديح في شعور مسلم

لعلّ هذا الشاعر لم يمنحْ موضوعاً عنايته كما منح المديح ، وهو فيه يُلائمُ ملاءمةً بين ماضي الشعر وحاضره ، فيستنفدُ ما قاله القدماء في وصف الصحراء والنوق والتشبيب ، ملتفتاً إلى إخراج العباسيين لهذه الموضوعات في أشعارهم ، وما أضافوا إليها من وصف السفن في طريقهم إلى ممدوحيهم ، حتى إذا خلَص إلى المديح أخذ ينفذ من خلال معانيه القديمة والحديثة إلى غرض جديد رائع . واقرأ له هذه القطعة من لاميته الطويلة في يزيد بن مزيد وتصوير فروسيته وكرمه وما ينزل بالأعداء من تقتيل ساحق ماحق ، وما يتّسم به من مروءةً كاملة :

لولا يزيدُ لأضحى الملكُ مطّرحـــــاً أو مائلَ السَّمكِ أو مُسْتَرْخِيَ الطِّوَلِ (١)

يغشَى الوَغَى وشهابُ الموت في يدِهِ يرمي الفوارسَ والأبطال بالشُّعَلِ (٢)

مُوَفٍ على مُهَجٍ في يوم ذي رَهَــجٍ كأنّــه أجــلٌ يسـعَى إلى أمَــلِ (٣)

لايرْحَلُ الناسُ إلاّ نَحوَ حُجْرَتِــــهِ كالبيت يُفضي إليه مُلْتَقى السُّبُلِ (٤)

يكسـو السيوفَ دماءَ الماكثينَ بــه ويجعلُ الهـامَ تيجانَ القَنا الذُّبُلِ (٥)

قَدعوَّد الطَّيرَ عاداتٍ وثقْـنَ بهـا فهنّ يتبعنَهُ في كـلّ مُـرتَـحَـلِ (٦)

تراه في الأمْنِ في درعٍ مضاعـفـةٍ لايأمَنُ الدهرَ أنْ يُدْعَى على عَجَـلِ (٧)

لايَعْبَقُ الطِّيبُ خدَيْـه ومَفْـرِقَــه ولا يمسَـحُ عينيـهْ من الكُحُـلِ (٨)

فإنّك تشعر بضخامة البناء وقوّة الحبك ، وأنّ مسلماً يتسلّط على كلماته ومعانيه وصوره ، فلا نبوٌّ ولا قصور ، وإنّما ضبطٌ وإحكام . وهو يستمدّ صورته في البيت الأوّل من البادية وخيامها وما يُطْوَى فيها من حبال وأعمدة . وطالما شبّه الشعراءُ السيوف بالشهب غير أن مسلماً يضيف إلى ذلك

(١) مطّرحاً : مخذولاً . السَّمْك : السقف : . الطِّوَل : الحبل . ضرَب ذلك مثالاً لاستقامة الخيمة حين يقوم عمودها وتَشَدّ حبالها .

(٢) شهاب الموت : السيف

(٣) مُوْفٍ : مُقْبل ، مُهاجِم . مُهَج : أرواح . رهج : غبار الحرب .

(٤) حجرته : بيته . البيت : المسجد الحرام . الناس يقصدون إليه من كل الطرق ، كأنهم حجّاج يؤمّون المسجد الحرام من كلّ فجّ عميق .

(٥) الهام : الرؤوس . القنا : الرماح . الذُّبل : اللّيّنة .

(٦) مُرْتحل : اسم مكان من ارتحل .

(٧) مضاعَفة : نَسْجها مكثّف ، فهي قويّة .

(٨) يعبق : يفوح . هو رجل حَرْب واخشيشان ، دائم الاستعداد للمقاتلة ، لذلك لايتعطّر ولا يكتحل .

تشبيهاً بشعل النار وهي في يد يزيد يرمي بها يميناً وشمالاً . ومضى في البيت الثالث يضيفُ إلى تصويره السابق جناسين واضحين . والتمس صورةً سبقه إليها زهير في بيته الرابع ، إذ يقولُ في مديح صاحبه هرِم ابن سنان :

قد جَعَلَ المبتغونَ الخيرَ في هَرِمٍ والسائلون إلى أبوابِه طُرُقاً

ومضى يصوّر فَتْكَه بالأبطال تصويراً بديعاً في بيته الخامس ، وكان القدماء يذكرون صحبة الطير للجيوش حين يصفونها كنايَةً عمّا ستجدُ من أشلاءِ القتلى ، فاستغلّ ذلك في بيته السادس وجعلها تتبع يزيد دائماً في رحلاته واثقة بما سيُميرها به ،حتى أصبحَ ذلكَ مِنْ عاداتها ، فهي دائماً مرفرفةً فوقه ، ومثلّه في البيت السابع والثامن شجاعاً تامّ الشجاعة حتى لايفارقه درعه في أوقات أَمْنِه وسِلْمِه ، وحتى لايتعطَّرَ ، شأنَ المترفين واللاهين فَعِطْرُهُ شجاعتُه وما يسيل على سيفه من دماء الأبطال .

مدحُه لداود بن يزيد المهلّبي

موحَّدُ الرأيَ تنشقُّ الظُّنونُ له عن كلّ مُلْتَبِسٍ منها ومَعْقُودِ (١)
كاللَّيْث بل مثلُه الليثُ الهَصورُإذا غنَّى الحديدُ غِناءً غيرَ تغريدِ (٢)

(١) ملتبس : مشتبه . معقود : غامض .

(٢) الهصور : الشديد .

يلقَى المنيّة في أمثـــالِ عُـدتّها   كالسيل يقـــذفُ جلـمـوداً بجلمود
يجودُ بالنّفْسِ إذ ضَنّ الجوادُ بها   والجـودُ بالنفس أقصى غايةِ الجودِ

ويتّضحُ في هذه الآبيات قوّة البناء ودقّة التعبير وروعة التصوير ، فداود مُحْكَمُ الرأي إذا فَكّر في شيء انكشف له غامضُه ومتشابهُه ، وهو كالليث في انقضاضه على فريسته ، بل الليثُ هو الذي يحاكيه ويتخذه قُدْوَته ، وإنّ بسالته لتتحوّلُ إلى مايشبه مَوْجاً لايزال يسقطه على الأبطال موجةً في إثر موجة ، كالسَّيْل يدفعُ جلموداً بجلمود . وإنّ شجاعته لضَرْبٌ (١) رائع من جوده ، وكأنّما الجود شريعته حتى بروحه الزكيّة .

مدح الفضل بن جعفر البرمكي

يَميُن الفَضْل مبسوطةٌ في السَّخاء ، وشمالُه تبتر الأعداء ، ولسانه صائب فصيح ، وهو إنّما ينفق فيما يورثُه الحمد ، ويعدّ البذل اكتساباً ، فمن أراد أن يُصبح ثريّاً فعليه بالفضل ، ومن أراد مَنْ يُنْجدُه فعليه أيضاً به :

تُساقِطُ يُمْناه النّدَى وشِمالُه الردى ـ   وعيونُ القولِ منطقُـه الفَصَــلُ (٢)

---

(١) ضرب : نوع .

(٢) الندى : الكرم . والردى : الموت .

عَجُولٌ إلى ما يودعُ الحمدَ مـالُـه   يَعُدُّ النَّدى غُنْماً إذا اغتُنم البُخْـلُ
بكفَّ أبي العباس يُستَمطَرُ الغِنَى   وتُستَنزَل النُّعمَى ويَستَرْعِف النَّصلُ(١)

والأبياتُ من طراز بنائِهِ الضَّخْم ، وهـي متينـةُ السَّبْك ، قويّـةُ الحَبْـك ، وانظرْ في البيتِ الأوّل كيفَ صوَّر تصويراً بديعاً كرم الفضل وشـجاعته وبلاغـة بيانه ، وقد طابق في البيت الثاني بين الكرم والبخل ، وعاد في البيت الثـالث إلى تركيزه الشَّديد وتجميعه المعاني الكثـيرة في الألفـاظ القليلـة ، مـع قـوّة تجسـيمها وتجسيدها .

مدح إسماعيل البرمكي

وإنّي وإسـماعيـلَ يومَ وداعِهِ   لكالغِمْـدِ يومَ الرَّوْع فارقَه النَّصلُ
فإن أغْشَ قوماً بعدَه أو أزُرْهُمُ   فكالوَحْشِ يُدْنيها من الأنَسِ المَحْلُ

قال ابن المعتزّ : هذا معنى لايتفقّ للشاعر مثلُه في ألف سنة .

رثاء يزيد بن مزيد

نفضَتْ بك الآمالُ أحلاسَ الغنى   واسترجعتْ نزّاعَها الأمصارُ (٢)

---

(١) يسترعف : يقطر دماً . النصل : حدّ السيف .

(٢) أحلاس : جمع حِلْس ، وهو كساء يُوْضع على ظهر البعير تحت الرحل .

أجــلٌ تنافسَه الحِمامُ ، وحفرةٌ   نَفِسَتْ عليها وجْهَكَ الأحْفــارُ (١)
فاذهبْ كما ذهبت غوادي مُزْنَةٍ   أثنى عليها السَّهْلُ والأوْعــارُ (٢)

وصف سفينة

إذا نظرْتَ إليها وهي قادمةٌ رأيتَ منظراً بديعاً رائعاً ، وكأنّ رأسَها أوقل صدرها رأسُ ثور وحشّي ، فإنْ أدبرتْ بـدا مجدافهـا كجنـاحي نَسْـر ، وهـذان المجدافان هما اللذّان يدفعانها ويسيّرانها ، بينما يوجهّهـا سُـكّانها في مؤخّرتهـا ، ويسدّد سيرَها بحسبَ الوجهة المطلوبة .

وإذا ما هبّتْ عليها ريح الصَّبـا ساقتْها في مسيرة هادئة مُرْيحة ، سَيْراً سهْلاً رَهْواً ، وكأنّها عروس مزفوفة متّجهةٌ إلى بيتها الجديد ، بيت الزوجيّة :

إذا أقبلـتْ راعتْ بقُنّـةِ قَرْهَـبٍ   وإنْ أدبرتْ راقـتْ بقـادمتَيْ نَسْـــرِ (٣)
أُقِلّـتْ بمـجدافَيْنِ يعتورانِـــها   وقوّمَها كَبْـحُ اللّـجامِ مـن الـدُّبْــــرِ (٤)
كأنَّ الصَّبا تحكي بها حين واجهتْ   نسيمَ الصَّبا مَشْيَ العروسِ إلى الخِدْرِ (٥)

---

(١) الحمام : الموت .   (٢) مُزْنة : سحابة .
(٣) راعتْ : من الرَّوْع ، وهو الجمال الذي له سَطْوة على النفوس ، وله فيه هيبة . قُنّة : رأس . قرهب : ثور وحشي . راقت : أَعْجَبَتْ : قادمتا النَّسْر : جناحاه ، أراد المجدافين
(٤) أُقلّت : حُمِلَتْ ، وَسُيِّرتّ . الكبح : المَنـعْ . وأراد بكبـح اللّجـام : سُكّانها الـذي يقوم بتوجيهها .
(٥) الصَّبا : ريح لطيفة معتدلة . الخِدرْ : البيت الذي تستتر فيه المرأة .

غـــزلـــه

قسمٌ من غزل مسلم بن الوليد تقليـديّ لايخـصُّ امـرأةً بعينِهـا ، يـأتي في مطالع قصائده ليمهّد لها على طريقة الشعراء الأقدمين ، من ذلك مطلع القصيدة الأولى في ديوانه ، وهي في مدح يزيد بن مزيد ، وقد أشـرتُ إلى ذلـك المـدح ، يقول في مطلعها :

أجْـررْتَ حَبْـل خليـعٍ في الصِّبا غَزِلِ   وشمَّرتْ هِمَمُ العُذَّالِ في العذَلِ (١)
هاجَ البكاءَ على العينِ الطَّموح هـوىً   مـفـرَّقٌ بـين توديع ومُحتَمل (٢)
كـيفَ السُّـلوُّ لـقلبٍ راحَ مُـخْـتَـبـلاً   يَهْذي بصاحبِ قلبٍ غير مُخْتَبَلِ (٣)

فقد اكتسـى ثيـابَ الغـزلِ ، وذلـك مـا جعلـه غرَضـاً لانتقـاد العُـذَّال ، وانتقاص اللائمين ، وبيّن لنا أن غزله عفيف لا ماديّ ، فعينُـه تهـوَى ، فتـذرفُ الدَّمْعَ كلّما ودَّعَ مَنْ يهوَى ، أو ارتحل قومُ حبيبته ، وقد اشترك قلبُـه مـع طَرْفِـه في الحُبِّ ، فهامَ حتى اختبلَ وزاغَ وجعل يَهْذي ويرسلُ العبارات الشـاردة الـتي لا معنى لها ، ويردّد اسم محبوبته التي لم تهْتمّ به ، ولم تنشغل بأمره .

---

(١) أجررت حبل خليع : من قولهم : أجرَرْتُ البعيرَ حبلَه ، إذا تركته يصنـعُ مـا يشـاء . العذَل : اللوم .

(٢) الطَّموح : التي تحبّ الجمال ، وترغب فيه . محتمل : ارتحـال ، مـن قولهـم : احتمـل القوم إذا ارتحلوا .

(٣) السلوّ : نسيان الحـبّ وانطفـاء جذوتـه . مُخْتَبـل : مريـض فاسـد . يَهْـذي : يهيـم ويقول عبارات لامعنى لها .

صَدٌّ وتمنُّعٌ

في غزل مسلم بن الوليد رقّة الحضارة ، وذوق أصحاب الفنّ ، وبراعةٌ في فَهْم نفسيّة المحبوب . ومسلم في غزله أقرب إلى أصحاب الغزل العفيف منه إلى أهل الغزل الحسّيّ ، فهو يتألّم لبعد محبوبته ، وعدم رضاها ، وتهجرُه فتضيق عليه الأرضُ بما رحُبتْ ، وتجفو عنه من بعدما أذاقته طعم الحبّ ، وهو يهيم بها ، وينشغل بها عمَّنْ سواها ، ويصبر على التوائها ، وتغضُّبها ، ويستمرّ على مودّتها ، ويذكر أنّه خبير بشؤون الهوى :

عجباً لطيفِ خيالِكِ المُتَجانِبِ	ولقلبِكِ المُسْتَعتِبِ المتغاضِبِ
مالي بهجرِك والبلادُ عريضةٌ	أصبحتْ قد ضاقت عليَّ مذاهبي (١)
أبكي وقد ذهَب الفؤادُ وإنَّما	أبكي لفقدكِ لا لفقدِ الذَّاهبِ
أقْصيتِني من بعدِ ما جرَّعْتِني	كأساً لحبِّكِ ما تسوغُ لشاربِ (٢)
إنْ كان ذنبي أنّ حبكِ شاغلي	عمَّنْ سواكِ فلستُ عنه بتائِبِ
صَبْراً عليكِ ، فما أرى لي حيلةً	إلا التمسُّكَ بالرَّجاءِ الخائبِ
طيفٌ يعاتِبني وقلبٌ مغضَبٌ	نفسي فداءُ مُغاضبي ومُعاتبي
سأجيبُ داعي الحُبّ مُنقاداً له	إنْ كان مَنْ أحببْتُ غيرَ مجاوبي
لا تسألنّ عن الهوى إلاّ امرَأً	خبِراً بطِعْمَتِه ، طويلَ تَجاربِ

---

(١) المذهب : الطريق .

(٢) تسوغ : تَسْهُل وتَهْنُو .

خاتمة

من خلال ما تقدّم يتّضح لنا كيف كان مسلم بن الوليد يلتقطُ لأبياته وأشعاره درر المعاني والصور ، مضيفاً إلى ذلك حُلىً كثيرة مِنْ وَشْي الطباق والمقابلة والجناس والمشاكلة ، وهو في ذلك لا ينسى العناية بموسيقاه الضخمة وما ترسل من رنين قوي مُحْكم ، مزاوجاً بكلّ ما استطاع بين عناصر الشعر القديمة والجديدة ، فإذا أشعاره تحتفظ بالصياغة الجزلة الرصينة التي تلذّ الأسماع العربية ، وإذا هي تفسح لمذهب البديع الجديد بكلّ طرائفه العقلية والخياليّة ، بحيث يمتّع القلوب والأفئدة .

لم يكن يغيب عن مسلم نفسه ، ولا عن غيره ، مقدارُ الجهد الذي كان يبذله في عمل صناعته الشعريّة ، ويروي أن مسلماً اجتمع بأبي العتاهية ، فقال له : ((والله لو كنتُ أرضَى أن أقول مثل قولك :

الحمدُ والنّعْمةُ لكْ   والملكُ لا شريكَ لكْ

لبَّيْكَ إنّ الملكَ لكْ

لقلتُ في اليوم عشرة آلاف بيت . ولكني أقول :

مُوفٍ على مُهَجٍ في يومِ ذي رَهَجٍ   كأنّه أجلٌ يَسْعَى إلى أمَلِ

وهو يشير بذلك إلى طريقة أبي العتاهية الشعبية في قول الشعر ، وطريقته هو في التّصنيع والزُّخْرُفِ .

تاريخ شعراء العربية

شعراء العصر العباسي الأول

أشجع بن عمرو السلمي



إعداد وشرح

لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُورِيَة - حَلَبْ - خلفَ الفُنْدُقِ السِّياحي

شارع هدى الشِعْرَاويْ

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٢١٢٣٦١، ٠٢١

مولده ونشأته

ينحدر أشجعُ بن عمرو من بني الشريد السُّلَمِيِّين ، من مصر وكان أبـوه عمرو ينزلُ بالبصرة ، ولكنّه انتقلَ إلى اليمامة وتزوّج امرأةً من أهلها ، ووَلَـدَتْ له في موطنها أشجع ، وأمضى أشجعُ سنواتِه الأولى من حياته في اليمامـة . ولمـاّ مات أبوه قدمتْ به أمّه إلى البصرة تطلُبُ ميراثَ أبيه ، وكانت قـد رُزقـتْ منـه أيضاً ولديها أحمد وحُرَيْثاً . وأكمل أشجع نشـأته ومَرْبـاه بـالبَصْرة ، وتفتحّـت مواهبه الشعريّة ، فابتهجتْ به قبيلته وأخواتها من القبائل القيسية ، وكان الشعر يومئذ في ربيعةَ واليمن ، ولم يكنْ لقيس شاعر معدود ، فلمـا نجـم أشـجع ولمـع اسمه افتخرتْ به قيس ، وبادَلها فخراً بفخر من مثل قوله :

إذا افتخرت قيسٌ بطيبِ العناصرِ ... على الناس طاطا رأسَه كلُّ فاخِرِ

في بغداد

لم يلبث أشجع أن شدَّ رحالَه إلى بغداد لأواخر عهد المنصور / ١٣٦ - ١٥٨ هـ / ، فمدحَ ابنه جعفراً ، ولم يكد يبزغُ عصر الرشـيد حتـى وصلتْـه بـه زوجه زُبَيْدةُ بنت جعفر بعد وفاة أبيها ممدوحه ، فأجزل جوائزه .

ويبـدو أنّ اتّصالـه بالرشيد كـان بحـدود سـنة /١٧٤/ هـ ، إذْ يـروي صاحبُ الأغاني عن أشجع قوله : ((دخلـتُ علـى محمـد الأمـين حـين أُجلس مجلس الأدب للتعليم وهو ابن أربع سنين ، وكان يجلـس فيـه سـاعة ثـم يقـوم . فأنشدْتُ :

مَلِـكٌ أبـوه وأمُّــه مـن نَـبْعةٍ ... منها سـراجُ الأمّةِ الوَهّاجُ (١)

---

(١) النبعة : شجرة ضخمة تتخّذ منها القسيّ والسهام .

شَرِبَتْ بمكَّةَ في رُبَى بَطْحائها ماءَ النبوّة ليس فيه مِزاجُ (١)

فأمرتْ له أمُّه زُبَيدة بمائة ألف درهم ، ويقال إنه لم يتولّ الخلافة أحد أبوه وأمه من بني هاشم إلا علي بن أبي طالب ومحمد الأمين)) . ومعروف أن الأمين ولد سنة /١٧٠/ . ومعنى ذلك أنّ دخول أشجع عليه ومدحه كانا في سنة /١٧٤/ هـ .

مدح الرشيد

أكثر أشجعُ من مدح الرشيد في حَرْبه لنقفور ، وكان يحرص على توثيق ولاية العهد للمأمون بعد أخيه الأمين ، ويقول :

بَيْعةُ المأمونِ آخذةٌ بعِنانِ الحقّ في أُفُقِهْ
لن يَفُكَّ المرءُ رِبْقَتَها أو يفكَّ التّينَ مِنْ عُنُقِهْ
وله مِنْ وَجْهِ والدِهِ صورةٌ تمّتْ ومِنْ خُلُقِهْ

وكتب الرشيد لولديه كتاباً بهذا العهد ، وعلّقه في سقف الكعبة سنة /١٨٢/ ، فانبرى أشجع يصوّب رأيه ويؤكّده في قصيدةٍ طرِبَ لها الرشيد .

شاعر البرامكة

يُقال إنّ أنسَ بن أبي شيخ كاتب جعفر هو الذي وصله به ، ثم انعقدت صلته بأخيه الفضل وأبيه يحيى ، وكان أوّل ما أنشده :

ذهبتْ مكارمُ جعفرٍ وفَعالُه في الناس مثلَ مذاهب الشَّمْسِ
مَلِكٌ تسوسُ له المعالي نفسه والعقلُ خيرُ سياسةِ النَّفْسِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم . وكان جعفرُ حينئذ بمجلس في أحد

---

(١) بطحاء مكة : واديها . وكانت تنزل فيه عشائر مكّة الشريفة .

قصورهم بحيّ الصالحيّة ، فقال له : صف موضعنا ، فأنشد على البديهة :

قصور الصَّالحيّةِ كالعَـذارى لَبِسنَ ثيابهنّ ليوم عُـــــرْسِ

مُطِلاّتٌ على روضٍ كسَــتْه أيادي الماء وَشْياً نَسْجَ غَرْس

إذا ما الطَّلُّ أثَّـرَ في ثَـــراهُ تنفّس نَـوْرُه مِنْ غيرِ نَـفْس (١)

فتَغْبِقهُ السَّماءُ بصِبغ وَرْسٍ وتَصْبَحُهُ بأكؤسِ عَيْنِ شَمْسِ (٢)

وأُعجب جعفر بحسن بداهته ، وأصبح شـاعرَه وشـاعر أسـرته ، يمدحـه ويمدح أباه وأخاه الفضل ، ويغدقون جميعاً عليه العطايا الجزيلة ، ومـن قولـه في يحيى :

كفاني صروفَ الدَّهرِ يحيى بنُ خالدٍ فأصبحْتُ لا أرتاع للحدثانِ

كفاني - كفـاهُ اللهُ كُـلَّ مُـلمَّـةٍ - طِلابَ فلانٍ مرَّةً وفـــلانِ

فأصبحْتُ في رَغْدٍ من العيشِ واسعٍ أقلّب فيه ناظري ولساني

ونراه يرافق جعفراً حين هاجت العصبية بـين النزاريّـة واليمنيّـة في الشـام لسنة /١٨٠/ ، وقد ظفر بجماعة مِمَّنْ سعوا بالفساد وشرَّد آخريـن وأصلـح ذاتَ البين بين الفئتين المتناحرتين . وأكثر من مديحه حينئذ ، ويقال إنـه كـان يُجـري عليه في كل جمعة مائة دينار ، وأشجع يجري عليه أشعاره مثل قوله :

أصلحْتَ أمــرَ الشَّامِ محتسباً ورتقْت ما فيها من الفتْقِ

مــا كـــان يُدْرَكُ بالقتالِ ولا بالمالِ ما أدركْتَ بالرِّفْـقِ

وعزمَ الرشيدُ في تلك السَنَةَ على توليـة جـعـفـر خراسـان وسـجـستان ،

---

(١) الطّلَ : الندى والمطر الخفيف .

(٢) الغبوق شرب المساء . والصبوح : شرب الصباح .

وأخرج له الأمرَ بذلك ، فابتهج وابتهجَ معه شاعره ، ولم يلبث ، أن دبَّج فيه إحدى روائعه ، وفيها يقول :

يريدُ الملــوكُ مدى جعفرٍ ولا يصنعون كما يصنعُ

وليس بأوسعهم في الغنى ولكــنّ معــروفَه أوسعُ

وكيفَ ينــالونَ غاياتِــه وهم يَجْمعونَ ولا يَجْمَعُ

بديهــتُه مثلُ تدبيـرِهِ متى رُمْتَهُ فهو مستجمع

وبدا للرشيد فرجع في أمره وعزيمته ، فأنشده شعراً طريفاً يسلّيه به ، زاعماً أنّ الرشيد رأى حاجته إليه أمسّ من حاجةِ أهل خراسان . ويُكثر من مديح جعفر ولا يلمّ به مرض هو أو أبوه إلاّ ويكثر من دعائه لهما بالشفاء ، يقول في يحيى وقد أخذتْه عِلَّةٌ :

إذا ما الموتُ أخطأه فلسنا نُبالي الموتَ حيثُ غدا وراحا

ولّما استأذنَ من الرشيد أن يجاور بمكّة لسنة /١٨١/ ظلّ يردّد افتقادَ بغاةِ الخير له ، ، وحزنهم لطولِ غيبته ، من مثل قوله :

قد غابَ يحيى فما أرى أحداً يأنَسُ إلاّ بِذِكْرِه الحَسَــنِ

أوْحَشَتِ الأرضُ حين فارقَها من الأيادي العِظامِ والمِنَنِ

لولا رجاءُ الإيابِ لانصدعت قلوبنا بعدَه من الحــزَنِ

ويظلّ يتغنى بجعفر وبأبيه وأسرته حتى نكبهم الرشيد ، فتحسّر عليهم طويلاً ، ومن قوله فيهم :

كأنّما أيامُهمْ كلُّها كانتْ لأهل الأرضِ أ؛ بادا

جعفر يولّيه عملاً

ولّى جعفر بن يحيى البرمكيُّ أشجع السلميَّ عملاً ، فرفعَ إليه أهلُه شكايات كثيرة متظلّمين منه ، فصرفه جعفر عنهم ، فلما رجع إليه من عمله مَثَلَ بين يديه وأنشدَه قصيدةً طويلة يقول فيها (١) :

لقد هزت سنانَ القولِ منّي رجالُ وقيعةٍ لم يَعْرفوني
أطافوا بي لديك وغبْتُ عنهم ولو أدنيتني لتجنّبوني

فوصله جعفر وخلع عليه .

يمدح رجال البرامكة

كما مدح أشجعُ البرامكةَ مدح كتّابهم من مثل إسماعيل بن صَبيح ، ومن جيّد قوله فيه :

له نظرٌ لايغمض الأمرُ دونه تكادُ ستورُ الغيب عنه تمزّقُ

ولعلّه لم يكثرْ من مديح صاحب لهم كما أكْثرَ من مديح محمد بن منصور بن زياد .

انصرافه بعد البرامكة إلى الرشيد

بعد نكبة البرامكة على يد الرشيد قال الفضل بن الربيع وزير الرشيد له : ((هو أشعر شعراء أهل الزّمان ، وقد اقتطعتْهُ عنكَ البرامكة)) فأمر بإيصاله مع الشعراء . وقد تغنّى أشجع بانتصارات الرشيد على نقفور وجنوده ،

---

(١) مطلع القصيدة :

أمفسدةٌ سعادُ عليّ ديني ولائمتي على طول الحنِينِ ؟

وفتحه لهرقلة غناءً حارّاً ، من مثل قوله :

برقتْ سماؤك في العدوّ وأمطرتْ هاماً لها ظِلُّ السـيـوفِ غَمــامُ (١)

وعـلا عـدوّكَ يـا بـن عـمّ محمّد رصدانِ : ضَوْءُ الصُّبْح والإظلامُ (٢)

فـإذا تـنـبّـه رُعْـتَه وإذا غـفـا سَـلّـتْ عـلـيـــه سيوفَكَ الأحلامُ

ولّما بلغ هذا البيت في القصيدة اهتزّ الرشيد ، وأمرَ بـأنْ يُنثر عليه الـدّرّ إعجاباً واستحساناً ، وله يقول من قصيدة أخرى عَقِبَ هذا الفتـح في يـوم عيـد جلس فيه الرشيد للشعراء :

لازلْتَ تنشـرُ أعيــاداً وتَطْويهـا تَمْضِي بها لــكَ أيّامٌ وتُمْضِيها

ولْيَهْنِكَ الفتْـحُ والأيّـــامُ مقبلـةٌ بالنَّصْر والعزّ معقوداً نواصيها

أمسَتْ هرقلةُ تهوي من جوانبها وناصرُ الله والإســـلام يَرْميها

وكان الرشيدُ يكثرُ مِنْ حجّه لى البيت الحرام ومن جهاده العنيف لـلروم ، قاسماً سنيه بين حجٍّ وغَزْو ، فصوّر ذلك أشجع تصويراً بديعاً في قصيـدة استقبله بهـا في يوم قدوم له من حجّ بإحدى السنوات ، وفيها قول :

أَلِفَ الحَجَّ والجهادَ فما ينفكُّ من سَفْرَتَيْنِ في كل عـامِ

سَـفرٌ للـجهادِ نحْـو عــدوٍّ والمطــايا لِسَفْرَةِ الإحـرامْ

طَلَبَ اللهَ فهو يسعى إليـــه بـــالمطايا وبالجيادِ السَّوَامِ (٣)

فـيداهُ يَـدٌ بـمـكّةَ تدعـــو هُ وأخرى في دعوةِ الإسلام

---

(١) الهام : الرؤوس .

(٢) ويروى البيت رواية أخرى وهي ((وعلى عدوّك)) وهي أصحّ ، وسوف تأتي .

( ) بالمطايا : أي بالإبلِ يحجّ عليها ، والجياد المسوّمة : الخيل المُعْلمـة ، وسـامت الريـح : مرّت .

مراثيه

كما أجاد أشجعُ المديح أجاد الرثاء ، وكان يعرفُ كيف يمسُّ القلوبَ ويستثيرُ الحزن في الصدور ، على نحو ما يلقانا في رثائهِ لمحمد بن منصور ، وفيه يقول :

أنعَى فتى الجود إلى الجـود ... ما مثلُ مَنْ أنعَى بموجودِ
أنعَى فتىً مصّ الثَّرَى بعدَهُ ... بقيَّـة الماءِ من العُـودِ (١)

فالأرض ييستْ أشجارها بموته .

ومن مراثيه الرائعة التي رواها أبو تمام في حماسته مرثيته فيمن يسمّى ابن سعيد ، وفيها يقول :

مضى ابنُ سعيدٍ حين لم يَبْقَ مَشْرِقٌ ... ولا مغربٌ إلاّ له فيه مادحُ
وما كنتُ أدري ما فواضِلُ كفِّه ... على النَّاس حتى غيَّبَتْهُ الصَّفائحُ (٢)
فأصبح في لَحْدٍ من الأرضِ ميّتاً ... وكانتْ به حَيًّا تَضِيقُ الصَّحاصِحُ (٣)
سأَبْكيك ما فاضتْ دموعي فإنْ تَغِضْ ... فحسْبُكَ منّي ما تُجِنُّ الجوانحُ (٤)
وما أنا مِنْ رُزْءٍ وإنْ جَلَّ جازعٌ ... ولا بسرورٍ بعد موتِكَ فارح (٥)
كأنْ لم يَمُتْ حيٌ سواك ولم تَقُمْ ... على أحدٍ إلا عليكَ النوائحُ
لئنْ حَسُنَتْ فيك المراثي وذكرُها ... لقد حسنتْ من قبلُ فيكَ المدائحُ

---

(١) البيت : كناية عن قلّة المعروف ، وغلبة الشُّحّ بعد رحيل محمد بن منصور الذي يرثيه الشاعر .

(٢) الصفائحُ : حجارة القبر . كان يُعْطي الناس ويكتُم أعطياته في حياته ، فلّما مات تحدّثوا بذلك ، ونشروه .

( ) الصحاصح : جمع صَحْصَح ، وهي الأرض المستوية الواسعة .

(٤) تغض : يجفّ ماؤها . تجنّ : تخفي . الجوانح : الضلوع والأعضاء .

(٥) رزء : مصيبة . جلّ : عظم . جزع : ضجر .

أخبار وطرائف متفرّقة عن أشجع

من بواكير شعره في الرشيد

(وهو نموذج من الترجمة الذاتية) . قال أشجع السلمي :

شخصْتُ من البصرة إلى الرقّة،فوجدتُ الرشيد غازيًا ، ونالَتْني خَلّةَ (١) فخرجْتُ حتى لقيتُه منصرِفاً من الغزو ، وكنتُ قد اتصلْتُ ببعض أهل داره ، فصاح صائح ببابه : مَنْ كان ها هنا من الشعراء فليحضر يوم الخميس ، فحضرْنا سبعة وأنا ثامنهم ، وأُمرْنا بالبُكور في يوم الجمعة ، فبكّرنا وأُدخِلْنا ، وقُدِّم واحدٌ واحدٌ منّا يُنْشِدُ على الأسنان (٢) ، وكنت أحدثَ القوم سِنّاً ، وأَرَثَّهم (٣) حالاً ، فما بُلِغَ إليّ حتى كادت الصلاةُ أن تَجِبَ ، فقُدّمْتُ والرشيدُ على كرْسيّ ، وأصحاب الأعمدة بين يديهِ سماطان (٤) فقال لي : أنشدْني فخفت أنْ أبتدئ من أوّل قصيدتي بالتشبيب فتجب الصلاة ويفوتُني ما أرَدْتُ ، فتركتُ التشبيب ، وأنشدته من موضع المديح في قصيدتي التّي أوّلها :

تذكّرْتُ عهدَ البيضِ وهْوَ لها تِرْبُ وأيّامَ يُصبي الغانياتِ ولا يصبو (٥)

---

(١) نالتني : نزلتْ بي . خلّة : حاجة .

(٢) ينشد على الأسنان : أي مراعياً أعمارهم ، فينشد الأكبر فالأصغر منه .

(٣) أرثّهم : أشدهم اهتراءً في ثيابه .

(٤) سماطان : صفّان .

(٥) البيض : النساء الجميلات . يُصبي : يثير فيهن لواعج الحبّ . الغانيات المستغنيات عن الحلى .

فابتدأت قولي في المديح :

إلى مَلِكٍ يَستَغرقُ المالَ جُـــودُهُ مكـارِمُـــــه نَـثْـــرٌ ومعروفُه سَكْبُ
وما زالَ هارونُ الرِّضا بنُ محمَّدٍ لـــه مِنْ مياهِ النَّصرِ مَشْرَبُها العَذْبُ
متى تبلُغِ العيشُ المراسيلُ بابَــه بنا فهنـاكَ الرُّحْبَ والمنـزَلُ الرَّحْــبُ(١)
لقد جُمِعتَ فيكَ الظنونُ ولم يكـنْ بغـيــركَ ظَــنٌّ يـسـتريـحُ له القَلْبُ
جمعْتَ ذوي الأهواء حتى كأنَّهم على منهـــجٍ بعدَ افتراقِهِمُ ركْـــبُ
بَثَثْتَ على الأعداءِ أبنــاءَ دُرْبـةٍ فـلـمْ يَـقِهِمْ منْهم حصونٌ ولا دَرْبُ
وما زلْتَ ترميهمْ بهم مـتـفَــرداً أنيساكَ حَزْمُ الرَّأي والصَّارم العَضْبُ(٢)
جهَدْتُ فلمْ أبلغْ عُلاكَ بِمِدْحَـــةٍ ولـيـــس على مَنْ كان مجتهداً عَتْبُ

فضحك الرشيدُ وقال لي : خفْتَ أنْ يفوتَ وقتُ الصلاة فينقطع المديـح عليك ، فبدأتَ به وتـركـتَ التَّشبيب ، وأمرني بأن أنشده التشبيب ، فأنشـدْتُه إياه ، فأمرَ لكلّ واحد من الشعراء بعشرة آلاف درهم ، وأمرَ لي بضِعْفِها .

---

(١) العيس : الإبل البيض . المراسيل : الخفاف السريعة .

(٢) أنيساك : مُؤنسَاك . الصارم العضب : السيف القاطع .

استحسان الرشيد لميميّته

أوقع هارون الرشيد بالرُّوْم وقائدهم نِقْفور ، فتقدَّم ، إليه أشجع السلمي يمدحه بقصيدته :

قصـرٌ عـلـيــه تحيّةٌ وسـلامُ	ألقـتْ عـلـيـه جـمَالَها الأيّامُ
قصُرتْ سقوف المُزْنِ دون سقوفِه	فيـه لأعـلام الهـدى أعـلامُ(١)
تُـثْـني عـلي أيّـامـكَ الأيّـامُ	والشّاهدانِ : الحِـلُّ والإحـرامُ(٢)
أدنـتْـكَ مـن ظِـلّ النبيّ وصيّةٌ	وقرابةٌ وشَـجـتْ بها الأرحـامُ(٣)
بَرِقتْ سماؤكَ في الـعدوّ وأمطرتْ	هاماً لها ظِـلّ السـيـوف غمامُ
وإذا سيوفُكَ صافحتْ هام العِدَى	طارتْ لهنّ عن الرؤوسِ الهامُ(٤)
وعلى عدوك يا بـنَ عـمّ محمّـدٍ	رصَدانِ ضوءُ الصُّبْح والإظلام(٥)
فـإذا تـنـبّـه رُعْـتَهُ وإذا غـفَـا	سـلّـتْ عـليه سيوفَكَ الأحـلام(٦)

فلما سمع الرشيد هذين البيتين الأخيرين طَـرِبَ ، وكـان متكّئـاً فاستوى جالساً ، وقال : أحْسَنَ وا للهِ ، هكذا تُمْدح الملوك .

---

(١) المُزْن : السُّحُب .

(٢) يشير إلى إكثاره من الغزو والحجّ .

( ) وَشَجتْ : اتّصلت .

(٤) الهام : الرؤوس .

(٥) رصدان : مراقبان .

(٦) تنبّه : أفاق . رُعْتَه : أخفتَه .

وقال سعيد بن سالم الباهليّ أيضاً : وا للهِ يا أميرَ المؤمنين ، لو خَرِسَ بعد هذين لكانَ أشعرَ الناس .

معارضته سينيّة للشاعر حُمَيْد بن ثور

كانَ جعفر بن يحيى جالساً في محلّة الصَّالحيّة ببغـداد ، ومعـه أشجع بـن عمرو السلمي ، وأعرابي من بني هـلال ، فاستنشـد جعفـرٌ الأعرابـيّ شيئاً مـن قصائد الشاعر الهذلي حميد بن ثور ، فأنشده قصيدته :

لِمَنِ الدّيارُ بجانبِ الحُبْس　　كمَحطِّ ذي الحاجات بالنَّفْسِ (١)

فلما أتمها اندفع أشجع يُسمعْ جعفراً مديحاً له فيه ارتجله لوقته علـى وزن تلك السينيّة وقافيتها ، فقال :

ذهبتْ مكارمُ جعفرٍ وفعـالُـه　　في النّاس مثلَ مذاهب الشَّمْسِ

مَلِكٌ تسوسُ له المَعـاليَ نفسُـه　　والعقْلُ خيرُ سـياسةِ النَّفْـسِ (٢)

فإذا تراعَتْهُ المـلوك تراجعُـوا　　جَهْـرَ الكلامِ بمنطـقِ هَـمْسِ

سادَ البرامِكَ جعفرٌ وهـم الأُلَـى　　بعد الـخَلائـفِ سـادةُ الإنْسِ (٣)

ما ضَرَّ مَنْ قصَدَ ابنَ يحيى راغباً　　بـالـسَّـعد حـلَّ بـه أم النَّحْسِ (٤)

فقال له جعفر : صفْ موضعَنا هذا . فقال :

---

(١) الحُبْسُ : اسم موضع . وحُمَيْد يقلّد قصيدة الحارث بن حلزة اليشكري

لِمَنِ الدّيارُ عَفونَ بالحُبْـسِ　　آياتُها كمهارِق الفُرْسِ

عفوْنَ : درسْنَ . آياتها : أعلامها . مهارق : صحف .

(٢) تسوس : تقود .　　(٣) الأُلى : الذين . الخلائف . : جمع خليفة .

(٤) لايهمّ الذين يسترفدونه شيء ، فإن كانوا موفّقين ازدادوا خيراً ، وإن كانوا غير ذلك جُبِرُوا .

قصورُ الصَّالحيّةِ كالعَذارى لَبِسْنَ ثيابهُنَ ليَومْ عُرسِ
مُطِلاّتٌ على بَطْنٍ كستَهُ أيادي الماء وشْياً نسْجَ غرسْ (١)
إذا ما الطَّلُّ أثَّر في ثراه تنفّس نَوْرُه من غير نَفْسٍ (٢)

فقال جعفر للأعرابي : كيف ترى صاحبَنا يا هلالي ؟ فقال :

أرى خاطره طوعَ لسانه ، وبيانَ الناس تحت بيانه ، وقد جعلْتُ له ما تصلني به . قال : بل نُقِرُّك يا أعرابي ونُرْضيه وأمر للأعرابي بمئة دينار ، ولأشجع بمئتَيْن .

رثاؤه للعباس بن الفضل بن الربيع

دخل أشجع على الفضل بن الربيع ، وقد توفي ابنه العباس والنّاسُ يعزّونه . فعزّاه فأحسن ، ثم قال يرثيه :

لاتبكينَّ بعَيْنٍ غيرِ جائدةٍ وكلُّ ذي حزَنٍ يبكي كما يَجِدُ (٣)
أيُّ امرئٍ كان عباسٌ لنائبة إذا تقنَّعَ دونَ الوالدِ الولَدُ (٤)
لم يُدْنِه طمَعٌ من دار مُخْزِية ولم يَعزَّ له من نعْمةٍ بَلَدُ (٥)
وحينَ جئتَ أمامَ السابقين ولم يبلُلْ عذارك ميدانٌ ولا أَمَدٌ (٦)
وافاك يومٌ على نكراء مشتملٌ لم يَنْجُ من مثله عادٌ ولا لُبَدُ (٧)
فما تكشَّفَ إلاّ عَنْ مُولْوِلَةٍ حَرّى ومكتئبٍ أحشاؤهُ تَقِدُ (٨)

---

(١) بطن : واد , وشي : حلْية . (٢) الطَّلّ : الندى . نَوْر : زهر أبيض .
(٣) جائدة : حزينة . يجِدُ : يحزَنُ ، من الوَجْد ، وهو الحزن والألم .
(٤) تقنّع : تغشّى بثوب ، ليستخفي ، ويتهرّب عن تقديم يد العَونْ .
(٥) بلد : ضعف ذكاء . أي لم تبطره النعمة .
(٦) عذاره : جانب لحيته . أيْ لم يبدأ بممارسة الأعمال الحربية والتدرّب عليها .
(٧) لُبَدُ : آخر نسور لقمان . (٨) حرّى : مكتوية القلب . تقد : تحترق .

فبكى الفضل بن الربيع ، وبكى الناسُ معه ، وما انصرفوا يومئذ يتذاكرون غيرَ أبيات أشجع .

جَشَعُ أشجع

كان ثمّة شعراء مدّاحون ، ويحظَوْن بالعطايا ، ولكنّها لم تكن تملك عليهم كل شأنهم وأمرهم ، كأبي تمام ، وكان آخرون يمدحون وهم حريصون على المكافآت والهبات ، مثل أشجع ، ويُرْوَى أن الرشيد أبطأ على أشجع بشيء كان قد أمرَ له به ، فكتب إليه أشجع :

أبلغْ أميرَ المؤمنين رسالةً لها عَنَقٌ بين الرُّواةِ فسيحُ (١)

بأنّ لسان الشعر يُنطقه الندى ويُخْرِسُه الإبطاء وهو فصيح (٢)

ووَعَدَ يحيى بنُ خالد أشجع السُّلَمِيَّ وعداً ، فأخّره عنه ، فقال له :

رأيتُك لاتَستَلِذُّ المِطالَ وتُوفِي إذا غدَرَ الخائنُ (٣)

فماذا تُؤَخِّرُ من حاجتي وأنتَ لتعجيلها ضامِنُ

ألمْ ترَ أنّ احتباس النَّوالِ لمعروفِ صاحبِه شائنُ

فلم يتعجّلْ ما أراد ، فكتب إليه :

رويدَكَ إن عزَّ الفقر أدنى إليَّ من الثَّراءِ مع الهَوانِ (٤)

وماذا تبلغ الأيّامُ منّي بريْبِ صروفِها ومعي لساني ؟

فبلغ ذلك جعفراً ، فقال له : ويلك يا أشجع ! هذا تهدُّدٌ فلا تَعُدْ لمثله .

ثم كلّم أباه فقضى حاجته ، فقال :

---

(١) العَنَقُ : السير السريع . (٢) الندى :الجود والسخاء .

( ) المِطال : التسويف والتأخير . (٤) الهوان : الذلّ

كفاني صروفَ الدهرِ يحيى بنُ خالدٍ ... فأصبحتُ لا أرتاعُ للحَدثانِ
كفانـي – كفـاه اللهُ كـلَّ مـلـمـةٍ ... طِلابَ فلانٍ مرّةً وفـــلانِ
فأصبحتُ في رغد من العيش واسعٍ ... أقلّبُ فيـه ناظري ولساني

وقد سلف أن استشهدت بهذه الأبيات .

الخاتمة

يتّضح مما تقدّم أن أشجع بن عمرو السلمي كان من الشعراء المختصّين بالبرامكة وحكومة الرشيد ، ولم يكن من الطّراز الأوّل بين الشعراء ، وإن كان غزير المعاني رشيق الأسلوب ، وقد عاش حتى شهد قتل الأمين سنة /١٩٨/ ، إذ روى لـه الصُّولي قصيدة في مديح طاهر بن الحسين الـذي حاصر الأمين إلى أنْ ظفِرَ به ، وفي ذلك يقول أشجع :

سلبت رداءَ الملكِ ظالمَ نفسِـه ... وصنتَ الذي ولاّك قصمَ الجبابرِ

فهو يمدحه بأنّـه خلعَ الخلافة من الأمين الـذي ظلم نفسَه في رأي أشجع – ونافح عن المأمون الذي قلّده قيادة جيشِه للفَتْك بكل جبّار ، وتحطيمه حَطْماً .

ومات أشجع في سنة مصرع الأمين ، أي عام /١٩٨/ للهجرة .

تاريخ شعراء العربية

شعراء العصر العباسي الأول

الإمام الشافعي



إعداد وشرح
لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُورِيَة - حَلَبْ - خَلفَ الفُنْدُقِ السِّياحي

شارع هدى الشِعْرَاوِيْ

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب | ٧٨ | فاكس ٢١٢٣٦١ ٢١ ٠٢١

نشــــأته في اليُتْم

وُلِدَ أبو عبد ا لله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي في مدينة غزَّة بفلسطين سنة / ١٥٠ / هـ وكان أبوه إدريسُ قد اضطرّ إلى هــذه المدينة النائية عن موطن قريش ، طلباً للرزق والمعاش ، غيرَ أنّه توفّي وابنه لم يزلْ في المهد ، فرجعتْ به أمّه ، وكانت من الأزْد ، إلى مستقرّ قرابته في مكّة ، وهو ابن سنتين .

حفظه القرآن وموطّأ الإمام مالك

ما إن نما عود محمد بن إدريس بعض النموّ حتـى أسلمتْه والدتُـه الحانيـة إلى الكتّاب ، إلا أنّها لم تكن تملك مـا تعطـي شيخه مـن أجْـرة ، وهنـا بـدأت أحاسيس الفتى الناشيء الموهـوب تتفتّـح ليشـقّ سـبيل المجـد الحقيقـيّ بـإخلاص العاملين وجهاد الطالبين ، فكان كلّما انشغل المعلّم خلفَه على التلامذة ، ورضي منه معلّمه هذا أُجْرةً .

ولم يَطْوِ الغلامُ اليتيم من عمره سبعَ سنين حتـى اسـتظهر القـرآن ، ثـم صار يكتب الأحاديث النبويّة التي يجمعها على ما يوفّره من قِطَع خـزَف أو دفّ أو كـرَب نخيـل أو أكتـاف جمـال ، أو ظهـور أوراق كـان يطلبُهـا مـن دواويـن الحكومة ، حتى ملأ من ذلك جَرَّة قديمة كانت لدى والدته .

وكــان اســم مـالك بـن أنــس رضـي ا لله عنـه قـد ذاع في كـــلّ مكـــان ، فاستعار الشافعي كتابه الموطّأ من رجل مكّيّ ، وحفظه في تسع ليـالٍ ظاهراً .

تلميذ الإمام مالك رضي الله عنهما

على عادة مَنْ كانوا يتبدّون لنهل الفصاحة من منابعها العذبة ضرَب (١) محمد بن إدريس في بوادي هذيل وغيرها ، وجمع كثيراً من لغتها وأشعارها وقال الشافعي : ((لمّا رجعت إلى مكّة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب ، فمرّ بي رجل من زبيد فقال لي : يا أبا عبد الله عزّ عليّ ألا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه ، فتكون قد سُدْت أهل زمانك .

وكان يتردّد في مكّة على أمثال سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجي فنهل عنهما ، ثم رحل إلى الإمام مالك في المدينة المنوّرة ولّما يتجاوز الثانية عشرة عمره ، فانكبّ على مَعِينه يجرَعُ ويستفيد ويُروى أن الإمام قال : ((إنْ يك أحد يُفْلح فهذا الغلام)) وقال أيضاً : ((ما أتاني قرشيّ أفهمُ من هذا الغلام ، يعني الشافعي)) .

وقد حفظ له تلميذه فضلَه ، وظلّ يقول بعد أن بلغ ما بلغ : ((مالك معلمي وأستاذي ، ومنه تعلّمْنا العلم ، وما أحدٌ أمنّ عليَّ من مالك ، وجعلت مالكاً حجّة فيما بيني وبين الله تعالى)) .

عمله في اليمن ، ثم أوْبته

رّ بالمدينة والٍ على اليمن ، فكلّمه بعض القرشيّين بشأن الشافعي لعله يجدُ له عملاً عنده ، فقبل منهم ، واصطحبه معه وكلّفه بوظيفة وبعْض أعمالٍ فقام بأعبائها ، وكان يأتي المعتمرون من اليمن إلى مكّة لزيارة بيت الله الحرام فكانت أمّه تسألهم عنه فيثنون عليه ، وكان الشافعي يذهب إلى مكّة بين الفينة والفينة ليلقى والدته ، ويزداد علماً من شيوخه الأقدمين وما إن بلغ الخامسة

---

(١) ضرب: سافر .

عشرة من عمره حتى قال له مسلم بن خالد : أفْتِ ، فقد آنَ لكَ أن تُفْتِيَ .

وكان الشافعي في تلك الفترة نفسها يملي من حِفْظِه من الموطّأ على الحجّاج المصريين الذين كانوا يزورون المدينة المنوّرة بعد تأدية الفريضة .

رحلته إلى المشرق

ربّما أحسّ الشافعي من نفسه مقدرة على الحِجاج فإذا بهِ - وهو في بدء شبابه - يراجع شيخه القولَ ، فيغضب الإمام مالك ، ويقول له : إذا أردتَ : فإن قيلَ قُلْنا ، فاقصد هُنَا . وأشار بيد ه إلى جهة العراق ، إشارة إلى أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنهم ، لأنهم أهل نظر وجدال . فخرج المفتي الناشىء من عند شيخه منفعلاً ، وقصد العراق ، ولقي محمد بن الحسن ، وأخذ عنه وسافر إلى بلاد فارس يجمع العلم ويقابل العلماء حتى صار ابن إحدى وعشرين سنة ، ثم عاد إلى العراق ، فولاه الرشيد صدقاتِ نجران ، لكنّ مودّته المتمكّنة لإمام دار الهجرة عرّجت به شطر المدينة المنوّرة ليراه قد اغتنى ، وصار شيخه يقسم له منذ ذلك الوقت في كل عام من هداياه ، إلى أنْ لبّى مالك نداء ربّه سنة / ١٧٩ / هـ .

العالم المجتهد

عاد الشافعيّ إلى مكّة وقد نضجتْ ثقافته وتبحّر إلى أبعد غاية في فقه الرأي (الفقه الحنفي) ، إضافة إلى فقه الحديث (مذهب مالك) ، وصار يفيض على حلق الدارسين من معينه الثّرّ ، ولبثَ على هذه الشاكلة حتى عام / ١٩٥ / هـ ، عندما ذهب إلى بغداد ، وأقام بها يدرّس ويصنّف .

وزار مكّة ثم عاد إلى العاصمة العباسية عام / ١٩٨ / ، ثم سافر منها إلى مصر سنة / ١٩٩ / ، فأكرمه الخاصّ والعامّ ، وسار ذكْرُه في البلدان

وقصده الناس من الشام واليمن والعراق وسائر الأقطار ليأخذوا عنه الفقه والحديث ، ويتعلّموا كتبَه ، إلى أن مات سنة / ٢٠٤ / هـ .
وكان له ولدان ، محمد وكان قاضياً في حلب والحسن ، وماتَ وهو طفل وبنتان هما فاطمة وزينب .

أخلاقه وعلمه

لم يعرف للإمام الشافعي صَبْوَةٌ لا في شباب ولا كهولة ، وقد سمع الحارثَ بن لبيد يتلو يوماً ﴿ هذا يومُ لا ينطقون . ولا يُؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فتغيّر لونه واقشعرّ جلده . ولم يحلف الشافعي بالله تعالى لا صادقاً ولا كاذباً .
وكان يختم القرآن كل ليلة ختمة فإذا كان شهر رمضان ختمه في اليوم مرّتين .
وقال الشافعي : ((ما شبعت منذ ست عشرة سنة ، لأن الشبع يُثقل البدن ويقسّي القلب ويُزيل الفطْنة ويجلب النوم ، ويُضْعف صاحبه عن العبادة)) .
وقال أيضاً : ((من ادّعى أنه جمع بين حبّ الدنيا وحبّ خالقها في قلبه فقد كذب)) . وكان الشافعي لطيفاً عدْلاً كريماً شجاعاً ، ذكيّاً .

وكان طويل القامة سائل الخدّين قليل لحم الوجه ، خفيف العارضين طويل العنق ، آدم (أسمر) حسن الصوت ، أليف السَّمْت ، فصيحاً ، ذاهيبة .

ولم يكن الشافعيّ فقيهاً مجتهداً ، ومحدّثاً عظيماً فقط ، بل كان عالماً بكلام الصحابة ، والتفسير ، والقراءات ، والأنساب ، والتاريخ ، والطبٌ والرمي ، وكان صادق الفراسة صافي النفس نافذ البصيرة ، حُجّة في اللغة والنحو ، راوية للشعر . وقال أحمد بن حنبل : ((ما أحد مسَّ بيده محبرة ولا قلماً إلّا وللشافعي في رقبته منّة)) . وقال أبو عبيد القاسم بن سلّام : ((ما رأيتُ رجلاً قطّ أكمل من الشافعي .))

وألّف الشافعي /١٧٥/ كتاباً في علوم شتّى ، سَرد ابن النديـم في كتابه الفهرست ، وكذلك ياقوت في معجم الأدباء ، أسماء مئة منها على وجه التقريب .

شـــــعره

ترك الإمام الشافعي مجموعة من الأشعار مفرّقة في بطون تراجمه من كتب الفقه والحديث والأدب والتراجم ، وهي مجموعةٌ تُسلَكُ في الشعر الديني الذي يدعو إلى الخير ، وينمّي منازع الإنسان الصالحة حتى تزداد وتقوى ، في الوقت الذي يدعو إلى مجاهدة كل الميول والأهواء والرغائب التي تنتهي به – إنْ تولّاها – إلى الانحدار والارتكاس والهبوط . ومن هنا كانت الحكمة أوّل أغراض الشافعي في قريضه (١)

الحكمـــة

تدور الحكمة في شعر الشافعي على التأمّل وما يكون وراءه من اعتبار بالتجارب العريضة ، واهتداء للإيمان ، وللقواعد النافعة في الحياة ، وما يدفع ذلك إليه من مواعظ وأخلاق .

تأمل في العاقبة

يتبصّر الشافعي في معاده المحتوم : هل هو جنّة هنيّة أو نار متلظّية ؟ .إنّ من يدري هول ذلك اليوم ليذرف الدمع تلو الدمع ، ويقطع الليل تفكيراً وذكْراً ويُقِلّ الكلام فيما سوى الذّكْر :

فيا ليت شعري ، هل أصيرُ لجنّةٍ فأهنا ، وإمّا للسّعيرِ فأندَما
فللّه درُّ العارفِ النّدبِ ، إنّه تسُحُّ لفرْط الوَجْد أجفانُه دَما (٢)

---

(١) القريض : الشعر . (٢) الندب : النحيب .

يُقيمُ إذا مـا الليلُ جَنَّ ظلامُـــه على نفسِـه من شـدّة الخَوْف مأتَما
فصيحاً إذا ما كانَ في ذكْر رَبِّــه وفيما سواه في الورى كـان مُعْجِماً

ذلك المصير هو المهيب الرهيب ، وهو ما يخالف مألوف الشدائد في هذه الفانية ، فإن شدائد الدنيا – مهما كانت – زائلة قصيرة ، وإن أيامها لآتية على كلّ نعيم فيها وكلّ ضنك وجائحة (١) :

عواقـب مكـروه الأمـور جُبــارُ وأيّامُ شـرّ لا تـدومُ قِصارُ
وليـسَ ببــاقٍ بؤسُـها ونعيمُها إذا كـرَّ ليـلٌ ثم كـرّ نهارُ

فكم من طـاغٍ في هـذه الحيـاة قـد أسـرف في بغيـه ، ثـم انتكـس فجـأة وأحاطتْ به هموم ثقال ومصائب فادحة فكانت هذه بتلك جزاء مُقْسطاً وثواباً غير جائر :

تحكّموا فـاســتطالـوا في تحكُّمِهـمْ عمّا قليــلٍ كـأنّ الحُكْمَ لم يكنِ
لـو أنْصفـوا أُنصفوا ، لكنْ بَغَوْا فبغى عليهم الدّهْرُ بالأحزان والمِحَنِ
فأصبحـوا ولســان الحـال ينشـدهـم هذا بذاك ولا عتبٌ على الزّمَنِ

الإيمان بالله واليوم الآخر

شهدتُ بأنّ اللهَ لا ربَّ غيـرُهُ وأشهدُ أنّ البعث حقّ وأُخلصُ
وأنّ عُرَى الإيمان قـولٌ مبيَّنٌ وفعــلٌ زكيٌّ قد يزيدُ وينقصُ

والإيمان كنز للآخرة ، إذا كان الذهبَ كنز الحياة الدنيا :

واعلمْ بأنّ كنوز الأرض من ذهب فاجعلْ كنوزكَ من برٍّ وإيمانِ

وإرادةُ الله تعالى هي الماضية ، وحُكْمه هو النافذ ، يعلم – منذ أنْ خلَـق النّاسَ ، ماذا سوف يصيبون ، وما سيكون عليه أمرهم :

ما شئتَ كان ، وإنْ لم أشأْ وما شئتُ – إنْ لم تشأْ لم يكنْ

---

(١) جائحة : مصيبة .

خلقتَ العباد على ما علمتَ ففي العلم يجري الفتى والمسنَ
فمنهم شـقيّ ومنهم سعيد ومنهم قبيـح ومنهـم حسـن

إنّ ا لله تعالى مالكُ المُلْك ، إذا رجاه عباده رزقهم ، وهو خبير حكَمٌ عَدْل لا يظلم نقيراً (١) ، وعليه يتوكّل العباد فيرزقهم ويقسم بينهم معيشتهم :

توكّلْتُ في رزقي على الله خـالقِي وأيقنْـتُ أنّ اللهَ لا شـكّ رازقـي
وما كـان من رزقي فليس يفـوتني ولو كان في قعر البحـار الغواسق
سـيأتي بـه اللهُ العظيـمُ بفضلـه ولـو لم يكـن منّي اللّسـانُ بناطق
ففي أيّ شيء تذهبُ النفسُ حسرةً وقـد قسـم الـرحمنُ رزقَ الخلائقِ

العِبَـــرُ

كـان تـأمّل الشـافعي يدفعُـه إلى التبصّـر في تجـارب الحيـاة الواسـعة واستشراف عِبَرِها الواعية وقواعدها الحكيمة المصطفاة .

الثّــراء من اللّـه

من الخطأ أن يوهبَ الإنسان الخير ثم لا ينفقه في سبيل ليكسب أجر ا لله تعالى وشكران الناس ، ويقطف ثمرة حظّه ، فبالحظ يغنى الناس ، والقدر غـالبٌ على أمره :

إنّ الـذي رُزِقَ اليسَـارَ ولـم يُصِبْ حمداً ولا أجْراً لغيـرُ مـوفّـقِ
فالجَدُّ يُـدنّـي كـلّ أمـر شـاسـعٍ والجَـدُّ يفتـحُ كـلّ بـابٍ مُغْلَقِ
وإذا سـمعْتَ بـأنّ مجـدوداً حـوى عــوداً فـأورق في يديه فحقّقِ
وإذا سمعْتَ بـأنّ محـرومـاً أتـى ماءً ليشـربَـه فغـاضَ فصدّقِ
لـو أنّ بـالحِيَـلِ الغنى لـوجـدتَني بنجوم أرجـاء السـمـاء تعلّقـي
لكـنّ مَنْ رُزِقَ الحجـا حُرِمَ الغِنَى ضـدّان مفتـرقـان أيَّ تفـرُّقِ

---

(١) النقير : النكتة في ظهر النواة .

وأحـقُ خَلْـقِ اللّـه بـالهَمّ امــروٌ ذو همّــة يُبْلــى بعيــشٍ ضيّــق
ومن الدليل على القضــاء وكـونِه بؤس اللّبيب وطيبُ عيشِ الأحمَقِ

الفقــر ابتــلاء

لا يُـدْرِكُ الحكمــةَ مَـنْ عمرَهُ يكدحُ في مصلحة الأهْــلِ
ولا ينــالُ الــعلــمَ إلا فتــىً خالٍ من الأفكار والشُغْــلِ
لـو أنّ لـقمان الحكـيم الـذي سارت به الركبان بالفَضْلِ
بُلِــيْ بفقــرٍ وعيــالٍ لمَــا فـرّقَ بين التّبن والبَقْــلِ

وأعــرضْ عـن الجـاهلين

قالوا سكَتّ وقد خوصمت قلْتُ لهمْ إنّ الجـوابَ لبـابِ الشّـرّ مفتـاحُ
فالصّمْـتُ عن أحمق أو جـاهلٍ كرمٌ وفيه أيضاً لِصَوْنِ العِرْضِ إصْلاحُ

مــراعـاة مَـنْ تعــاشـرُه

وأنزلني طولُ النّوَى دار غربةٍ يجاورني مَنْ ليس مثلي يُشاكلُهْ (١)
أحامِقُـه حتى يقــال سـجيّــةٌ ولــو كـان ذا عقـلٍ لكـنـتُ أعـاقِلُهْ

لا تــؤتِ العـلم غيرَ أهلـه

فمَنْ حـوى العلم ثمّ أودعَــهُ بجهلِه غيرَ أهلِه ظَلَمه
وكــان كـالمبتنــي الـبنــاءَ إذا تـمَّ لـه ما أرادَهُ هدَمَهُ

العالم والسفيه على طرفي نقيض

إنّ السفهاء لا يقيمون لعارف وزناً ، ولا يقدّرون له علماً ، بل يلجّون في مخالفة مقالاته مـا استطاعوا ، وهـو مـن جانبـه يسـأم عشـرتهم ، ويتجـانب مجالستهم :

---

(١) يشاكله : يماثله .

ومنزلةُ السفيهِ من الفقيهِ كمنزلة الفقيه من السَّفيه
فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهدُ منه فيهِ
إذا غَلَبَ الشقاء على سفيهٍ تنطَّع في مخالفة الفقيهِ

اجتراء الناس على انتقاص الآخرين

ليس أحدٌ بسالم من ألسنة الناس ، أو من سفهائهم ، حتى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، إنّهم إذا رأوك صامتاً رمَوك بالبَكامة (١) ، وإذا وجدوك فصيحاً اتهموك بالثرثرة ، وإذا أَلْفَوْكَ صائم نهار قائم ليل قذفوك بالرياء ..

وما أحدٌ مِنْ ألسُنِ الناس سالماً ولو أنّه ذاك النبيُّ المطَّهرُ
فإنْ كان سكّيتاً يقولون أبكَمٌ وإنْ كان منطيقاً يقولون أهذَرُ (٢)
وإنْ كان صوّاماً وبالليل قائماً يقولون زرّاق يرائي ويمكرُ (٣)

الترفّع عن اللّدد

لقد أسمعُ القولَ الذي كادَ كلّما تذكّرنيه النفسُ قلبيَ يَصْدَعُ
وأبديْ لمَنْ أبداه منّي بشاشةً كأنّي مسرور بما منه أسمَعُ
وما ذاك من عُجْبٍ به غير أنني أرى ترك بعضِ الشرّ للشرّ أقطعُ

الصديق وقتَ الضيق

صديقٌ ليس ينفعُ يوم باسٍ قريبٌ من عدوّ في القياسِ
ولا يُرْجى الصّديقُ بكل عصرٍ ولا الإخوانُ إلا للتأسي

---

(١) البكامة : الخرس .

(٢) الهادر : الساقط .

(٣) الزرق : الكذب .

أريدُ حِباءَه (١) ويريد قتلي

ومن الشقاوة أنْ تحبَّ ومن تحبّ يحبُّ غيرَكْ
أو أن تريد الخير للإنسان وهو يريد ضرَّكْ

ما كلّ من أراد الخير يبالغه

رامَ نفعاً فضَرَّ مِنْ غيرِ قصدٍ ومن البرّ ما يكونُ عقوقا

الطبيب السقيم

جاءَ الطبيبُ يجسّني فجسستُه فإذا الطبيبُ لما به مِنْ حالِ
وغدا يعالجني بطولِ سَقامِه ومن العجائب أعمشٌ كحّالُ (٢)

من صبر ظفر

بقدر الكدّ تُكتسبُ المعالي ومَنْ طلبَ العُلا سهِرَ اللّيالي
ومَنْ رام العلا مِنْ غيرِ كَدٍّ أضاعَ العمرَ في طلب المُحَالِ
تروم العزّ ثمّ تنامُ ليلاً يغوصُ البحرَ مَنْ طلب اللآلي

العمل بلا توفيق خَيْبَة

إن النسر – على قوته – يَطْعَمُ الجيفَ المُنْتِنة، والذّباب – على قلة شأنه – ينال أشهى أنواع العسل !

أكلَ العُقابُ بقوةٍ جِيَفَ الفَلا وجنى الذبابُ الشَّهْدَ وهو ضعيفُ

كتمان السّرّ

إذا المرءُ أفشَى سِرَّه لصديقِه ودلّ عليه غيرَه فهو أحمَقُ
إذا ضاقَ صدرُ المرء عن سرّ نفسِه فصدرُ الذي أودعتَه السّرّ أضيَقُ

---

(١) حبا : أعطى .

(٢) في البيت إقواء .

مشاقّ الغُرْبة

إنّ الغريب له مَخافةُ سارقٍ   وخضوعُ مديون وذِلّةُ وامقِ
وإذا تذكّر أهلَـــه وبـــلادَه   ففـؤاده كجَنَـاحِ طير خافقِ

العلم يمّ خِضَمّ

كلّمـــا أدّبني الـدَّهر   أرانـــي نقصَ عقْلي
وإذا ما ازددتُ علماً   زادني علماً بجهلي

أرْفقُ الناس بالمرء نفسه

ما حكَّ جلْدَكَ مثْلُ ظُفْرِكْ   فتـولّ أنت جميعَ أمرِكْ
وإذا قصدتَ لحـــاجـــةٍ   فاقصدْ لمعترفٍ بفضلِكْ

الدنيا سراب خَلاب ، وجيفةٌ نتنة

ومَنْ يذق الدنيا فإنّي طعِمتُها   وسيقَ إلينا عَذْبُها وعذابُها
فلم أرَها إلا غـروراً وبـاطلاً   كما لاح في ظهر الفلاةِ سرابُها
وما هيَ إلا جيفـةٌ مستحيلـةٌ   عليها كلابٌ همهنّ اجتذابُها (١)
فإن تجتنبْها كنتَ سِلْماً لأهلها   وإنْ تجتذبْها نـازعتْـك كـلابُها

تسَامَ عن الطامعين وارقبْ نهايتهم

بلوْتُ بني الدنيا فلـم أرَ فيهـمُ   سوى مَنْ غدا والبخلُ ملءَ إهابهِ (٢)
فجرّدْتُ مِنْ غِمد القناعةِ صارماً   قطعْـتُ رجـائي منهـمُ بذُبابـهِ (٣)
فلا ذا يراني واقفاً في طـريقــهِ   ولا ذا يــراني قـاعـداً عنـد بـابـهِ
غنيٌّ بلا مالٍ عن الناس كلِّهـمْ   وليس الغنى إلا عن الشـيءِ لا بـهِ
إذا ظالمٌ يستحسنُ الظُّلْم مذهبـاً   ولـجَّ عُتـواً في قبيـح اكتسـابـهِ
فكِلْهُ إلى صَـرْف الليالي فإنّهـا   سـتبـدي لـه مـا لم يكنْ في حسابهِ

---

(١) مستحيلة : متغيّرة ، فاسدة . (٢) الإهاب : الجِلْد . (٣) الذّباب : حد السيف .

فكمْ قد رأينا ظالماً متمـردّاً يـرى النجم تيهاً تحت ظِلّ ركابـهِ
فعمّا قليلٍ وهـو في غفلاتـهِ أناخت صروفُ الحادثاتِ ببابـهِ
فأصبحَ لا مالٌ ولا جاهَ يرتجي ولا حسنـاتٍ تلتقي في كتابـهِ
وجُوزِي بالأمر الذي كان فاعلاً وصبَّ عليه الله سَوْطَ عذابـهِ

الموت بالمرصاد

ومُتْعِبِ العيسِ مرتاحٍ إلى بلـدٍ والمـوتُ يطلبهُ من ذلك البلدِ (١)
وضاحكٍ والمنايا فوقَ مَفْرِقـهِ لو كان يعلمُ غيباً ماتَ من كَمدِ (٢)

الزم الحقّ والصدق

أرى راحةً للحـقّ عند قضائهِ ويثقلُ يوماً ، إنْ تركْتَ على عَمْدِ
وحسبُكَ حظّاً أنْ تُرى غيرَكاذبٍ وقولُكَ لم أعلمْ وذاكَ مـن الجَهْـدِ
ومَنْ يَقْض حقّ الجار بعدَ ابنِ عمّه وصاحبِه الأدنى على القرب والبُعْدِ
يعشْ سيّداً يستعذبُ الناسُ ذِكْرَهُ وإنْ نابَه حقٌّ أتوه على قَصْدِ

أن تعيش وحيداً خيرٌ لك من مجالسة السفيه

إذا لم أجدْ خِلّاً تقيّاً فوحدتي ألذّ وأشهى من غَوِيّ أُعاشِرُهْ
وأجلسُ وحدي للسفاهةِ آمناً أقرُّ لعيني من جليسٍ أحاذِرُهْ

أكرم نفسك

زِنْ مَنْ وزنَكَ بما اتّزنتَ ______ وما وزنَكَ به فزِنْهُ
مَنْ جا إليكَ فرُحْ إليـه ______ ومن جفاك فصُدّ عنْهُ
مَنْ ظَنّ أنّك دونَـهُ فاترك هواه إذاً وهِنْه
وارجعْ إلى ربِّ العباد ______ فكلّ ما يأتيكَ منهُ

---

(١) العيس : النوق .

(٢) كمد : حزن .

الــزهـد

أمتُّ مطامعي فأرحْتُ نفسي ... فإنَ النفسَ ما طمِعَتْ تهونُ
وأحييْتُ القنوعَ وكان ميْتـاً ... ففي إحيائه عرضي مَصُوْنُ
إذا طمعٌ يحـلّ بقلب عبـدٍ ... علتْهُ مَهانةٌ وعلاهُ هُــونُ

حَذارِ حَذارِ الدنيا

يا مَنْ يُعانقُ دنيا لا بقـــاء لهــا ... يُمْسي ويصبحُ في دنياه سفّــارا
هلا تركْتَ لـذي الدنيا معانقـةً ... حتى تعانقَ في الفردوس أبكارا
إنْ كنتَ تبغي جنان الخُلْد تسكنُها ... فينبغــي لك ألا تــأمن النّـــارا

***

إنّ الملوكَ بــلاءٌ حيثمــا حلّــوا ... فــلا يكــنْ لكَ في أبوابهم ظِــلُّ
ماذا تؤمّلُ من قـومٍ إذا غضبُـوا ... جاروا عليك وإن أرضيتَهم ملّوا

***

لَذُلُّ السُّـــؤالِ وهــولُ الممـــاتِ ... كـــلاً وجــدنــاه طمعــاً وبيــلا
فــإنْ كــان لابــدَّ إحــداهمــــا ... فمشياً إلى الموت موتاً جميـــلا

***

أقســمُ بالله لــرَضْـــخُ النَّـــوَى ... وشــرب مــاء القلبُ المالحهْ (١)
أحســـنُ بــالإنســان مِنْ حِرْصـهِ ... ومن ســؤال الأوجـه الكالحــهْ

***

صُنْ بمِلْح الجَرِيش خبزَ الشّعيـرِ ... واعتقــبْ للنّجــاةِ ظهـرَ البعيـرِ
وجب المهمهْ المخوفَ إلى طنجةَ ــ ... أو خلفَهـــا إلــى الــدُرْ دُرور
وصُنْ الوجهَ أن يذلّ وأن يخضع ــ ... إلا إلـــى اللطيــف الخبيـــر

---

(١) رضخ النوى : كسره .   القلْب : الآبار .

العلـــم

مع العلمِ فاسلكْ حيثما سلَك العلْـمُ   وعنـه فسائلْ كلّ مَنْ عندَه فَهْـــمُ
ففيـه جـلاءٌ للقلــوب من العمـــى   وعَوْنٌ على الدِّيْن الذي أمرُهُ حتْـمُ
فإني رأيتُ الجهلَ يُـــزْري بـأهلِـه   وذو العلم في الأقوامِ يرفعه العلــمُ
وخالطْ رُواةَ العلم واصحبْ خيَارَهم   فصحبتُهـــم نفـــعٌ وخلطتُهــم غُنْـمُ
ولا تَعْدُوَنْ عينـــاك عنهمْ فـإنَّهم   نجومُ هدى ما مثلُهم في الورى نجْمُ

الحرّ من دانَ نفسَه

نعيبُ زمانَنا والعيبُ فينـــا   وما لزماننا عيـبٌ ســوانا
وقد نهجو الزمانَ بغير جُرْمٍ   ولو نطقَ الزمانُ به هجانا
وليس الذئبُ يأكلُ لحمَ ذئبٍ   ويأكــلُ بعضُنـا بعضاً عِيانا

حسن المعاشرة

إذا شئتَ أن تحيـا سـليماً من الأذى   وحظُّكَ موفورٌ وعِرْضُكَ صيّـنُ
لســانَــك لا تـذكــرْ به عورةَ امرىءٍ   فكُلُّكَ عــوراتٌ وللنَّاس ألْسُــنُ
وعينُــك إنْ أبـدتْ إليــك معــايبـاً   فدعْها وقل يا عين للناس أعين
وعاشرْ بمعروف وسامــحْ من اعتدى   وفــارقْ ولكنْ بالتي هي أَحْسَنُ

الخــاتمة

لعله استبان من الأمثلة المتقدّمة من شعر الشافعي أنّه شعر حسن بصـورة عامّـة ، يحتوي على المعاني الشريفة ، والألفاظ المختارة ، والتراكيب المحكمة ، والسـياق المنساب ، والقافية المنسجمة مع حَشْو الأبيات .

شعراء العصر العباسي الأول

رابعة العدوية



إعداد وشرح
لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُورِيَة - حَلَبْ - خَلفَ الفُنْدُقِ السِّياحي

شارع هدى الشعْرَاويْ

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٠٢١،٢١٢٣٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

مــولدها وأســــــرتها

وُلِدَتْ أمّ الخير رابعة بنت إسمــاعيل العدويّـة في البصـرة في مطلـع القـرن الثاني ، وكــانتْ مـولاة لآل عتيـك ، مـن بـني عـدوة القيسـيّين ، وكـان أبوهـا إســماعيــل فقيراً كثير التعبُّد ، حتى لقبوه بالعــابد ، وكـان قـد وُلـد لـه ثـلاث بنات ، ثم رُزقَ الرابعة ، فسمّاها رابعة ، وهي رابعة العدويّـة المشـهورة ، وهـي التي وُلدت وعاشت وماتت ودُفِنَتْ في البصرة ، ولم تتزوَّجْ ، بل عاشـت بتـولاً وتُوفيت عذراء ، متفرّغة للعبادة .

راويـــة المؤرخ الكبير فريد الدين العطّــار عن ولادتهـــا

(من كتابه تذكرة الأولياء)

((في الليلة التي أتتْ فيها رابعة العدوية إلى الدنيا لم يكن في بيـت أهلهـا شيءٌ ممّا يصلح للوليد عند ولادته ، فقد كان أبوها فقيراً ، حتى إنّه لم يكـن ثمّـة مصبـاحٌ للنـور ، ولا نقطـة سَمْن للخـلاص ، ولا قطعـة مـن قمـاش يُلَـفّ بهـا للمولود ، وكان له ثلاثُ بنات ، فسميّت رابعة لأنها رابعتهنّ .

وكان الأبُ الصّالح قد عـاهدَ ا لله ألا يطلـبَ مـن عبْـد مـن عبـاده شيئاً ولكنّه ذهب استجابة لضراعة زوجه ، وشفقةً على وليدته ، ذهب يطرقُ أبوابَ جيرته يلتمس عَوْناً ، ولكن الأبواب صمتتْ ، فلم يستجبْ له من ورائها أحد .

ورجع الأب حزيناً أَسِفاً ، وبكـت الزوجـة ، وأقبـل الأب علـى صلاتـه وتسبيحه ، فأخذه النوم ، فرأى النبيَّ صلوات ا لله وسلامه عليه في منامه ، فقـال له النبيُّ صلى ا لله عليه وآله وسلم : لا تَحْزَنْ فهذه الوليـدةُ سيّدة جليلـة ، وإن

سبعين من أمّتي ليرجون شفاعتها . ثم أمره صلوات الله عليه بالتوجُّه إلى عيسى ابن زادان أمير البصرة ، ويكتبَ له رقعة يخبره فيها أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم زاره في المنام ، وأمره أن يذهب إليه ، وأنْ يقول له : إنك تصليّ مئة ركعة كل ليلة ، وفي ليلة الجمعة أربعمئة ، ولكنّك في الجمعة الأخيرة نسيت ، ألا فلتدفعْ أربعمئة دينار لصاحب هذه الرقعة كفّارة عن هذا النسيان .

وفي الصباح كتب والد رابعة الرسالة التي أمر بكتابتها ، وأرسلها عن طريق الحاجب إلى الأمير ، فلمّا قرأها الأميرُ أمر بإعطائه أربعمئة دينار فوراً وإحضاره إليه ، ثم راجع نفسَه في الحال ، وقال : بل أنا أذهب إليه ، إجلالاً لمن أرسله ، وسأتولّى بنفسي العناية بابنته الجليلة القدر)) .

نشأتها

كانت رابعة منذ طفولتها ذكيّة تقيّة ، حفظت القرآن الكريم ، وكانت تواظبُ على صلاتها ، وتتفتّح في نفسها أزاهير الورع ، فتقول لأبيها : يا أبتِ لستُ أجعلُكَ في حلٍّ من حرامٍ تطعمُنيه.. إنها لا تسامح إن هو أذاقها من طعام حرام لم يكسبْه من طريق حلال ، وسُرّ أبوها بما قالت غَرْسَةُ يده ، ونبتة سقايته فسألها ممتحناً : أرأيْت يا رابعة إنْ لم نجدْ إلا حراماً ؟ فقالت : أن نصبرَ يا أبتِ في الدنيا على الجوع خير من أنْ نصبر في الآخرة على النار .

ويُتوفّى أبواها الفقيران ، وليس لها أخٌ من الذكور ، وكانت قد نزلتْ في البصرة مجاعة ، فسرقها أحد اللصوص ، وباعها في سوق النخاسة رقيقةً بستّة دراهم ، فصارت في حَوْزة تاجر لم يكن يرحم ، فاعتصمت بإيمانها ، وتجمّلتْ بالصبر ، ولاذتْ بالعبادة ، وأكثرتْ من التهجّد ، ولزمت الدُّعاء .

وأرسلُها سيّدها يوماً لقضاء حاجة لـه في السّوق ، فتعثّرت في الطريـق فـانكسـرت ذراعها ، وأصابها إغماء ، فلما صَحَتْ شرعَتْ تناجي ربّها : ((رباه قد انكسرتْ ذراعي وأنا أعاني الألم واليُتم ، وسوف أتحمّلُ كل شيء وأصبرُ عليه ، فهل أنتَ راضٍ عنّي يا سيدي ، إلهي هذا ما أتوق إلى معرفته)) .

تحـرّرهـا

بينما كانت رابعة غارقة في مناجاتها ذاتَ مرة إذْ سمعتْ صوتاً يقول : لا تحزني ففي يوم الحساب يتطلّع المقرَّبون في السماء إليكِ ، ويحسـدونك على مـا تكونين فيه .

هنالك ازدادتْ حبّاً لله ، وإقبالاً علـى العبـادة . واستيقظ سيّدها ذات ليلة ، فسمع صوت مناجاة حرّة ، فـأخذ يتتبَّـعُ الصـوت حتـى وصـل إلى غرفـة رابعة ، ثم نظر من خِصاص الباب ، فرأى رابعةَ سـاجدةً تصلّـي وتقـول : إلهي أنتَ تعلم أنّ قلبي يتمنّى طـاعتك ، ونـور عيـني في خدمتـك ، ولـو كـان الأمـر بيدي لما انقطعت لحظة عن مناجاتك ، ولكنّك تركتني تحت رحمة هذا المخلـوق القاسي من عبادك .

وخلال دعائها وصلاتها شاهد قنديلاً فوق رأسها يشعّ نوراً ، فلما كان الصباح دعاها وقال : أيْ رابعة وهبْتُـك الحرّيّـة ، فـإن شئْتِ بقيـت هنـا ونحـن جميعاً في خدمتك ، وإنْ شئتِ رَحلْتِ أنَّـى رغبْـتِ فودّعتـه وذهبـتْ وانقطعـتْ للعبادة .

في الطريق إلى الله

أغـــذّت رابعـــةُ خطاهـا في أقـــدس طريـق ، فهبّتْ عليهـا نسـائمُ الإيمان ، وزادها ا لله تقوى ، فكانت لا ترفع رأسَها إلى السماء حياء من ا لله عزّ وجلّ ، وكانت تصليّ في اليوم ألف ركعة ، وما أكثرَ ما كانت تقول : إلهي إنْ لم يكن بك عليَّ غضب فـلا أبـالي ولاذتْ رابعـة بحلقـات المسـاجد ، وطـرق المتصوّفة ، مستفيدة من مواعظ أعلامهم من أمثال إبراهيم بن أدهم ، ومالك بن دينار ، وسفيان الثوريّ ، وشقيق البلخي ، ونهلت من معين الهداية ، وعـاهدت ا لله سبحانه وتعالى على أنْ تعيش متحـرّرة مـنْ كـلّ شـهوات الدنيـا . وكـانتْ هذه الصَّالحة تقول : ((لو كانت الدنيا كلُّها لرجل ما كان بها غنياً)) قـالوا : لماذا ؟ قالت ((لأنها تفنى)) .

العذراء البتول الشاعرة

صارت معاني الدين تتغلغل بعناية ا لله في قلبها ، وتنكشف لهـا أحكامـه فخيرُ صلاة مـا كـان في بيتهـا ، فـأوتْ إليـه ، وجعلَتْـه محرابهـا ، ومحـلّ عزلتهـا وخلْوتها ، ومناجاتها ، واضعةً عن كاهلها كل عبء من أعباء الدنيا ، متخلّصة من كل شهوة آثمة أو مُبَاحة ..

لقد أحبّت ربّ العالمين ، جلّ جلاله ، وتجـرّدت لعبادتـه ، وأيقنـت أنّـه أهل أن يعبد طمَعاً برضاه وجنّته ، واتقاءً لعذابه ، حتى لو أنّه عزّوجلّ ما جعـل ثواب المتّقين جنة وعذاب العاصين النّار لكان يستحقّ أنْ يُعْبَـد ، لجـلال وجهـه وعظيم صِفاتِه ، وإحسانه الذي لا يُحَدّ ، وآلائه الغامرة .

مَحَضَتْ رابعة نفسَها لعبادة مُبْدِع الكَوْن ، ربّ الخلائق ، سبحانه واستعاذتْ به من أن تشرد لحظة عن تلكم العبادة ، وتقول : ((اللهم إني أعوذ بك من كل ما يشغلني عنك ، ومن كل حال يحول بيني وبينك)) .

حتى النوم هجرتْهُ ، إلا بُلْغة (١) تلمّ بها : ((وعزّتك وجلالك لا أنام عن خدمتك (أي عن ذِكْرك وعبادتك) لا في ليل ولا نهار ، إلا غلبة (٢) حتى ألقاك)) ((وعزّتك لو طردتَني عن بابك ما برحت عنه لِما وقعَ في قلبي من محبّتك)) .

والتزوّجُ قد يشغل المرءَ عن العبادة شيئاً ما ، وهو حظُوظٌ ، وهي لا تضمن أن توفّق بعابد مثلها يُتيحُ لها فرص المناجاة التي تملكها وهي عَزَبَةٌ عذراء فآثرتْ أن تبقى خِلْواً من أعباء المسؤولية الزوجية ، مع أنها تعلم أنها مسؤولية مأجورة يعقبُها الثواب الجزيل .

وازنتْ رابعة إذاً أيُّهما خير : أن تسترفد الثوابَ من باب الذِكْر والمناجاة والنُّسُك (٣) ، أم من باب طاعة الزوج ، ومسؤوليّة البيت ، وأملِ أن تُرزَق ولداً صالحاً يدعو لها في حياتها ، وبعد وفاتها ؟

فوجدت أنَّ طريقة الذِكْر والمناجاة والتفرّغ للنُّسُك أضْمَنُ ، وهي عليه أقْدَرُ ، وله أمْلَكُ ، أمّا الزوج والولد فباب طريقهما ينطوي على مغامرة فما أقلّ الأزواج المتجردين للعبادة الذين لا يستكثرون من الأموال والمكاسب وزينة الدنيا ، وما أكثر الولدان العَقَقة ! .

---

(١) البلغة : ما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل عنها .

(٢) غلبة : أي إذا غلبها النوم . (٣) النسُك : العبادة .

والتزوُّج ليس فرضاً عليها – ما دامتْ ضابطةً لنفسها وميولها ، والعُزوبة ليست حراماً ما دامت مجتنبة كلّ مأثمة ، أو خاطرة ممقوتة ، أو رغبة تنبثق عن غريزة .

ومن هنا أعرضتْ عن الزواج ، وكتبت إلى أحد خاطبيها وكان قد عرض عليها أنّه يكسب كل يوم ثمانين ألف درهم ((أما بعد ، فإن الزهد في الدنيا راحة للبدن ، والرغبة فيها تورث الهمّ والحزن ، فهيّىء أمرك ، وقدّمْ لمعادك ، وكن وصيَّ نفسك ، وصُم الدهر ، واجعلْ فطرتك الموت . وأما أنا فلو خوّلني (١) الله أمثال ما خوّلك وأضعافه ما سرّني أن أشتغل عن ذكر الله طرفة عين ، والسلام)) .

ملايين النساء يتزوّجْنَ ، فهل من ضيْر أن تتسامى إحداهن إلى مقام تشبه فيه الملائكة ، فيلَذّها الخلوة ، وتأنس بذِكْر الله ، وتسعد بحبّه ، وتهيم بجلال قُدْسه ، والفناءِ في طاعته والأمل بوصاله ؟ تقول :

راحتي يا إخوتي في خلوتي … وحبيبي دائماً في حضرتي

لم أجدْ لي عن هواه عِوضَاً … وهواه في البرايا مِحْنَتِي

حيثما كنتُ أشاهدْ حُسنَهُ … فهْوَ محرابي ، إليه قِبلتي (٢)

إنْ أمتْ وَجْداً وما ثَمَّ رضا … واعنائي في الورى وا شِقْوتي (٣)

يا طبيبَ القلب يا كلّ المنى … جُدْ بوصْلٍ منك يشفي مُهْجَتِي

---

(١) خوّلني : أعطاني . (٢) أشاهد : فعل مضارع مرفوع ، وسُكّن لضرورة الشعر .

(٣) ثَمّ : هنالك . إنْ ماتتْ في حبّها لخالقها عزّوجلّ من دون أن تحظى برضاه فهي المعذّبة الشقيّة .

يـا سـروري وحيـاتي دائماً ... نشـأتي منـك وأيضـاً نشـوتي

وهجـرتُ الخلقَ جمعاً أرتجي ... منـك وصـلاً فهـو أقصـى منيتي

تقشّـفها

كان المسلمون يلمسون صـدق هـذه المتصوّفـة ذات الهمّـة العاليـة الفـذّة فينهالون عليها من عطاياهم ، فما أكثرَ ما كانت تعتـذر عـن قَبولِها ، وتكتفـي منها بما تعيش به عيشةَ كفاف ، أو تبيت يطعمها الغنيّ ويسْقيها .

وكانت تنام على حصيرة بالية ، وكان موضع الوسادة قطعة مـن الآجـرّ وكانت تشرب من إناء مكسور ، وتقطع لياليها صلاة وتهجّداً وتبتّـلاً ومناجـاة وتقول :

وزادي قليلٌ ما أراه مبلّغـي ... أللزّاد أبكي أمْ لطول مسافتي ؟

أتحرقني بالنار يا غايةَ المنى ... فأين رجائي فيك أين مخافتي ؟

وكانت تعلم أنهـا لـن تـأخذ معهـا مـن هـذه الدنيـا إلا عملهـا وكفنهـا فكانت تحمل كفنها معها أينما ذهبت ، وتعلّقه على مِشْـجب في منزلهـا ، وهـو عبارة عن عباءة من الصوف الأسود .

وكانت تقول : ما سمعت الأذان إلا ذكـرْت منـادي يـوم القيامـة ، ومـا رأيت الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف ، وما رأيت الجراد إلا ذكرتُ الحشر .

هكذا حتى الرمق الأخير

عاشت رابعة ما يناهز الثمانين ، حتى غدت كالشّنّ (١) ، تكاد تسـقط ولمّا دنتْ منيّتُها دعتْ خادمتها عبدة ، وقالت لهـا : لا تُؤْذنـي (٢) بموتـي أحـداً

(١) الشّن : القِرْبَةُ البالية اليابسة .

(٢) لا تؤذني : لا تخبري ، لا تُعْلمي .

ولفّيني في جبّتي هذه . فلما قضتْ نحبَها كُفّنت بتلك الجُبّة كما أوصت وبخمار صوف كانت تلبسه ، ولم يكن يُرى في بيتها إلا قطعة حصير ومشحب قصب ، وكوز ، ولبد تصلّي عليه وتنام عليه . وكان موتها بحدود سنة / ١٨٠ / هـ .

أحـوال ومقـامـات

مرّت رابعة في حياتها الصوفية بكل الأحوال والمقامات الرّوحيّة من زهد وشوق وأنس وبسط وصبر وشكر ورضا وإلهام وتوبة ويقين .

والحال شيء عارض غير مقيم . وهو موهبة تُمْنح ، أما المقام فهو تمكين وتثبيت ودوام ، ولا يُنال إلا بالجهاد والعمل المتواصل على النهج القويم .

وبين كل حال وحال ، وتنقّل من مقام إلى مقام ، وتَرَقٍّ في عالم الروح تُعْهَدُ عنها أقوال مأثورة مشهورة ، فتقول : ((أتحمّل كل ألم ، وأصبر عليه ولكنّ عذاباً أشدّ من هذا العذاب يؤلم روحي ، ويفكّك أوصال الصبر في نفسي منشؤه ريب يدور في خلَدي : هل أنت راضٍ عني ؟ تلك غايتي)) .

هذه الكلمات منسوبة إليها وهي صغيرة أسيرة ، وقد منّ الله عليها بحياة الحريّة وهي في الثانية عشرة أو بعدها بقليل ، فذهبت إلى الصحراء لتنعَم بحياة ((الخَلْوة)) ثم رجعت إلى البصرة ، لتبدأ مسيرتها في تعليم منهج التصوّف مقبلةً على الله ، مُؤثرةً له على مَنْ عداه ، تبتغي أنْ ينكشف عن قلبها الحجاب وتصل إلى الله . وتقول ((يا ربّ اجعل النار لأعدائك ، والجنّة لأحبابك وأما أنا فحسبي أنت) وقالت عبدةُ وهي التي لازمت رابعة طوال حياتها : كانتْ لرابعة أحوال شتى ، فمرّةً يغلبُ عليها الحبّ ، ومرّة يغلب عليها الأنس ، ومرّة يغلب عليها الخوف ، ومرّة يغلب عليها البسط فسمعتها في حال الحبّ تقول :

حبيبي ليس يعدِلُه حبيبٌ ... ولا لسواه في قلبي نصيبُ
حبيبي غابَ عن بصري وشخصي ... ولكنْ في فؤادي ما يغيبُ

وسمعتها في حال الأنس :

إني جعلتُك في الفؤاد محدثي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي (١)
فالجسم مني للجليس مؤانسي ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وسمعتها في حال الخوف :

وزادي قليل ما أراه مبلّغي ... أللزاد أبكي أم لطول مسافتي
أتحرقُني بالنارِ يا غايةَ المنى ... فأين رجائي فيك ، أين مخافتي ؟

وسمعتها في حال البسط تقول :

يا سروري ومُنْيتي وعمادي ... وأنيسي وعدتي ومُرادي
أنتَ روحُ الفؤادِ أنتَ رجائي ... أنتَ لي مؤنس وشوقُكَ زادي
أنتَ لولاكَ يا حياتي وأُنْسِي ... ما تَشَتَّتُّ في فسيح البلادِ
كم بدتْ منَّةٌ وكم لكَ عندي ... من عطاء ونعمةٍ وأيادِ
حبُّك الآنَ بغيتي ونعيمي ... وجلاء لعين قلبي الصادي (٢)
ليس لي عنك ما حييت بَراحٌ ... أنتَ منّي ممكّنٌ في السَّوادِ (٣)
إنْ تكنْ راضياً عليَّ فإنّي ... يا مُنَى القلبِ قد بدا إسعادي

---

(١) تجالس الناس فتحضُر بجسمها ، وتناجي الله فتحضُر بروحها وقلبها وسرّها .

(٢) الصادي : العطشان .

(٣) براح : زوال . ممكّن : متحكّم متمكّن .

فإذا انتشتْ رابعة بـالرحيق المختـوم ، مـن ينـابيع السَّـناء ، سَمَـتْ محلّقـةً لترسل البصر خاطفـاً إلى الحقيقـة المجـرَّدة ، فـترى الكـونَ كلّـه في حدَقـة عينهـا المبصرة ، أو ببصيرة قلبها المجلوَّة ، شيئاً هيّناً لا وزن له ولا خطر فترسـل لحنهـا البديع :

فليتَك تحلو والحياةُ مـريـرةٌ — وليتك ترضى والأنام غِضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ — وبينـي وبين العالمين خَرابُ

إذا صَحَّ منكَ الوُدُّ فالكُلُّ هيّنٌ — وكلُّ الذي فوق الترابِ ترابُ

الخمرة الصوفية

هامت رابعة بحبِّ ربِّ العالمين ، وأبتْ أن تركن إلى أي شـيءٍ مـن دنيـا يشغلها عن ذِكْرِ الله ، وتسبيحِه ، وحمده ، وتمجيده ، والتفكّر في جميـل صُنْعـه لقد عاشت حياةً خاصّة كانتْ معها بين الناس ، ولكنْ ليس لها اهتمامات النَّاس وهذه الغيبوبة عن واقع المادّة والحسّ هي بمثابة سُكْر ، ودخول في ((لا وعي)) عمّا حولها ، وهو المراد من الخمرة الصوفيّة .

فرابعة ما ذاقت أمّ الخبائث في دنياها قطّ ، إنّمـا شـغلها حبّهـا لله تعـالى عن كل شيء ، وسئلت رابعة كيف رأيت المحبّـة ، فقـالتْ : ((ليـس للمحـبّ وحبيبـه بَيْـنٌ ، إنـما هـو نطـقٌ عـن شـوق ، ووصـف عـن ذوق ، فمـن ذاق عرف ، ومن وصف فما اتصف ، وكيف تصف شـيئاً أنـت في حضرتـه غـائب

وبوجوده دَائب ، وبشهوده ذائب ، وبصحْوك منْه سكران ، والمحبّة بدولتها الصارمة في القلوب حاكمة :

كأسي وخمري والنديم ثلاثةٌ	وأنا المشوقةُ في المحبّة رابعة
كأس المسرّة والنعيم يديرُها	ساقي المُدامِ على المدَى متتابعةْ
فإذا نظرتُ فلا أرَى إلا له	وإذا حَضرْتُ فلا أُرَى إلا معهْ
يا عاذلي إنّي أحبُّ جمالَهُ	تاللّه ما أذني لعذلكَ سامعة
كم بتُّ من حرقي وفرط تعلُّقي	أُجْري عيوناً من عيوني الدامعة
لا عَبرَتي ترقا ولا وَصْلي له	يبقى ، ولا عيني القريحة هاجعة

العشق الإلهي

إنَّما العشق الخالدُ للحيّ الباقي ، السرمدي الأبديّ ، مبدع الكون والتعلّق بما سواه فانٍ ، إنّها تحبّ الله عزّوجل ، وتحبّ حبَّها لله ، وتهوى هذه الطريقة القائمة على حبّ الله ، وتطمع أنْ تحظى برؤيته جلّ جلاله في الآخرة وأن تكون مشمولة فيمن قال الله عزّوجلّ فيهم : ﴿ وجوهٌ يومئذ ناضرة . إلى ربِّها ناظرة ﴾ قالت رابعة :

أحبُّكَ حبينِ حبَّ الهوَى	وحبّاً لأنّك أهلٌ لذاكا
فأمّا الذي هو حبّ الهوى	فشغلي بذكرك عمّنْ سواكا

وأمّـا الـذي أنتَ أهـلٌ لـه فكشفـكَ لي الحجبَ حتى أراكـا

فلا الحمد في ذا ولا ذاكَ لي ولكـنْ لك الحمدُ فـي ذا وذاكـا

وربما كان المرادُ من قولها ((حبّ الهوى)) حـبُّ ا لله ، لإحسـانه إليهـا وإنعامه عليها بحُظوظ العاجلة ، ((وبحبّه لما هو أهل له)) الحـبّ لجمالـه وجلالـه الذي انكشف لها ، وهو أعلى الحبَّيْن ، وأثبتُهما ، وأدومُهما .

أو ربما كان المرادُ من قولها ((حبّ الهوى)) الحبّ القائم على مشـاهدة اليقين ، وبذلك لا يتعلّق بالنِّعَم الدنيوية التي تُساق إليها ، وأنواع الإحسان إليها على نحوٍ لو قلّت هذه النِّعم ، وتلك الأنواع من الإحسان لقلّ حبُّهـا أو احتُمـل أن يقلّ حبُّها ، شأن ضعاف الإيمان ، وإنما يتعلّق بيقين راسخ مـن طريـق العيـان والمشاهدة ، وهو يقين جعلها تتقرّب منه جـلّ جلالـه ، وتهـرب إليـه ، وتفـرغ قلبها إلاّ من ذكْره ، وحبّه .

وأمّا الحبّ الذي هو أهـل لـه فهـو حـبّ التعظيـم والإجـلال لوجـه ا لله العظيم ذي الجلال والإكرام .

ثم ترى أنها مع ذلك لا تستحقّ على هذا الحـبّ ولا تسـتأهل أن تنظـر إلى ربّهـا في الآخـرة ، لأنّ حبّهـا لله تعـالى لا يوجـب ذلـك إيجابـاً ، بـل علـى العكس يحمّلُها تبعاتٍ وأعمالاً لا تطيقها ، ولا تستطيع أن تقوم بحقوقهـا ، ولـن ندخل الجنّة بما نقدّم ، إلا أن يتغمّدنا ا لله برحمته ، فتفضّـل ا لله عزّوجـلّ بفضـل كرمه ، فأراها وجهه الكريـم في الآخـرة ، وربنـا أهـل الكـرم ، وصـاحبُ المِنّـة وأهل لذاك . وله الحمد على ما حباها من حـبّ الطريـق الموصـل إليـه في الدنيـا فهو الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحمد على منّه في الآخرة .

الخُلّةُ الحقيقية

لم تحبّ من أعلاق الحياة شيئاً ، ولم تعشق إلا العشق الأجدَى ، والحبّ الأبقى ، الذي ملكَ عليها مسارب نفسِها ، وغاص في أغوَار روحِها ، وملأ عليها كلَّ كيانِها ، فإنْ تحدَّثتْ لم تتحدّثْ إلا عن الله سبحانه وتعالى ، وذِكْره وما والاه ، وأخَذَ من ذلك بسبب ، وإنْ صمتتْ كان فِكْرُها في آلاء الله وآياته العظمى ، وجلاله الأوفى ، فكلامُها ذِكْر ، وصمْتُها فِكْر ، تقول رابعة :

وتَخلَّلْتَ مَسلَكَ الروح منّي — وبه سـمّي الخليلُ خليلا
فإذا مـا نَطَقْتُ كنتَ حديثي — وإذا ما سكَتُّ كنتَ الغَلِيلا

الخاتمة

ما منْ شك في أنّ من واجبنا أنْ نصون كرامة كل مسلم ، ولا نفرّط به وأن نكون على حذر من خصومه ، ونتبيّن مطاعنهم فيه ، لأن حسن الظنّ بالمسلمين ، وتبرئة ذممهم ، هما المُنْطَلق ، ولأنّ المشهورين قد يلسّ عليهم ما ليس لهم به علم ولا صلة .

ومعروف أن أعلام التصوّف الإسلامي قد وضعوا معياراً مستنيراً لمنتقديهم ، ليزنوهم به ، وهو شريعة الله ، وتبرؤوا - وتبرَّأتْ رابعة - من كلّ ما يخالف هذه الشريعة الغرّاء . وإذاً نستطيع أنْ ننفي - على هذا الأساس - كلَّ مَا نُسِب إلى رابعة من أقوال أو أفعال تحادّ الدين الحنيف ، أو تخالف منهجه في الترغيب والترهيب ، والثواب والعقاب .. فليست رابعة بأوّل من نسب إليه ما لم يقلْه وما لم يفعله ، أوَلم يضع الأفّاكون أحاديث على لسان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كشَفَها المحدّثون ؟ أو لم يجعلوا هارون الرشيد - زوراً وبهتاناً - من أبطال ألف ليلة وليلة ؟ أوَلم يشوّه ابن مماتي - لهواه - سمعة قراقوش ؟ أوَلم يختلف المؤرّخون في رابعة نفسها : متى عاشت ؟ ومتى ماتتْ ؟ وأين دُفِنَتْ ؟ .

لقد حجّت رابعة ، ولكنهم زعموا أنها عندما كانت قرب الكعبة أشارت إليها وهي تقول : ((هذا الصنم المعبود في الأرض ...)) .

لقد أنكر أهل التحقيق ذلك ، ونفَوْا نسبةَ هذا القول إليها ، حتى ابن تيمية - وما أشدَّه رحمه الله - قال : ((وأمّا ما ذُكر عن رابعة مِنْ قولها عن البيت : ((إنه الصنم المعبود في الأرض)) فهو كذب على رابعة المؤمنة التقيّة ولو قال هذا مَنْ قال لكان كافراً ، يُستتاب ، فإنْ تابَ ، وإلا قُتل وهو كذب فإن البيت لا يعبده المسلمون ، ولكنهم يعبدون ربّ البيت بالطواف به والصلاة إليه)) .

تاريخ شعراء العربية

شعراء العصر العباسي الأول

العتابي



إعداد وشرح

لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق

أحمد عبد الله فرهود

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه ونشأته

هو كلثومُ بن عمرو العتّابي ، أبو عمرو ، ينحدر من سُلالة الشاعر الجاهلي المشهور ، زعيم بني تغلب الذي قتل ملكَ المناذرة عمرَو بنَ هند وافتخر بذلك الصنيع افتخاراً واسعاً في معلّقته التي عدّتها تغلب بمثابة ملحمة لها ترويها في كل آن ومكان ، حتى قال خصومهم :

ألهَى بني تغلبٍ عن كلّ مكرمةٍ قصيدةٌ قالَها عمرُو بن كُلْثوم

وقد افتخر العتابي بعمرو بن كلثوم فقال :

إنّي ابنُ عمرو بن كلثوم يسوّده حيّا ربيعةَ ، والأحياءُ مِنْ مُضَرِ

وكان مولدَ كلثوم العتابي في قنّسرين التي تقع على بُعْد ثلاثين (كم) جنوبَ حلب . وفي قنّسرين كانت نشأته ثم انتقل إلى الرقة ، وبعدها إلى بغداد .

يعرض بدايات شعره على بشار

أغلب الظّنّ أنّ ميلاد العتابي كان قبل عام / ١٥٠ / هـ ، لأننا نراه وهو في أوائل شبابه يجتمع في العراق ببشار بن برد ، ويعرض عليه بعض شعره وهو قوله :

أيصدِفُ عن أُمامةَ أم يُقيمُ وعهدُك بالصِّبا عهدٌ قديمُ (١)

أقولُ لمستعارِ القلْبِ عفّى على عزَماتِهِ السِّبْرُ العديمُ (٢)

---

(١) يصدف : يعرض .

(٢) عفّى : محا .

أما يكفيك أنّ دموع عيني شآبيبٌ تفيض بها الهمومُ (١)
أشِيمُ فلا أرُدُّ الطَّـرْفَ إلا على أرجائـــه ماءً سَجُومُ (٢)

في العراق

رحل العتابيُّ إلى العراق ليشهدَ في البصرة ثمّ في الكوفة وبغداد الحركة العلمية النشيْطَة التي نهض بها اللغويّون ورواة الشعر وأصحاب الكلام والفقهاء وأُعجب بشعر أبي العتاهية ، ونظر إليه على أنه أشعر الناس في عصره وأقبل العتابيُّ على التبحّر في العلم ، والتزوّد من الكتب ، والاستكثار من المطالعة في المكتبات العامّة والخاصّة ، وفي دور الوَرّاقين ، وتعلّم اللغة الفارسية ، وقرأ آثار ابن المقفّع المترجمة والمؤلّفة .

واستمالتْه تلكم القراءة ، لكلّ ما يقع في يده من كتب ، حتى قال له قائل والعتابي يقرأ في كتاب : ماذا ينفعُ العلمُ والأدبُ مَنْ لا مالَ له ؟ فقال العتابيّ :

يا قاتل اللهُ أقواماً إذا ثَقِفُــوا ذا اللُّبّ ينظرُ في الآداب والحِكَمِ (٣)
قالــوا وليْــسَ بهم إلا نفاستُه أنــافــعٌ ذا مــن الإقتــارِ والعَــدمِ
وليس يدرُون أنّ الحظّ ما حُرِمُوا لحــاهــمُ اللهُ مــن عِلْمٍ ومن فَهمِ

فهو يدعو على أولئك الّذين إذا رأوا عاقلاً أريباً يطّلع على شيء حسدوه وسعَوا إلى ادخال الرِّيْبة في صدره من جدْوَى العلم ، فها هو ذا فقير مُعْدِم وكأنّ المال هو كلّ شيء في الحياة ، مع أنّ المال ، لا يعدلُ شيئاً إذا قيس بالعلم الذي حُرِمُوا منه ، ويدعو عليهم باللّعْنة .

---

(١) شآبيب : خُطوط ، حبال . (٢) أشيم : أنظر . سَجُوم : منهمل سائل .

(٣) ثقفوا : وجدوا .

وصف الكتاب ، وإقباله على الكتب

الكتابُ نعْمَ الأنيس والجليس ، والنديم والصاحب ، وحسبُك معاشر لا تَمَلُّ حديثه ، وصديق أمين مؤتَمن ، سواء لدى حضورك أم غيابك ، وهو يخبرك من علوم الأقدمين ، وتتزوّد منه رأياً صائباً ، وأدباً جمّاً ، وكلُّ ما فيه صلاح ورشد ، هذا مع أمْنِكَ بوائقَه (١) ، واطمئنانك إلى عدم غدره ، وعدم خيانته وعدم اعتدائه ، إنه حيّ يتكلّم بالحكمة وبكل ما ينفع ، ولكنه ميت ، لأنّ تكلّمه بلا صوت ، ولا لسان :

لنا نُدَماءُ ما نَمَلُّ حديثَهم ... أمينون مأمونون غَيْباً ومَشْهدا (٢)
يُفيدوننا من علمهم علْمَ ما مضى ... ورأياً وتأديباً وأمراً مسدَّدا
بلا عِلّةٍ تُخْشَى ، ولا خوفِ ريبةٍ ... ولا نتّقي منهم بَناناً ولا يدا (٣)
فإن قلْتَ هم أحيا فلستَ بكاذبٍ ... وإنْ قلتَ هم موتَى فلستَ مفنّدا (٤)

ومنذ كان في الرَّقّة بدأ يقتني مكتبة خاصّة به في بيته ، ونرى عبد الله بن طاهر والي المصْرين : الشام ومصر ، يزوره وهو في ذلك البيت ولكنّ بعض الناس قالوا : إنما هي خطرةٌ خطرتْ ، وزيارة عابرة ، واتّفاقة عارضة ، فقال العتابي :

يا مَنْ أفادتْني زيارتُه ... بعد الخمول نباهة الذِّكرِ
قالوا : الزيارة خطرة خطرَتْ ... ونجارُ برِّك ليس بالخَطْرِ (٥)
فادفع مقالتهم بثانية ... تَستنفدُ المجهود من شكري

---

(١) بوائقه : شروره ، ونواقصه .

(٢) غيباً ومشهدا : في الغياب والشهود أي الحضور .

(٣) لا نتقي منهم بناناً ولايدا : كناية عن أنهم مسالمون لا يعتدون .

(٤) أحيا : أحياء . مفنّد : مكذَّب .

(٥) نجار : أصل ، خُلُق .

وكا ن في مرو ونيسابور كتب نفيسة ، فإذا به يُغِذّ الخُطا إليها ويستنسخ ما استطاع من كنوزها ، ولما سئل عن سبب صنيعه أجاب بأن المعاني والبلاغة إنما هي في كتب العجم ، و((اللغة لنا ، والمعاني لهم)) .

على أن العتابي لم يقبل على كتب الفرس وثقافتهم فحسب ، بل قرأ ما ترجم عن اليونانيّة ، أيضاً ، واطّلع على منطق أرسطو ، وألَّف في هذا العلم وألَّف في غير هذا العلم وفاضتْ معارفه ، فتخرّج عليه في الشعر منصور النمري ومسلم بن الوليد في رأي الجاحظ ، ونَقَلَ عنه في مؤلفاتهم : الأصمعي والجاحظ ، والمبرّد وابن قتيبة وأبو الفرج وابن عبد ربّه والجهشياريّ والبغداديّ وابن طيفور والقيرواني ...

طائفة من أخْلاقه

أدّى به شغفه بالقراءة إلى ضرب من الزهد والتَّقَشُّف والقناعة في متاع الدنيا ، حتى قالت له امرأته : هذا منصور النمري قد أخذ الأموال فحلّى نساءه وبنى داره ، واشترى ضياعاً ، وأنت هنا كما ترى ، فقال :

تلومُ على ترك الغنى باهليَّةٌ
زوى الدَّهْرُ عنها من طريف وتالدِ (١)
رأتْ حولها النِّسوانَ يَرْفُلْنَ في الكُسَا
مقلّدةً أجيادُها بالقلائد (٢)
تقولُ أما تحدُوكَ للمجد همّةٌ
تنيلُكَ وجهاً من وجوه الفوائدٌ (٣)

---

(١) الباهلية : زوجته . زوى : طوى . الطريف والتالد : المال المكتسب والمال الموروث.

(٢) الكسا : جمع كسوة . (٣) تحدوك : تدفعك .

أسركِ أنّي نلْتُ ما نال جعفر — من الملك أو نـال يحيى بـنُ خالـدِ
وأنّ أمير المؤمنين أغصنّـي — مُغَصَّها بالمُرْهَفـات البـوارد (١)
ذريني تجئني ميتتي مطمئنّـةً — ولـم أتجشَّـمْ هولَ تلك المواردِ (٢)
فإنّ رفيعاتِ الأمورِ مَشـوبـةٌ — بمستودَعات في بطون الأساودِ (٣)

فامرأته – وهي من قبيلة باهلة – قليلة ذات اليد ، فهي تلومُه لِتَأَبّيـه عـن طَرْقِ باب الثراء ، من مدح خليفة أو وزير ، ليبلغ المجد ، وهو عند أكثر العامّـة سعةُ المال والجاه ، فيحاول هو – من ناحيته – أن يقنعها بوجهة نظره ، فهـاهم أولاء البرامكة ، قد بلغوا من علّوّ الشأن ما بلغـوا ، ثـم زُلزلـوا زلـزالاً شـديداً فعـلامَ لا يعْتـبر بهـم ؟ فـالأَوْلى أن يعيـش عيشـة هادئـة ، مبتعـداً عـن المخـاطر والمغامرات . فإن بلوغ العلا محفـوفٌ بـأهوال جسـام ، ومـا أشـبهه باسـتخراج شيء من بطون الثعابين والأفاعي والأحناش .

ومن هنا آثر أن يحيا في تقشّف ، مهملاً شأن ملبسه ، قـائلاً : أَبْعَـدَ الله رجلاً يرى أن يكون جماله في لباسه وعطره ، إنّمـا ذلـك حـظّ النسـاء ، وأهـل الأهواء ، حتى يرفعه أكبراه : همّته ولُبّه ، ويعلوَ به معظّماه : لسانه وقلبه .

---

(١) يشير إلى نكبـة البرامكـة علـى يـد الرشـيد ، بسـبب ميولهـم القوميـة الانفصـالية والمرهفات : السيوف الحادّة . البوارد : التي تبرُد الأرواح ، أي تفنيها .

(٢) أتجشّم : أقتحم .

(٣) الأساود : جمع أسود ، وهو العظيم من الحيّات .

على أنه ليس بعيداً أنّ صلته القويّة بالبرامكة من قبـل هـي الـتي أحدثـتْ ردّ الفعل هذا بعد نكبتهـم ، وكـان البرامكـة أهـل دهـاء ، يجمّعـون حولهـم مـا استطاعوا من أنصار ، مستخدمين مراكزهم وأموالهم ، ويقال إنّ العتّابيّ قد تأثّر بفكرة المعتزلة ، واستساغ مطالعة كتب الزنادقة . وساءَ حاله حتى طلبه الرشيد فهرب في الآفاق ، حتى شفع له البرامكة .

ومَضَتْ حياته بعد ذلك هادئة مطمئنة ، مُؤْثِراً العزلة ، فإن قلّ ما في يده مدح أحد الحكّام فأناله ، فمكـث ينفـق مـن ذلـك النـوال إلى أن يوشـك علـى الانتهاء ، فيمدح آخر أو يسترفده ، فيعطيه ، وكانت حياة المجتمع آنئذ ميسـورة وبقـي علـى هـذه الشـاكلة إلى أن لبّى نداء ربّه عام / ٢٠٨ / هـ ، وقيل عام / ٢٢٠ / هـ .

تجربة مُخْفقة

مع أنّ العتّابيّ مدح الرشيد وأناله كثيراً من عطايـاه بقـي هـواه للحبيـب الأوّل للبرامكة ، وبسبب هواه لم يقلْ إن البرامكة أرادوا فصم الدولـة العباسـية وإحياء القومية الفارسية فنكَبهـم الرشـيد ، وإنّمـا صـار ذا حـذر يُوْجِـس خَوْفـاً وريبةً من معاملة الحُكّام ، وقد سئل مرّةً لم لا تقصد السلطان فتخدمـه ؟ وكـان سؤالهم له بعد نكبة البرامكة ، فقال : لأني أراه يُعْطي واحداً بغير حَسَنةٍ ولا يـدٍ ويقتل الآخر بلا سـيّئة ولا ذنـب ، ولسـتُ أدري : أيّ الرجلـين أنـا ؟ ولسـت أرجو منه مقدار ما أخاطر به .

فإذا علمْنا أن السلطان الذي يتحدّث عنـه إنمـا هـو الرشـيد ، وأنّـه يعـد الرشيد – كما ذكر العتابي في رسالة لـه إلى القـاضي أبـي يوسـف – مـن أئمّـة

الجور ، علمْنا مدى اتّباعه لهواه وهو يعمّي على الأسباب الحقيقية التي من أجلها فَتكَ الرشيد بالبرامكة .

وكأنّ هُوِيَّ نجمه الذي بزغ أيام البرامكة وقد أورثه سوداويّة مستمرّة صحبتْه مدى حياته ، ويأساً قاتماً ، يقول في بعض شعره :

ألا قد نُكِسَ الدَّهْرُ	فأضحى حلوه مرّا
وقد جرَّبْتُ مَنْ فيه	فلم أحمدْهمُ طُرًّا
فألزمْ نفسَكَ اليأسَ	من الناس تعشْ حُرًّا

بلاغته وكتبه

((كان العتابيّ ممن يجمع الخطابة والشعر الجيّد والرسائل الفاخرة ، مع البيان الحسن)) هكذا قال الجاحظ . وقال عبد الله بن المعتز : ((كان العتابي مجيداً مقتدراً على الشعر ، عذْب الكلام ، وكاتباً جيّد الرسائل حاذقاً وقلّما يجتمع هذا لأحد)) .

وقال العتابي : الألفاظ أجساد ، والمعاني أرواح ، وإنّما تراها بعيون القلوب ، فإذا قدّمت منها مؤخّراً ، أو أخّرْت منها مقدّماً ، أَفْصَدْتَ الصورةَ (١)، وغيّرْتَ المعنى ، كما لو حُوّل رأس إلى موضع يد ، أو يدٌ إلى موضع رجل لتحوّلت الخِلْقة ، وتغيّرت الحِلْية .

وإذاً فلا بدّ من وضع كل شيء موضعه في صياغة الكلام حتى لا يكون سيّىء النظم . وهو معيار بلاغي سبق فيه العتابي الجاحظ وغيره فيه .

---

(١) أفصد الصورة : شقّها وشوّهها .

وقال العتابيّ أيضاً : ((مَنْ قرض شعراً أو وضع كتاباً فقد استهدف للخصوم ، واستشرف للألسن ، إلا عندَ مَنْ نظر فيه بعين العدل ، وحكمَ بغير الهوى ، وقليل ما هم)) .

وقدْ سرد ابن النديم في كتابه الفهرست مجموعة من تصانيف العتابي منها كتاب المنطق ، وكتاب الآداب ، وكتاب فنون الحكم ، وكتاب الخيل وكتاب الألفاظ ، وكتاب الأجواد .

شعره

العتابي شاعر مُجيد ، وكان شعره رائقاً يصلح أن يخاطب به الخلفاء والوزراء والولاة ، مثل الرشيد والمأمون والبرامكة وطاهر بن الحسين ، وعبد الله بن طاهر ، فمدحهم به ، وقال أشعاراً في أغراض غير المديح .

ورأينا بصَره بالبلاغة ، من خلال ما مرّ له من نصوص أو أقوال في هذه الصناعة ، ويقول أيضاً عندما سئل : ما أقرب البلاغة ؟ : (أقرب البلاغة) ألا يُؤْتى السامع منْ سوء إفهام القائل ، ولا يؤتى القائل من سوء إفهام السامع . وسئل مرّة أخرى عن البليغ ، فقال : كلُّ مَنْ أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسة ، ولا استعانة فهو بليغ . قالوا : قد فهمْنا الإعادة والحُبْسة ، فما معنى الاستعانة ؟ قال : أنْ يقول عند مقاطع كلامه : اسمعْ مني ، وافهمْ عنّي أو يمسح عُثْنونه (١)، أو يفتل أصابعه ،أو يكثر التفاته من غير موجب ، أو يتساعل من غير سعلة أو ينبهر في كلامه)) .

---

(١) العثنون : شعر الذقن .

وإنّما قدّمْتُ هذا التمهيد لأنّ شعره جاء مصقولاً عذباً ، مُحْكَم الصِّناعة ، وافياً ، إنه شعر رجل له خبرة واسعة في تقويم الشعر ، والأدب يعرف مأتاه ، وسبل إجادته . وكان له راوية يحمل عنه شعره ، اسمه محمد بن موسى الضبّي ، نديم عبد الله بن طاهر ، ويرى الجاحظ أنه أستاذ مسلم بن الوليد الذي شهر في تصنيع الشعر .

اعتذارياته

أشاد القدماء باعتذاريّات العَتّابي ، لأنّها تذكّرنا باعتذار كعب بن زهير رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في البردة ، وباعتذاريّات النابغة الذبياني إلى الملك النعمان . ومن هذه القصائد العتابية بائيته التي اعتذر فيها لعبد الله بن هشام التغلبي ، وكان قد عتب على الشاعر في شيء بلغه عنه ، فكتب إليه :

وأشعثَ مشتاقٍ رمى في جفونه
غريبُ الكرى بين الفجاج السَّباسبِ (١)
أماتَ الليالي شوقه غيرَ زفرة
تَرِدُّ ما بين الحشا والترائب (٢)

---

(١) أشعث : مفرّق الشعر . السباسب : الصحارى . بسبب عتاب صاحبه أحيا ليله ضارباً في أرجاء الصحارى ، قاصداً إليه ، هاجراً النوم ، يحدوه شوقه .

(٢) الترائب : عظام الصدر . الحشا : البطن والأعضاء الداخلية . لقد ترك نوم الليالي لأن الحَسْرة التي ملأتْ عليه كيانه أسرتْه .

سحبتُ له ذَيْلَ السُّرَى وهولابسٌ
دُجَى الليل حتى مَجَّ ضوءُ الكواكب (١)
ومن فوق أكوار المطايا لُبانةٌ
أُحِلَّ لها أكْلُ الذُّرَى والغوارِب (٢)
هي النفسُ محبوسٌ عليكَ رجاؤها
مقيَّدةُ الآمالِ دُونَ المَطالِبِ
وتحتَ ثيابالصبر مني ابن لوعةٍ
يَظَلُّ ويُمْسي مستلينَ الجوانِبِ (٣)
حنانَيْك إني لم أكنْ بعد عزَّة بذلٌ ، وأحرزْتُ المنى بالمواهبِ (٤)
فقد سمتَني الهجران حتى أنقتني عقوبةَ زَلاتي وسوءِ مناقبي

---

(١) مُجّ : لُفِظَ . الشاعر سهران ، وصاحبه نائم .. إلى الصَّباح .

(٢) الكور : خشب الرحل . المطايا : الإبل . لبانة : حاجة . الذرى : جمع ذروة ، وهي السَّنام . والغوارب : الكواهل .

(٣) ليس للشاعر رجاء ، ولا أمل ، إلا عفو صاحبه (البيت السابق) ، لأنّه مُلْتاع صابر ، لَيّن خاضع .

(٤) حنانيك : مفعول مطلق منصوب بالياء لأنه مثنى . والكاف ضميرٍ في محلّ جرّ بالإضافة . يستعطفه ، لأنّ العتابي كان عزيزاً فهل يذلّ ؟ وكان بلغ آماله بمواهبه الذاتية وعصاميّته .

فهـا أنـا ساع في هواك وقابض على حـد مصقول الغرارين قاضِبِ (١)
ومنصرفاً عما كرهتَ ، وجاعـل رضـاك مثالاً بين عينـي وحاجبي (٢)

والنصّ فياض بالصّور أو التصوير البديع .

يعتذر إلى الرشيد

وَجَدَ الرشيد (٣) على العتابي لوشاية جاءته عنه ، فدخل العتابي عليه مع المتظلّمين سرّاً بغير إذن ، فلّما مَثَلَ بين يديه قال : يا أمير المؤمنين ، قد آذتْني النّاسُ لكَ ، ولنفسي فيك ، وردّني ابتلاؤهم إلى شكرك ، وما مع تذكّرك قناعةٌ بغيرك ، ولنعمَ الصائن لنفسي كنت لو أعانني عليك الصبر ، وفي ذلك أقول :

أَخِضنّي المُقامَ الغَمْرَ إنْ كان غـرَّني سَنا خُلَّبٍ ، أو زلَّت القدمانِ (٤)
أتتـركُـني جـدْبَ المعيشةِ مُقْتِراً وكفَاك من ماء الندى تَكِفَانِ(٥)
وتجعلنـي سَهْـمَ المطـامع بعدمـا بَلَلْـتَ يميني بالنَّدَى ولساني ؟

فعفا عنه الرشيدة ، وأجازه ، فخرج وعليه الخِلَعُ (العطايا) وفي يده الجائزة .

---

(١) الغرار : حدّ السيف . قاضب : قاطع . سيفعل ما يريد صاحبه ، ويسير على طريقة مستقيمة في غاية الدّقة .

(٢) لن يعود إلى ما يكرهه صاحبه . ولن ينحرف عمّا يرضيه .

(٣) وجد : غضب .

(٤) الغَمْر : الكريم . سنا خُلّب : ضوء خُلّبي خادع ، بلا مطر .

(٥) مُقْتِراً : قليل المال . الندى : الكرم . تكفان : تنهمران .

ولم يُطل العتابيّ القولَ هنا ، وليس لدى الرشيد استعداد أن يستمع في مجلس خصّصه للشكاوى لقضاء الظُّلامات لقصائد مطوّلة ، فإذا كان العتابي ماشَى قوماً أمِلَ منهم أمَلاً واهماً ، أو بدرَتْ منه هفوةٌ أخذَها عليه الرشيد فهو يعتذر من كلّ ذلك ، أفلا يوسع عليه الرشيد من عفوه ، ويغمره بصفحه ويَصِلُه ببِرّه وأمانه ، وحماه ؟ .

اعتذار آخر

رَحَلَ الرجاءُ إليكَ مغترباً ... حُشِدتْ عليه نوائبُ الدَّهْرِ
ردَّتْ إليكَ ندامتي أمِلي ... وثنى إليكَ عِنانَه شُكْري (١)
وجعلتُ عَتْبَك عَتْبَ موعظةٍ ... ورجاء عفوك منتَهى عُذْري

وهنا أيضاً اقتضب اعتذاره ، وركّز صياغته ، وحشد معانيه حَشْداً ، في إيجاز شديد ، ولكنّه غير مُخِلّ ، وشخّص الرجاء في صورة شخص مغترب قد ازدحمت من حوله المصائب ، وهو نادم أشدّ ندامة على ما فرَط منه من تقصير في حقّ صاحبه ، ولكنه لم ييأس من عَفْوه ، ويمثّل شكره إياه بفرس ، فها هو ذا يَأطُرُ (٢) مِقْوَدَه متّجهاً إليه . وقد حوَّل العتابي عتاب صاحبه إلى موعظة وما دام الشاعر حريصاً على صفح صاحبه ، راغباً فيه ، فليقبلْ ذلك الصاحبُ العتابيَّ ، وإنّ رجاءه لصفحه بمثابة اعتذار .

---

(١) العِنان : الرَّسَن .

(٢) يأطُر : يَعْطِف (يدوّر) .

يعتذر عن تأخّره في مساجلة (١)

من الحكْمة أن يعرف المرءُ حدَّه ، فلا يتكبّر ولا يتطاول ، والواقع يشهد أن الناس درجات ، فإن سبق الأعلى مَنْ هو دونه ، فلا عارَ على المسبوق وهل يستوي الفرس العربي الأصيل بآخر هجين ، مقيّد :

ولا عارَ إنْ قصَّرْتُ دونَ مبرّزٍ … شَأَى الناسَ قبلي سَعْيُهُ وشآني (٢)

وإني كمَنْ جارى جواداً بمُقْرفٍ … قوائمُه مشكولةٌ بجِرانِ (٣)

مدح البرامكة

غضب الرشيد على العتّابي لخطأ بدَر منه ، فهرَب ، فشفع له جعفر البرمكي ، أو أبوه يحيى ، عند الرشيد ، فقال العتابي يشكر لجعفر حُسْنَ مسعاه :

ما زلْتُ في غمراتِ الموتِ مطّرَحاً
قد ضاقَ عني فسيحُ الأرض من حِيَلي (٤)
ولم تزلْ دائباً تَسْعَى بلطفِك لي
حتى اختلَسْتَ حياتي من يَدَيْ أجَلِي

---

(١) المساجلة : المباراة ، المسابقة ، المفاخرة .

(٢)شأى : سبق .

(٣) مقرف : هجين ، غير أصيل . الجواد : الفرس الأصيل . الجران : موضع الذبح من البعير . إذا ربطت أرجل الجمل بعنقه تعثّر في السَّيْر .

(٤) غمرات : شدائد .

مدح الرشيد

إذا عزم الرشيد ، فهو متّكيء على فكر مستنير يتّقد بهداية الله ، وإنّ الرشيد أجلُّ مِنْ أنْ يوفّيه المدح حقّه ، لكنّنا إنما نُعْرب عن مكنونات أنفسِنا فإن الله تعالى قد أثنى على آل النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ إنّما يريدُ اللهُ ليذهبَ عنكم الرجس أهل البيت ويطّهركم تطهيراً ﴾ (١):

مُستَنْبطٌ عزَماتِ القَلْبِ من فِكَرٍ ... ما بينهنّ وبين الله معمورُ

فُتَّ المدائحَ إلا أنّ أنفسَنا ... مُستنطَقاتٌ بما تُخْفي الضّمائيرُ (٢)

ماذاعَسى مادحٌ يُثْني عليكَ وقدْ ... ناداكَ في الوَحْي تقديسٌ وتَطْهيرُ

جمال النصيحة

مَنْ يلومُك على ما قد يبدُر منك من مآثم وهفوات خيرٌ ممّن يتملّقك فإنّ الذي يكتُمك عيوبَك يُضِلّك ويضيّعك :

لومٌ يُعيذُكَ من سوء تُقارفُه ... أبقى لعرضِكَ من قولٍ يُدَاجيكا (٣)

وقد رمى بكَ في تيهاءَ مُهْلِكَةٍ ... مَنْ بات يكتمك العيبَ الذي فيكا (٤)

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية / ٣٣ / .

(٢) الضمائير : الضمائر .

(٣) يعيذك : يحميك . تقارف : تكتسب . العِرْض : ما ينبغي على المرء أن يصونه . يداجي : ينافق .

(٤) تيهاء : صحراء مُضِلّة .

اتباع الهوى تَهْلُكة

آتاه الله نِعَماً جليلة ، كثيرة ، وافية ، فاستقبلها بالمعاصي ، فزالتْ ، مع أنّ آياً منها كان كفيلاً بأنْ يحقّق له ما يريد ، ولكنّه غلبه هواه ، ونفسُه التي لم يَفْطِمْها ، وما أشدّ ترويض النفس ! .

وكم نعمةٍ آتاكَها الله جَزْلَةٍ مبرَّأةٍ من كل خُلْقٍ يَذيمُها (١)
فسَلَّطْتَ أخلاقاً عليها ، نميمةً تعاورنَها حتى تفرَّى أديمُها (٢)
وكنتَ امرأً لو شئْتَ أن تبلغ المدَى بلغْتَ بأدنَى نِعمةٍ تَسْتديمُها (٣)
ولكنْ فطامُ النفسِ أعسرُ محملاً من الصخرة الصمّاء حين ترومُها (٤)

الخاتمة

كانت ثقافة العتابي واسعة، وعقله دقيقاً ، فاستطاع أن يحقّق ريادة في نثره وفي شعره ، فكان مؤلّفاً عالماً ، وكاتباً بليغاً ، وشاعراً أسّس مذهب التصنيع .

(١ جزلة : كبيرة . يذيم : يعيب ويُنْقص .

(٢) تفرّى : تقطع . الأديم : الجلْد ، الوَجْه .

(٣) المدى : الغاية . تستديمها : تستبقيها .

(٤) الصماء : الصَّلْدة : تروم : تطلب .

تاريخ شعراء العربية

شعراء العصر العباسي الأول

أبو حية النميري



إعداد وشرح
لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُورِيَة ـ حَلَبْ ـ خَلفَ الفُنْدُقِ السِّياحي

شارع هدى الشعْرَاويْ

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٢١٢٣٦١، ٠٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه وقبيلته

هو الهيثمُ بن الربيع بن زرارة ، شاعرٌ مجيدٌ من مُخَضْرَمي الدولتين الأموية والعباسية ، وهو أحدُ شعراء بني نُمَيْر بن عامر بن صعصعة ، الذين ينحدرون من قيس عيلان المضرية . وكان لنمير شأن كبير في الجاهلية والإسلام وهي إحدى جَمرات العرب (١) الثلاث : بنو نمير بن عامر ، وبنو ضبّة بن أدّ وبنو الحارث بن كعب . قالوا : أُطفئت جمرة بني الحارث لمحالفتها قبيلة مذحج وأطفئت جمرة بني ضبّة لمحالفتها الرّباب ، وبقيت بنو نمير لم تحالف ، فقد كانت عزيزةً بنفسها ، كثيرة بعددها ، ولذلك يفخر أبو حيّة بهذه الجمرة فيقول :

لنا الجمراتُ ليس في الأرض مثلَهم ... كرامٌ وقد جُرِّبْن كلَّ التجاربِ

ويقال إنه كُنِّيَ أبا حيّة ، بواحدة الحيّات ، أو بحيّة من الحياة فهي بمعنى ((عائشة)) . وكانت منازل بني نمير في اليمامة ، بجوار بني حنيفة ، ثم توزّعوا فيها وفي منطقة الشريف بنجد ، والجزيرة الفراتية .

وكان له زوجة هي ابنةُ عمّه ، توفّيت قبله ، فكاد يخرجُ عليها من الدنيا وأشعاره الجياد كلّها فيها وفي وصفها وفي حياتها ومراثيها بعد موتها .

مُجْمل ترجمته في الأغاني لأبي الفرج (١٦ / ٣٠٧)

قال أبو الفرج : أبو حيّة شاعر مُجيد مقدَّم ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، وقد مدح الخلفاء فيها أجمع ، وكان فصيحاً مقصّدا راجزاً

---

(١) من التجمير أي التجميع ، لأنهم كانوا يتوافرون في أنفسهم ، ولا يدخلون مع غيرهم .

من ساكني البصرة ، وكان أَهْوَج جباناً بخيلاً كذّاباً ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقدّمه ، وقيل إنه كان يُصرع .

فترة حياته

وُلِدَ أبو حيَّة النميري في مطلع القرن الثاني للهجرة ، ومع أنّ الأصبهاني ذكر أنه مدح كل الخلفاء الذين كانوا في عصره ، فإننا لا نجد في شعره إلا مدحاً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة ، ولأبي جعفر المنصور .

وكانت لأبي حيّة صلة منافسة ، ومحادثات مع الشاعر ابن مناذر المتوفى سنة / ١٩٨ / هـ ، والراجح أن أبا حيّة مات قريباً من هذا التاريخ ، بحدود سنة / ١٨٥ / هـ ، ولكن ابن المعتز حدّد وفاته بسنة / ٢١٠ /هـ .

لوثة أبي حيّة

سئل الأصمعي عن مجنون ليلى ((قيس بن الملوّح)) فقال : لم يكن مجنوناً ، ولكن كانت به لوثة كلوثة أبي حيّة . واللَّوْثة : الحمق والهَيْج . واللُّوثة : الاسترخاء والبُطْء ومسّ الجنون . وقد جعله الجاحظ من مجانين الشعراء وعدّه أشعر الناس .

وكان لأبي حيّة سيف يسمّيه ((لعاب المنيّة)) ، ليس بينه وبين الخشبة فرْق ، فدخل إلى بيته في الليل كلب ، فظنّه لصّاً ، فانتضى سيفه ، وجعل يقول : أيُّها المغترّ بنا والمجترىء علينا ، بئس وا لله ما اخترت لنفسك ، خيرٌ قليل وسيف صقيل ، لعاب المنيّة الذي سمعتَ به مشهورة ضربته ، لا تُخاف نَبْوَتُه اخرجْ بالعفو عنكَ ، قبل أن أَدْخُلَ بالعقوبة عليك . إني وا لله إنْ أَدْعُ قيساً

إليكَ لا تقمْ لها . وما قيس ؟ تملأ وا لله الفضاء خيلاً ورَجِلاً ، سبحان ا لله ، ما أكثرَها وأطيبَها .

فبينا هو كذلك إذ خرج الكلب ، فقال : الحمد لله الذي مسخَك كلباً وكفاني حَرْباً . ولعل الذين وصفوه بالجبن نظروا إلى هذه القصّة . إذ ليس في سائر أخباره ما يدلّ على جُبْن .

كذبه

ذكر بعض المؤرّخين أنّ أبا حيّة كان كذّاباً ، أو أكذب الناس ، ويرون في ذلك قصصاً ، وكأنّ أبا حيّة كان يخلط جنونه بصَحْوِه ، وخيالِه ، فيشرُد في ابتداع تلك القصص التي منها ما حدّث به عن نفسه من أنّه كان يخرج إلى الصحراء فيدعو الغِرْبان فتقع حوله ، فيأخذ منها ما شاء . فقيل له : أرأيت إنْ أخرجناك إلى الصحراء فدعوْتَها فلم تأتِكَ ، فما نصنع بك ؟ قال : أبعدها ا لله إذاً .

وقال أبو حيّة : عنَّ لي ظبيٌ يوماً ، فرميتُه ، فراغَ (١) عن سهمي فعارضه السَّهْمُ ، ثم راغ ، فعارضَه السَّهم ، فما زال يروغ ويعارضه حتى صرعه ببعض الجبّانات .

وقال : رميتُ ظبيةً ، فلمّا نفذ سهمي عن القوس ذكرت بالظبية حبيبة لي ، فعدَوْتُ خلف السهم ، حتى قبضْتُ على قُذَذِهِ (٢) أنْ يدركَها .

---

(١) راغ : ذهب متلوّياً ، مُسْتخْفياً ، مُوارياً ، لئلا يُصاب .

(٢) قذذه : ريشه .

إعجابه بشعره

كان أبو حيّـة مُغـترّاً بنفسـه ، معجبـاً بشـعره ، سـليط اللسـان ، قاسـي الجواب . وقد عرف أبو عمرو بن العلاء ذلك عنه ، وكان يردعه ، على الرغـم من تفضيل أبي عمرو لشعره ، يقول الأصمعي : ((أنشد أبو حيّة النميري يومـاً أبا عمرو :

يالمعدٍّ وياللناس كلّهم　　　ويالغائبهم يوماً ومَنْ شهدوا

كأنّه معجب بهذا البيت ، فجعل أبـو عمـرو يقـول لـه :(إنـك لتعجـب بنفسك كأنّك الأخطل)) .

وإذا كان أبو حيّة قـد كـفّ لسـانه عـن أبـي عمـرو بـن العـلاء لمكانتـه وجلالة قدره ، فإنه يُطْلقُ لسانه في غيره في جواب مفحم ولسـان سـليط . فقـد لقي ابنُ مناذر أبا حيّة ، فقال له : أنشدْني بعض شعرك ، فأنشده :

ألا حَيِّ من أجلِ الحبيبِ المغانيا　　　لَبِسْن البِلَى ممّا لبسْنَ اللياليا

فقال ابن مناذر : وهذا شعر ؟ فقال أبو حيّة : مـا في شـعري عيـب هـو شَرّ من أنّك سمعتَه .

الشاعر الأمّي

أبو حيّة أقربُ إلى شعراء الجاهلية ، شعره شعر سليقة ، وملكـة موهوبـة ولكنه ليس بمثقف كالعتابي أو أبي تمام .

ولذلك لم يكن يعرف الحروف ، وقيل له يومـاً : ابْـنِ لنـا قصيـدة علـى القاف ، فقال :

كفى بالنأيِ من أسماء كافِ　　　وليس لحبّها إذْ طال شافِ

فلم يعرف القاف .

شاعر مجيد

أبو حيّة شاعر مجيد مقدّم مُحْسن فصيح له شعر جيّد ، مطبوع ، مألوف الكلام ، رقيق الحواشي ، وبالغ بعض المطّلعين على شعره فعدُّوه من أحسن الناس شعراً وأرقّهم فيه طبعاً وكان أبو عمرو بن العلاء يستحسن شعره ويرويه ويفضّله على شعر الراعي النميري ، ويقول : أبو حيّة النميري أشعر من الراعي .

وكان أبو حيّة ينزل بادية البصرة ، ويلمّ بها ويتردّد على المِرْبد ، ويلقى فيه الفرزدق وغيره من الشعراء ، وكان أبو حيّة مولعاً بشعر الفرزدق ، كثير الرواية عنه . ومن هنا حسن بعض شعره وجاد . وتمثّل به الناس ، وسار على الألسن ، لما فيه من فصاحة وجودة ورقّة وعذوبة . قال ابن المعتزّ ((ما رأيتُ ذكيّاً ولا عاقلاً ولا كاتباً إلا وهو يتمثّل من شعر أبي حيَّةَ بشيء)) .

آراء في بعض آثاره

تناول الأدباء والنّقّاد شعر أبي حيّة ، وتأمّلوا فيه ، فاستجادوا منه ما استجادوا ، وتمثّلوا بأبيات منه ، ووازنوا بينه وبين شعر غيره ، وقد بلغ الإعجاب بشعر أبي حيّة لدى أمثال ((هارون بن عليّ)) حدّاً لم ير شبيهاً ولا بديلاً لبيتيّ أبي حيّة :

نظرْتُ كأنّي مِنْ وراءِ زجاجةٍ ... إلى الدار مِنْ فَرط الصَّبابةِ أنظُرُ

بعينين طوراً تغرقان من البكا ... فأعشى . وطَوْراً تَحْسُرَان فأُبْصِرُ (١)

---

(١) تَحْسران : تنكشفان .

مرَّ بدار محبوبته ، فهملتْ عيناه من شدّة الشوق ، فصار ينظر إلى تلك الدار كما لو كان ينظرُ من وراء زجاج ، فلا تتّضح له معالمها ، بَيْدَ أنّ بكاءه كان أحياناً يتوقّف ، فتنجلي عيناه ، فيرى تلك المعالم .

ووصف الحصري أبا حيّة بقوله : ((من أحسن الناس شعراً ، وأرقّهم فيه طبعاً)) . ووقف على قصيدته :

ألا أيها الربْعُ القواء ألا انطقِ   سقتك الغوادي من أهاضيب فُوَّقِ (١)

فقال في القصيدة : ((هذا شعر ظريف الصنعة ، حسن الوشي والسَّبْك ، وقد ملح ما شاء في وصف الثَّغْر وطيب النكهة ، وهو معنى حسن جميل)) .

على أنّ أبا حيّة قد يسطو على آثاره غيره ، كما فعل حين قال :

وإنّا لممّا نضربُ الكبش ضربةً   على رأسه تُلْقِي اللسانَ من الفَمِ

فقد أخذه من بيت الفرزدق :

وإنّا لممّا نضربُ الكَبْشَ ضربةً   على رأسه والحربُ قد لاحَ نارُها

ومع أنّك ترى في شعر أبي حيّة لغة صافية ، وأسلوباً فصيحاً ، وقوّة وإبداعاً ، فإنّك ترى في بعض معانيه واستعمالاته اللغوية أحياناً شيئاً من خللٍ واضطراب ، وتفرُّد ، الأمر الذي يُعْهدُ في أشعار المجانين والحمقى .

---

(١) الربع : المنزل . القَواء : الخالي من أهله . الغوادي : جمع غادية ، وهي سحابة يهطل مطرها عند الغداة أي الصباح ، وفُوق : جمع أفوّق وفوْقاء ، وهو ما كان في طرفه ميل وانكسار .

أغراضه الشعرية

طرق أبو حيّة الموضوعات الفنيّة التي يجود فيها الشاعر ، وأكثرُ شعره وصف للديار وبيئة البادية ، وغزل بالمرأة وذكر لأيّام الصِّبا ، وأسفاره الشّاقّة على ناقة أمون جسرة ، ووصف لحيوان الصحراء ، كحمار الوحش والثور وصراعهما مع الصائد وكلاب الصيد ، وبقية الحيوان كالفرس والنعامة والأسد .

وأبو حيّة من شعراء المديح ، ولكنّه لا يطيل في أماديحه ، بل تأتي القصيدة الطويلة وفيها ما فيها من أغراض فنية ، ثم يفرد بيتين أو ثلاثة لذكر الممدوح وبيان خصاله ، وقد وصلَنا من مديحه الخلفاء قصيدة فيها ذِكْر لمروان ابن محمد ، وقطعة يمدح بها المنصور ، ويعرِّضُ ببني حسن ، ولديه بعض القصائد والمقطّعات في مدح بعض أعيان عصره الذين قلّما نجد ، لهم ذِكْراً في كتب التراجم ، من مثل : يزيد بن عتاب ، والوليد بن يزيد بن القعقاع ، وعمر ابن كعب .

ولأبي حيّة فخر بنفسه وبقومه ، وذِكْر لأيّام بني عامر ، ومنها يوم أود ويوم النشاش ، ويوم شعب جبلة .

لكن الموضوع الأوّل الذي برع فيه وأحسن وأجاد هو الغزل .

مدح يزيد بن عتاب بن الأصمّ بن مالك

قفا حيّيا الأطلالَ من مَسْقط اللّوَى وهل في تحيّاتِ الرُّسُومِ جَداءُ (١)

ومــاذا تحيّــي مــن رسومٍ تبدَّلتْ شعوبُ النَّوَى عنها وهنَّ قَواءُ (٢)

عــلاهُــنَّ بعـد الحيِّ كــلّ مُجَلْجِلٍ محــاهُــنَّ تيّــارٌ لـه وغُثــاء (٣)

وأقفــر واديهــن واحتـفَـرتْ بِه مكــانسَ عِينٍ باقــرٌ وظبــاءُ (٤)

إذا انـغمـستْ أولى النجوم تَلَعَّبتْ بــه قصبــاتٌ مُــزْنُهُـنَّ رَواء (٥)

كأنْ لم يكنْ فيها الجميع ولم تَضِحْ بهــم نيَّةٌ تُغْري الديار جَــلاءُ (٦)

بلــى ثـم أَجلَـتْ نيَّـةٌ ليس بعدها لِرَيّـا ولا أمّ البنيـــن لقـــاءُ (٧)

---

(١) مسقط اللوى : اسم موضع . واللوى : كثيب الرمل . الطلل : أثر الديار المندرسة ، ومثله الرسم . جداء : نفع .

(٢) النوى : البُعْد . شعوب : شُعَب ، قواء : خلاء .

(٣) بَعْدَ الحيّ : بعد رحيل ساكنيها . مجلجل : مطر مصحوب برعـد . تيـار : سيل أو رياح . غثاء : ما يطفو على سطح السيل مِنْ قشّ ونحوه .

(٤) مكانس : بيوت . عِيْن : بقر ، وغزلان ، لأنها واسعات العيون . باقر : بقر .

(٥) انغمست : غارتْ . مُزْنٌ : سُحب . رواء : وافية تَرْوي . نبـت القصَـب مـن كـثرة المطر ، فإذا هبّت عليها نسائم السَّحَر تحرَّكتْ .

(٦) لم تَضِحْ : لم تتّضح . جَلاء : واضحة . لقد كانَ فيهـا كـلّ أهلهـا ، حتـى صحَّـتْ عزيمتهم على الرحيل ، ومغادرة الديار إلى حيثُ الكلأ والماء .

(٧) لما صحّت نية القوم على الرحيل حملوا معهم ريّا وأمّ البنين ، وذهبوا بهمـا مَذْهبـةً لم يَعُدْ في مُكْنة الشاعر أن يلتقي بهما .

تذكّرتُ عصراً قد مضَى وصحابةً

ولم تَكُ عمّا قد ذكرتُ عـداءُ (١)

ليـالـيَ تنآها ولو شئـتَ زُرتَها

وكيف مع الواشي المُطِلّ تشاء (٢)

إليـكَ ابنَ عتَّابٍ رحلْنـا ، وسـاقَنـا

من الغَوْر جَدْبٌ مُوْصَدٌ وعَداءُ (٣)

وعـامٌ كحـدّ السَّيْـفِ أمـا ربيعُـه

فنحـرٌ ، وأمّـا قيظُـه ففَناء

بمُعْصَوْصِبَاتِ السِّبْر صُعْر من البُـرَى

خَواضِعُ أدنى سَيْرِهِنّ نَجـاءُ (٤)

يزرن ابنَ عتّابٍ ويرجون فِعْلَهُ

إذا حانَ من حاجاتهنّ قضـاءُ

---

(١) بات يتذكّر خاليَ أيّامه مع مَنْ رحلوا ، وما كان له معدَى ولا مَفرّ عن ذاك التذكّر.

(٢) يتذكّر خليلته ، وكيف كان لا يواصلها ، ويقول : كان يستطيع أن يواصلها ، وما منعه إلا الرقباء واتّقاء الوشاة . تنأى : تبتعد .

(٣) الغور : المطمئنّ من الأرض . قصدوا يزيد بن عتاب ، وكان أصاب ديارهم قَحْط شامل ، ووقع عليهم من جيرانهم عُدْوان ، وإجحاف .

(٤) مُعْصَوصِبات : شديدات . السِّبْر : الهيئة . صُعْر : جمع أصعر ، وهو الجمل المائل العنق . البُرَة : حلقة من نحاس تجعل في لحم أنف البعير . السير النّجاء : السريع .

يَـزُرْنَ جنـــابيـــاً أغـــرَّ كـــأنَّـــه سـنـــا البَدْرِ فيه للظَّلامِ جلاءُ (١)
وجدنا قِراكـــم في حيـــاضٍ رغيبةٍ وهـــنَّ علـــى رُغْبٍ بهنَّ مِلاءُ (٢)
بناهنَّ عتَّـــابٌ وأوصـــاكَ بعـــدَه بهـــنَّ فلم يُهْدَمْ لهنَّ بنـــاءُ (٣)
علاليُّ من سَعْيِ الأصمِّ بنِ مالـــكٍ وكلُّ الـذي أسدَى الأصمُّ سَنَاءُ (٤)
إذا ضِيمَ قومٌ أو أقرُّوا ظُـــلامـــةً نفـــى الضَّيْمَ عنكم عِزَّةٌ وإباءُ (٥)
وقمتُمْ بأسيافٍ حـدادٍ وألْسُـــــنٍ طـــوالٍ وأرمـــاحٍ بهنَّ دِمـــاءُ (٦)
وما قادكم يوماً مـن الناس معشرٌ ومـــا زال فيكـــم قائد ولـــــواءُ
إذا سارَ قوم للعُـــلا سرْتَ فوقَهـــم إلى شَرفاتٍ ما بهـــنَّ خَفـــاءُ (٧)
بلغتـــم نجـوم الليل فضلاً وعزةً ومجداً ، فأنتم والنجومُ ســـــواءُ

---

(١) جنابياً : سخيّاً . أغرّ : أبيض الوجه . سنا البدر : ضوءُه . فيه للظلام جلاء : يبدّد نورُه الظلام . جَلاء : كشف .

(٢) رغيبة : عظيمة . رُغْب : سعة . ملاء : ممتلئة .

(٣) عتاب : والد الممدوح .

(٤) العلاليّ : جمع عُلّيَّة ، وهي الغرفة في الطبقة الثانية من الدار ، وما فوقها . الأصمّ : اسم جدّ الممدوح (يزيد بن عتّاب بن الأصمّ بن مالك) . سناء : مجد وشرف .

(٥) ضِيم : أُذِلّ . ظُلامة : مَظْلمة . أقرّوا ظُلامة : اعترفوا أو شَكَوْا من جَوْر وقع عليهم.

(٦) حداد: حادّة .

(٧) شرفات : أماكن عالية . قومه أعلى ذوي العُلا . سبّاقون إلى كل مكرمة ، ومقامٍ سامٍ .

وقال أبو حيّة (غزل ووصف وفخر) :

ألا حيِّ أطلالاً لهنّ دُثُـورُ كأنَّ بقايا عهدِهنّ سُطورُ (١)

ديارُ التي قالت لو انّك زُرتَنا وُصِلْتَ . ولكنْ لا نراكَ تزورُ (٢)

فقلْتُ عداني أنّ أهلكِ ظِنّةٌ عليَّ ، وأني قدْ عَلِمْتِ شَهيرُ (٣)

ألا حبَّذا الماءُ الّذي قابَلَ النّقا ومرتَبعٌ من أهلِنا ومَصِيرُ (٤)

إذْ الرأسُ أحوى حالكُ اللون يَرتَدي جَناحَيْه ، إذْ غصنُ الشباب نضيرُ (٥)

وبِتْنا كأنّا بيّتَتْنا لطيمةٌ أتتْنا بها من سوقِ أبْيَنَ عِيرُ (٦)

وتيهٍ تخطّتْها بأكوار صُحْبَتي نواهزُ في أعناقهنّ نذورُ (٧)

---

(١) دَثَر المنزل دُثوراً : بَلِيَ وتهدَّم . يسلِّم على آثار منزل محبوبته ، ويشبّه تلك الآثار بالكِتابة .

(٢) وُصِلْتَ : أُنِلْتَ الوِصال .

(٣) عَداني : صرفني وشغلني . ظِنّة : مرتابون منه .

(٤) النقا : منقطع الرَّمْل . مرتبع : منزل ، محلّ ، مرعى . مصير : مآل .

(٥) أحوى : أسود ، غير أشيب . يرتدي جناحيه : غير ساقط الشعر .

(٦) لطيمة : عطر . أَبْيَن بلدة في اليمن . عِير : جمال .

(٧) تيه : صحراء مضلّة . الكور : الرحل يُنْصب فوق الناقة . نَهز : نهض ، النذر : ما يوجبُه المرء على نفسِه من صدقة أو عمل . قطعت النوق تلك المفازة ، وهي تحمل على أكوارها القوم ، ونهضتْ أو قامت بقطع الصحراء ، وكأنّما ذلك كان نذراً عليها يجب الوفاء به .

كذي رمَلٍ فرْدٍ رمتْه عشــيّـــةٌ	لها سَبَــلٌ مســتقبلٌ وصَبِيرُ (١)
فلمــا انجلتْ عنه غيـاطِلُ ليلةٍ	مــن الدَّجْن فيها حثَّة وفتورُ (٢)
غدا عنْويَّ فــوق عينيه شِكَّـةٌ	كلا مِغْولَيْهِ اللّهْذَمَيْنِ ضريرُ (٣)
وغاداه من جِلان نئبُ مجـاعةٍ	شقيٌّ به ضـارورةٌ وفُقُــورُ (٤)
وأبْلَخَ عـاتٍ لا يــؤدّي أمانــةً	عليه ، ولاقـــاه عليـه أميرُ (٥)
أقمتُ الصَّغَـا وأخدعيه بضربةٍ	لها تحتَ بينِ المَنْكِبَيْنِ هَدِيرُ (٦)

---

(١) الرَّمَل : السَّيْر السريع . يتحدّث عن ثور وحشيّ ، سريع العَـدْو ، هطـل عليـه مطرٌ عند المساء ، متجّه إليه من ناحية الجنوب الغربي ، وكان يصحبه بَرْد .

(٢) غياطل : ظلمات . الدَّجْن : الغيم . حَثَّةٌ : مطرٌ متتابع . فتور : مطرٌ متقطّع .

(٣) العذوي : المزارع ، شكّة : سلاح . المغول : السيف الدقيق . اللهذمي : القاطع .

(٤) غاداه : باكره . جلّان : اسم موضع . ضارورة : اعتياد على أكـل اللحـم . فقـور : هُموم ، وحاجة إلى الافتراس .

(٥) بَلِخَ : تكبَّر ، وجرؤ على الفجور ، فهو أبلخ . عاتٍ : متجبّر . لاقـاه عليـه أمـير : سبق أن عاقبه أحد الأمراء لعدم أدائه الأمانة .

(٦) الصَّغا : الميل والاعوجاج . الأخدعان : عرقان في جانبي الرقبة . هدير : صوت الدم المتدفّق .

رثاؤه لسلمة بن عيَّاش

كـــأنّ أبــا حفـص فتى البأس لم يَجُبْ
بـــه الليـــلُ والبيـضُ القـلاصُ النَّجـائــبُ (١)

إلى الغاية القصوى ، ولم تهـــدِ فتيــةً
كراماً ، وتخطوه الخطـــــوب النـــوائـــبُ (٢)

ويُعْمِلْ عتـــاقَ العيس حتى كأنّهـــــا
إذا وُضعت عنها ألوَلايـــا المشـــــاجـب (٣)

بعيد مَثاني الهـمّ يُمْســـي ومالـــــه
ســـــوى اللهِ والعضْب السَّرِيحيّ صاحبُ (٤)

يـــروم جَسيمـاتِ العـــلا فينالُهـــا
فتـــى في جسيمـــات المكـارم راغـــبُ (٥)

فـــإنْ يُمْـسِ وحْشــاً بــابــه فلربَّمـا
تــواتـــرأفـــواجــاً إليــــه المــواكـــبُ (٦)

---

(١) لم يجبْ : لم يَطُفْ . وأسندَ عدم الجَوْب إلى الليل مجازاً علاقته الزمانيّة .
البيض : النوق . القلاص : السريعة . النجيبة : القوية .

(٢) تخطوه : تتجاوزه .

(٣) العتاق : الكريمة . العيس : النوق البيض . الولايا : جمع وليّة ، وهي البَرْذعة ، وكلّ ما ولي ظهر البعير من كساء أو غيره . المشاجب : عيدان تعلّق عليها الثياب . يقول : إنه يكثر الأسفار على تلك النوق حتى يصيبها النحول وتصبح كعيدان المشاجب .

(٤) مثاني الهمّ : الهمّ الكبير المضاعف . العضب : السيف القاطع . السّريحي : الماضي السريع .

(٥) جسيمات : عظائم .

(٦) وحْشاً بابه : لا يقصده أحد . تواتر : أتى بشكل جماعي .

يحيّـون بسّـامـاً كـأنّ جبينـه
هـلالٌ بـدا وانجاب عنه السحـائـبُ (١)
وما غائبٌ مَنْ غاب يُرْجَى إيابُـه
ولكـنّـه مَـنْ ضُمِّـنَ اللَّحْـدَ غـائـبُ (٢)

خاتمة

في شعر أبي حيّة شيءٌ مـن القيمـة الأدبيـة ، والـثروة اللغويـة ، والشـعر العفوي المنبثق عن الفطرة والملكة الموهوبة ، والسَّليقة التي تقول الشعر بالبداهـة ولكنّ لوثة أبي حيّة انعكست بصورة واضحة في شعره ، وأورثتْ قارىء آثـاره – أو بعض آثاره بعبارة أدقّ – مصاعب مُرْهقة ، ، وهي مصاعب زادها إغرابُه البالغ ، وغموض انتقالاتـه ، ومـا أكـثر أن يبحـث القـارىء عـن معـاني بعـض ماساقه من أوابد الكلمات فلا يظفر بها في أي معجم لغويّ ، وكأنّ هـذا الأمـر كان سبب إعراض محقّق شعره وجامعه ((الدكتور يحيى الجبوري)) عن شـرح غوامضه ، واكتفى بشرح ما لا يتجاوز المعشار منه فقط ، ولـو كـان في مُكْنته أن يتمّ ما بدأ به لَمَا قصّر ، فهو عندما جمع شعر النعمان بن بشير رضي الله عنـه وحقّقه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا شرحها . لكنّه اضطرّ أن يتوقّف مع أشـعار أبي حيّة ، وإنّما نشرَها بسبب طرافتها ، إذْ قد تتسـاءل النفـس : كيـف تكـون أشعار النّوْكى (٣) ، والمجانين ؟ .

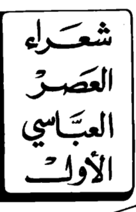
---

(١) انجاب : زال .

(٢) ضمّن اللّحْد : أودع القبر .

(٣) النّوكى : الحَمْقَى .





مروان بن أبي حفصة



إعداد وشرح
لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُورِيَة - حَلَبْ - خَلفَ الفُنْدُقِ السِّياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٢١٢٣٦١ ،٠٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه ومنشؤه

هو مروان بن يحيى بن سليمان بن يزيد ، وكنية يزيد أبو حفصة وكان أبو حفصة من خراسان ، فأسلم ، وكان مولى لمروان بن الحكم وَهَبَهُ له عُثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويقال إنه أبلى في الدفاع عنه حين حوصر في داره وقُتل ، فأعتقه مروانُ جزاءَ بلائه ، ولما وليَ مروان بن الحكم المدينة المنوّرة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ولّاه على خراج اليمامة ، وهناك تزوّج من امرأة عربية ، فأنجبت له ولداً سمّاه يحيى ، وهو جدّ مروان بن أبي حفصة وكان يحيى شاعراً ، وكان ابنه سليمان شاعراً ، وكان حفيده مروان بن سليمان بن يحيى شاعراً .

نشأ مروان في اليمامة ، حيث استقرّت أسرته ، وجرَى الشعر على لسانه مبكّراً ، وكان مولده سنة / ١٠٥ / هـ . وهذا يعني أن لمروان أشعاراً كثيرة قبل سقوط دولة بني أميّة عام / ١٣٢ / هـ ، غير أنّ اسمه لم يلمع إلا في الدولة العبّاسيّة .

أهمّ من مدحهم

من أشهر الذين مدحهم مروان بن سليمان الخليفة المهدي ، وقد أُعْجب بمدائح مروان ، التي لم تكن تتحدّث عن كرم الخليفة وشجاعته الكريمة فحسب بل جنَحت أيضاً للمديح السياسي ، إذ دافع عن حقوق العباسيين في الخلافة وردّ على خصومهم وما يدّعونه من هذه الحقوق ، ولعلّ شاعراً لم يبلغ في هذا

الدفاع مبلغه ، إذْ كان يعرفُ كيف ينقضّ على منافسي العباسيّين ، على نحو ما نرى في قوله :

هل تطمِسُون من السَّماءِ نجومَها	**بأكفكم أو تستُرون هلالَها**
أو تجحَدُون مقـالـةً عن ربِّكـم	**جبريلُ بلَّغها النبيَّ فقالها**
شهِدَتْ من ((الأنفال)) آخرُ آيـةٍ	**بتُـراثِهم ، فأردتُم إبطالَها**

وهو يريد بآية الأنفال قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا من بَعْد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولو الأرحام بعضُهم أولى ببعضٍ في كتاب الله ، إنّ الله بكلِّ شَيْءٍ عليم ﴾ .

يشير بذلك إلى حقّ العباسيّين في وراثة الخلافة ، وأنَّهم مقدَّمون في هذا الحقِّ ، لأنّهم أعمام ، والأعمام مقدَّمون في الوراثة على الأسباط .

وقد أعجب المهدي بالقصيدة السالفة أيَّما إعجاب ، وبلغ مِنْ فَرْط إعجابه أنْ سأل : كم عدد أبياتها ؟ فقال مروان : مئة ، فأمر له بمئة ألف درهم وكانت أوّل مئة ألف درهم أخذها شاعر في أيام بني العباس . ومضى مروان يردّد في مديحه للمهدي هذا الدفاعَ السياسي عن حقّ العباسيين في وراثة الخلافة وهو يُغْدق عليه من عطاياه الجزيلة ، ومن قوله أيضاً في هذا المِضْمار :

يا بنَ الذي ورثَ النبيَّ محمداً	**دونَ الأقاربِ من ذوي الأرحامِ**
الوَحْيُ بين بني البناتِ وبينكم	**قَطَعَ الخصامَ فَلاتَ حينَ خِصَامِ**
ماللنساءِ مع الرجالِ فـريضـةٌ	**نـزلـتْ بذلك سـورة الأنعـامِ**
أنّى يكـونُ وليـس ذاك بكـائنٍ	**لبنـي البنـاتِ وراثـةُ الأعمـامِ**

ومنذ اتّصاله بالمهدي طَفِقَ يمدح الخلفاء ومَنْ والاهم ، وهم ينهالون عليه عطاءً غدَقاً ، فمدح بعد المهدي ولديه الهادي والرشيد ، ومدح البرامكة

لكــنّ جــلّ مدائحه كـانت في والي اليمـن ثـم سِجِسْتان ((معـن بـن زائـدة الشيباني)) .

المال عند مروان

مروان شاعر كبير أصاب شهرة واسعة ومالاً كثيراً عن طريق شعره الذي وقفه على المديح دون غيره من أغراض الشعر إلا في حالات قليلة جداً من رثاء أو وصف .

وربح مروان بن أبي حفصة من شعره ما لم يربحْه شاعر آخر من شعراء العربية ، حتى كان يتقاضى من بني العباس ألفَ درهم على كلّ بيت من الشعر يقوله فيهم ، هذا فضلاً عن الأموال الضخمة التي حصل عليها من معن بن زائدة في حياته ، ومن ولده شراحيل بعد مماته .

مع ذلك كان مروان متواضعا في لباسه ، يزْهد في الثياب النفيسة فَيَصِلُ إلى باب المهدي وعليه فَرْوُ كبش ، وقميص خَشِنٌ ، وعمامة مصنوعة من كرْباس ، وهو قماش خشن رديء ، وخف رخيص ، وكساء غليظ .

قيمة العطاء

يُكثر مروان بن أبي حفصة في مدائحه من الإشادة بخصلة الجود والعطاء عند ممدوحيه ، فهو يقول :

له راحتانِ : الجودُ والحتفُ فيهما أبى الله إلا أنْ تُضُرًا وتنفعا

ويقول :

هم القومُ إنْ قالوا أصابوا ، وإنْ دُعُوا

أجابوا ، وإنْ أعطَوْا أطابوا وأجْزَلُوا

ويقول :

لا تعطِمــوا راحتَــيْ مَعْـنٍ فـإنّهمـا ... بالجود أفْنَتـا يحيى بنَ منصورِ

لمَـا رأى راحتَـيْ معـن تـدفّقتــا ... بنـائـل مِنْ عطاءٍ غير منزورِ

ألقى المسوحَ التي قد كان يَلْبَسُهـا ... وظَلّ للشّعرِ ذا رَصَفٍ وتَحْبِيـرِ

ويقول :

إنّ مَعْنـاً يحمـي الثغـور ويُعْطـي ... مـالـه في العُـلا وأنـتَ كذاكا

لكَ مِنْ فَضْـلِ بأسِه يُعْرَفُ البَأس ... كمـا مِـنْ نـداه فضلُ نـداكـا

وفي الرثاء يقول أيضاً :

أقَمنا باليمامةِ بعد مَعْـنٍ ... مُقـامـاً لا نريدُ به زَوالا

وقلْنا أين نَرْحَلُ بعد معنٍ ... وقد ذهبَ النّوالُ فلا نَوالا

وذِكْرُ مروان لهذه الخصلة في ممدوحيه ، وفي رثائـه ، وتواضعُـه في لباسـه وبعضُ قصص تُعْزَى إليه تنطوي على البخل ، ممّا يدلّ على حبّه للمال وتمسّـكهِ وضنّه به في نظر قليل ممّـن درسـوا حيـاة هـذا الشـاعر . ولكـن هـذه المسـألة في حاجة إلى تحقّيق .

بداية اتصاله بالمهديّ

دخل مروان بن أبي حفصة على المهـدي ، بعد وفـاة معـن بـن زائـدة فقال له المهدي : ألستَ القائل :

أقمنا باليمامةِ بعد مَعْـنٍ ... مُقـاماً لا نـريــدُ به زوالا

وقلْنا أينَ نرحلُ بعد مَعْنٍ ... وقد ذهب النّـوال فلا نوالا ؟

لقد ذهبَ النّوالُ فيما زعمتَ ، فلِمَ جئت تطلبُ نوالَنـا ؟ لا شيء لـك عندنا ، ثم أمر به فجُرّ برجله حتى أُخرج . هنالك ألّف قصيدة يدافع فيهـا عـن

حقّ العباسيين في الحكم ، ودخل على المهدي في العام التالي في مجموعة الشعراء الذين كان الحكّام العباسيون يفتحون لهم أبوابهم مرَّة في كلّ عام ، وأنْشَدهُ قصيدته :

طرقتْكَ زائرةً فحيِّ خيالَها   بيضاءُ تخلِطُ بالجمالِ دَلالَها

وعرَض الفِكْرةَ العباسيّة في الحُكْم ، وقد تقدّمت الأبيات التي تعبّر عن تلك الفِكْرة ، فأعجب بها المهدي ، وأثابه مالاً كثيراً . وهذا يدل على أنّه كان ذا فطْنةٍ في اقتناص الهِبَات والمِنَح ، ساعدتْه على ذلك قدرته الشعرية وصناعته المستأنية ، فعوّض ما فاته في العام السابق .

موقفه من بني أميّة

سأل الرشيدُ مروانَ بن أبي حفصة : هل دخلْتَ على الوليد بن يزيد ؟ قال مروان : دخلتُ مع عمومتي إليه . قال الرشيد : فأخبرني عنه . فأصاب مروانَ حرجٌ في القول وجعل يتزحزح في مجلسه . فطمْأَنَهُ الرشيد ، وقال له : إنّ أمير المؤمنين لا يكره ما تقول ، فقل ما شئت . فقال : يا أمير المؤمنين كان من أجمل الناس وجهاً ، وأشدّهم قوّة ، وأشعرهم ، وأجودهم ، دخلت عليه مع عمومتي ولي لمّة فينانة (١) ، فجعل يغمز القضيب فيها ويقول : ولدتْك سُكّر (٢) .

ومن شعره في بني أُمَيَّة :

بنو مروانَ قومٌ أعتقوني   وكلُّ الناس بعدَهم عبيدُ

---

(١) لمّة فينانة : شعر كثيف .

(٢) سُكّر : إحدى جدّات مروان بن أبي حفصة .

ويبدو أن مثل هذا القول – لولا حَيْفُه في الشطر الثاني يدلّ على وفاء مروان بن أبي حصفة ، فهو قد حفظ صنيعة بني أمية إذْ أحسنوا إليه ، وأشاد أيضاً بصنائع مَنْ أسدَوا إليه معروفاً من العباسيّين .

حال الجريض دون القريض (١)

قال مروان بن أبي حفصة : دخلتُ أنا وطريح بن إسماعيل الثقفي والحسين بن مطير الأسدي في عِدّة من الشعراء على الوليد بن يزيد ، وإذا رجلٌ كلّما أنشد شاعر شعراً وقفَ الوليد على بيتٍ منه (٢) ، وقالَ : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من شعر فلان . فقلت : مَنْ هذا ؟ قيل : حمّادٌ الراوية . فلما وقفتُ بين يدي الوليد لأنشده قلتُ ما كلامُ هذا (يعني حماداً) في مجلس أمير المؤمنين ، وهو لحّانة (٣) فتهافت الشيخ (حماد) – أي سخر ضاحكاً – ثم قال : يا بن أخي أنا رجل أكلّم العامّة ، وأتكلّم بكلامها فهل تروي من أشعار العرب شيئاً ؟ فذهب عني الشعر ، إلا شعر ابن مقبل . فقلت : نعم ، لابن مقبل ، فأنشدتُه :

سل الدارَ من جنبَي حِبِرٍ فواهبٍ … إلى ما رأى هضْبَ القليبِ المُضَيَّحُ (٤)

---

(١) مثل يُضرب لأمر يعوق دونه عائق ، والجريض : الهم والخوف .

(٢) كان هذا الرجل – وهو حماد الراوية – ناقداً حافظاً للشعر ، فكان يشرح للوليد بعض السرقات الأدبية .

(٣) لحّانة : يخطىء كثيراً في اللغة .

(٤) المضيّح : الـذي نُضِحَ معظم مائه ، وبقيت فيه بقيّة كَدِرة . ولكنّه هنا اسم ماء (مورد ماء) لبني البكاء . مثل هضْب القليب ، فهو ماء لبني سليم ، وحبر وواهب : جبلان لبني سليم .

ثم جُزْت (تابعْتُ الإنشاد) ، فقال : قفْ ، مـاذا يقـول ؟ فلـمْ أدْرِ مـا يقول ؟ فقال : يا بـنَ أخـي ، أنـا أعلـمُ النـاس بكـلام العـرب . يقـال : تـراءى الموضعان إذا تقابلا)) .

وكان الأصمعي يَعُدّ مروان بن أبي حفصة مولَّداً لا علمَ له باللغة . هـذا مـــع أنّ دراسـي شِعره في زماننـا يشـيدون بشـعره ، وهـذا الأمـر يلفـت إلى ظاهرتين :

الظاهرة الأولى تعصّب أسلافنا للشعر القديم ، فلم يكـن محـلَّ ثقتهـم إلا ما قيل قبل سنة / ١٥٠ / هـ . وعدُّوا ما بعده مولّداً مُحْدَثاً بعيـداً عـن الأصالـة اللغوية ، يشوبه اللَّحْن . وكثـير مـن شـعر مـروان قالـه بعـد عـام / ١٥٠ / هـ والظاهرة الأخرى أننا لطول عهدِنا بالأساليب ((المولَّدةَ)) ألفناها ، فصار يبدو مثلُ شعر مروان حِيالَها شعراً ممتازاً .

على أن دخول مروان بن أبي حفصة على الخليفة الوليد بن يزيد الأموي إنّما كان لينشده بعضَ ما دبَّجه فيه من مدائح ، لكنّ الكتـب لم تحتفـظْ بشـيء من أشعاره فيه وكأنّما كان ذلك دَرْءاً لسخط العباسيين ، فـأعرض مـروان عـن رواية ما قاله في بني أمية ، وتُنوسي مع الأيّام .

رواية عن أوّل شعره في معن بن زائدة

زعموا أن أوّل قصيدة مدح بها ((مَعْناً)) ليست مِنْ شعره ، وإنّما هي لرجلٍ من اليمامة كان ينشدها بين جماعة من النـاس ، وكـان ذلـك الرجـل قـد أعدّها ليمدح بها مروان بن محمد آخر خلفاءِ الأمويـين ، غـير أن ذلـك الخليفـة قُتل قبل أن ينشده إياها ، وفيها يقول :

مـروانُ يـا بنَ محمّـدٍ أنتَ الذي زيـدتْ بـه شـرفـاً بنو مروانِ

فأعجبت القصيدة ابن أبي حفصة ، فأمهل صاحبها حتى قام من مجلسه ثم أتاه في منزله ، وعرض عليه شراءها منه بثلاثمائة درهم ، فوافق ، فحلّفه مروان ألا ينشدها ، ولا يعود ينسبها لنفسه ، ثم غَيَّرَ منهـا أبيـاتاً وزاد فيها وجعلها في معن ، وصار البيت المذكور آنفاً :

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً إلى شرف بنو شيبان

وبهذه القصيدة نال مروان رِفْدَ معن ، وأصاب غنى وشهرة واسعتين .

وهذه الرواية منقولة في الأغاني لأبي الفَرج ، وهي رواية تنطوي على ما يثير التسـاؤل : كـيفَ يحلّفـه ألا ينسبها لنفسه بعدما أنشدها ((جماعة مـن الناس)) ؟ هل تبقى صفقته سرّيّة ؟ لكنّ أبا الفـرج يضمر عـداوةً لبـني العباس وشعرائهم . ومـن هنـا لا تخلو كتابته مـن مثل هـذه الوخزات الـتي لا تثبت للتحقيق العلمي المتجرّد .

ويُقال إن معن بن زائدة دخل على أبي جعفر المنصور ، فقال له : يا مَعْن ، أَعْطيت ابن أبي حفصة مائة ألف درهم عن قوله فيك :

معـنُ بن زائدة الذي زيدتْ به شرَفاً إلى شرَفٍ بنو شيبانِ

فقال معن : كلا يا أمير المؤمنين ، ولكنْ لقوله :

ما زلْتَ يومَ الهـاشميّـةِ مُعْلَماً بالسّيف دونَ خليفةِ الرحمنِ

يشير إلى معركة مصيرية خاضها المنصور بشخصه ، وذبّ عنه ببأس نـادر معـنُ بن زائدة ، فاستـحيا المنصور عندما سمع جواب معن ، وتبسَّم وقال : أحسنْتَ يا معن في فِعْلِك .

من لاميّته في معن بن زائدة

تجنّبَ ((لا)) في القولِ حتّى كأنّــه حرام عليه قولُ ((لا)) حين يُسأَلُ

تشــابـهَ يــوماه علينــا فــأشـكـلا فلا نحن ندري أيُّ يومَيْه أفضـــلُ

أيــوم نــداهُ الفخـــرُ أم يــوم بُؤسِه ومـــا منهمـــا إلا أغرُّ مُفَضَّلُ (١)

بنـــو مطــرٍ يــومَ اللقـــاءِ كـأنّهمْ أسودٌ لها في بَطْنِ خَفَّانَ أَشْبُلُ (٢)

هــمُ يمنعــون الجـــارَ حتى كأنّما لجارهــمُ بينَ السِّماكَيْنِ منزلُ (٣)

لها ميمُ في الإسلام سادوا ولم يكنْ كـأولهــمْ في الجـــاهليّـة أوّلُ (٤)

هم القومُ إنْ قالوا أصابوا وإنْ دُعُوا أجـابـواوإنْ أعطَـوا أطابوا وأجزلوا

ومـــا يسـتطيــعُ الفــاعلون فِعالَهمْ وإنْ أحسنـــوا في النائبات وأجملوا

ثَــلاثٌ بــأمثـــال الجبـالِ حِبــاهُـــم وأحلامُهم منها لدى الوزنِ أثقلُ (٥)

قصيدة أخرى في معن

ولمّا سرى الهمُّ الغـريبُ قريتُه قِرَى من أزال الشَّكَّ عنه وأزمعا (٦)

عزمتُ فعجّلْت الرحيلَ ولـم أكنْ كذي لُوثةٍ لا يُطْلع الهمَّ مَطْلَعـــا (٧)

---

(١) النّدى : الكرم . أغرّ : أبيض

(٢) بنو مطر : قوم معن بن زائدة . خفّان : مأسدة قرب الكوفة . الشبل : ولد الأسد .

(٣) السّماك : السماء .

(٤) اللّهاميم : جمع لهميم ، وهو السابق الجواد .

(٥) ثُلاث : تُخْلط ، تتشابه . حباهم : عطاياهم .

(٦) السرى : السير في الليل . القرى : طعام الضَّيف . أزمع : أسرع ، وعزم ، وجدّ .

(٧) لوثة : استرخاء وحماقة واختلاط . لا يطلع الهمّ مطْلعــاً : لا يُحْسِن التصرّف ، ولا يعرف كيف يحقّق ما يعزم عليه .

فأمّــتْ ركابي أرضَ معنٍ ولم تزلْ

إلى أرضِ مَعْنٍ حيثمــا كــان نُـزَّعا (١)

فما بلغتْ صنعــاءَ حتى تواضعتْ

ذُراهــا ، وزأَلَ الجهـلُ عنها وأقلعا (٢)

وما الغيثُ إذْ عمَّ البـــلادَ بصَوْبِـه

على الناس من معروف معن بأوسعا (٣)

تــداركَ مَعْـنٌ قُبَّــةَ الـدِّيْنِ بعدَما

خشِــيْنا على أوتــادِها أنْ تُنَـزَّعا (٤)

ومـــا أحجـمَ الأعــداءُ عنكَ بقيّةً

عليــكَ ولكــنْ لم يــرَوْا فيكَ مَطْمَعا (٥)

رأوا مُخْــدِرا قـد جرَّبـوهُ وعاينوا

لــدى غيلِــه منهـم مَجَراً ومصرَعا (٦)

وليس بثانيه إذا شَـــدَّ أنْ يــرَى

لــدى نَحْـرِهِ زُرْقَ الأسنّـةِ شُــرَّعا (٧)

له راحتانِ ، الحتْفُ والغيثُ فيهما

أبَــى اللهُ إلا أنْ تَضُــرَّا وتنفَعـــا (٨)

---

(١) أمَّتْ : قصدتْ.نزع إلى الشيء : هفا إليه وسعى إليه .

(٢) الذرى : الأسنمة .   (٣) صَوْب الغيث : هطوله .

(٤) أوتاد : دعائم ، مثبّتات . تُنزَّع : تُخْلَعُ .

(٥) لم يعرضْ عنه أعداؤهْ إبقاءً على حياته ، وإنّما اجتناباً لصَوْلاتِه .

(٦) مُخْدر : أسد . الغيل : موضع الأسد . مجَرّ : اسم مكــان مـن جَـرّ ، أي أثـر سـحبه لفريسته .

(٧) ثناه عن الشيء : صده عنه . الأسنّة : الرماح . شرّع : مصوَّبات إليه .

(٨) الحتف : الموت والفناء .

رثاء مَعْن بن زائدة

كان معن من أحْلَمِ الرجال ، وأشجعهم ، وأسخاهم يداً ، وأكملهم نَعْتاً ، دُسّ عليه أعرابي يستغضبه ، فأتى بكل جَلافة ، وثقل ، فما استطاع فخرَج من عنده وهو يقول :

سألتُ اللهَ أنْ يُبقيكَ نخراً فما لكَ في البريّة مِنْ نظيرِ

مات معن ، فقال مروان بن أبي حفصة :

يا مَنْ بمطلع شمسٍ ثُمَّ مغربِها إنّ العطاءَ عليكم غيرُ مردودِ (١)
قل للعُفاة أريحُوا العيسَ مِنْ طلَبٍ ما بعدَ مَعْنٍ حليفِ الجود مِنْ جُودِ (٢)
قل للمنيّة لا تُبقي على أحدٍ إذْ ماتَ معنٌ فما ميْتٌ بمفقودِ (٣)

وقال مروان في مرثية أخرى له في معن :

مضَى لِسبيلِه مَعْنٌ وأبقى مكارمَ لن تبيدَ ولن تُنالا
كأنّ الشمسَ يومَ أصيبَ مَعْنٌ من الإظلام مُلْبسَةٌ جِلالا (٤)
هو الجبلُ الذي كانتْ نزارٌ تهدُّ من العدوّ به جبالا (٥)
تعطّلت الثُّغورُ لفَقْدِ مَعْنٍ وقد يُرْوِي بها الأسَلَ النّهالا (٦)
وأظلمت العراقُ وأورثتْها مصيبتُه المجلّلةُ اختلالا (٧)
وظلّ الشّام يرجُفُ جانباهُ لركن العزّ حين وَهى ومالا (٨)

---

(١) يخاطب الذين كانوا ينالون من عطايا معن من أهل المشرق والمغرب بأنّ عطاءه توقّف بسبب موته . (٢) العفاة : طالبو معروفه . العيس : النوق البيض .

(٣) مات معن ، فأيّ مصيبة في غيره يسيرة .

(٤) الجلال : ما يوضع على ظهر الدابة من مفرش يريح الراكب . كأن الشمس مغطّاة ، والدنيا مظلمة . (٥) مَعْن طود عظيم لا يضاهى به سواه ، كان مفخرة لقبائل شيبان النزارية . (٦) الثغور : مواضع المواجهة مع العدوّ . الأسل : الرماح . النّهال : العطاش . (٧) المجلّلة : العظيمة . اختلال : اضطراب .

(٨) وهى : ضعف .

وكادتْ مِنْ تِهامةَ كلُّ أرضٍ ... ومنْ نجد تزولُ غداةَ زالا (١)

أصابَ الموتُ يومَ أصابَ مَعْناً ... مـن الأحياءِ أكرَمهمْ فِعالا

وكان الناسُ كلُّهم لِمَعْنٍ ... – إلى أنْ زار حفرتَه – عِيالا (٢)

ولم يكُ طالبٌ للعُرف يَنْوي ... إلى غير ابن زائدةَ ارتحالا (٣)

مضَى مَنْ كان يحملُ كلَّ ثِقْلٍ ... ويسبق فيضُ نائِله السُّؤالا (٤)

ولهفَ أبي عليكَ إذ اليتامى ... غدَوْا شُعْثاً كأنَ بهم سُلالا (٥)

أقمْنا باليمامةِ إذ يَئِسْنا ... مقاماً لا نريدُ له زِيالا (٦)

وقلنا أينَ نرحَلُ بعد مَعْنٍ ... وقد ذهبَ النَّوال فلا نوالا

ومرّ بنا أن هذه القصيدة ، أو البيتين الأخيرين فيها خاصّة ، قد أغضبا الخليفة المهديّ ، وطردَ من أجلهما مروان بن أبي حفصة من مجلسه ، ومَنْ يقرأ القصيدةَ كاملة يجدْ فيها من المبالغة والتعسُّف والكذب ما يسوّغ معه امتعاض المهديّ وكل ذي نفسٍ كريمة ، وأي مُنْصف يرضى أو يصدّق بأن الجود قد ماتَ بعد معن ، على الرغم من جود معن وأريحيّته ؟ وهل معنٌ أفضل من أبي حنيفة والشافعي ومالك وعبد الله بن المبارك وعشرات الألاف من السَّادة الأجلاء الذين كانوا في تلك الفترة حتى يتطاول عليهم مروان فيقول :

قُلْ للمنيّة لا تُبقي على أحدٍ ... إذْ ماتَ مَعْنٌ فما مَيْتٌ بمفقودِ

---

(١) تهامة : موضع قرب البحر الأحمر .

(٢) يزعم الشاعر أن كل الناس كانوا عيالاً على مَعْن هو ينفق عليهم .

(٣) العرف : المعروف ، العطاء .

(٤) النائل : العطاء .

(٥) سلال : سلّ .

(٦) زيال : فراق .

لكنّ حبَّ المال أزاغ لسان مروان عن قول الحقّ وكلمة الصّدْق .

يَبْدَ أنّ أسلوب مروان الناصع قد أطمع جعفراً البرمكي ، وكان للبرامكة مطامح سياسية دفينة ، فاستنشد جعفرٌ مروانَ القصيدة ، فأنشدها إياه ، فلما فرغ منها قال له جعفر : هل أثابك أحدٌ من ولده وأهله على هذه شيئاً ؟ قال : لا . قال جعفر : فلو كان معن حيّاً وسمعها منك ، كم كان يثيبك عليها ؟ قال : أربعمائة دينار . قال جعفر : لكنّي أظنّ أنه كان لا يرضى لك بذاك وقد أمرْنا لك عن معن بضعف ما قلتَ ، وزِدْنا نحن مثل ذلك ، فاقبضْ من الخازنِ ألفاً وستمائة دينار قبل أن تنصرف إلى رحلك .

بعد معن

بعد مَعْن كان اتصاله بأمير المؤمنين المهدي ، ومرّ بنا أوّل لقاء بينهما وكيف طردَ المهدي مروانَ من مجلسه ، لكنه لما جاء في العام القابل أنشده لاميّة سياسية تنتصر لآل العباس في أحقيّتهم في الحكم ، وهي لامية نالت إعجاب الخليفة ، وصار يهبُ هذا الشاعر من أَعْطِياته . ومرّ بنا نموذج من لاميّة مروان وأضيفُ هنا أن الشاعر لما قرأ أول شطر من مطلع القصيدة :

طرقتْك زائرةً فحيِّ خيالَها

قال أبو محمّد اليزيدي (يحيى بن المبارك) : لَحن (مروان) فقال مروان : ياضعيف الرأي أهذا يقال لي ؟ ويردف بالمصراع الثاني :

بيضاءُ تخلِطُ بالجمال دلالَها

فطرب عندئذ كلّ الحاضرين ، وسخا عليه أمير المؤمنين ، وصارت هباته له لا تنقطع ، وكان مما حباه إيّاه حديقة ، وللشاعر وصف لها .

الخاتمة

لم يكن مروان بن أبي حفصة يذيع قصائده بمجـرّد الانتهاء من إنشـائها وإنّما كان على حدّ قوله يقولها في أربعة أشهر ، ويتنخّلها في أربعة أشهر ويعرضها في أربعة أشهر على الرواة والنقاد ، ثم ينشرها . وإذا مدح معن بن زائدة جنَح إلى الأسلوب البدوي في القول ، وإذا مدح المهدي رقّق أسلوبه وماشى به الحضارة في بغداد ، ولكنّ النّمط الأوّل هو الغالب على شعره ، لأنّه كان إذا مدح الخليفة (المهدي ، أو الرشيد) أو البرامكة سَرْعان ما رجع إلى اليمامة .

ولم يكن الشريف المرتضى ليرتاح إلى شعر مروان بن أبي حفصة لاختلاف سياسة كلّ منهما عن الآخر ، وبدا موقف المرتضى في أماليه (٥١٨/١) عندما عرض لشعر مروان فقال : متساوي الكلام متشابه الألفاظ غير متصرّف في المعاني ولا غوّاص عليها ولا مدقّق لها ، مدائحه مكرَّرة الألفاظ والمعاني ، وهو غزير الشعر قليلُ المعنى ، إلا أنّه مع ذلك له تجديد وحِذْق .

ومات مروان بن أبي حفصة سنة / ١٨٢ /هـ ، وقيل بعد عام / ١٩٨ / ، أيّام المأمون ، وقيل قُتِلَ قتلاً بيد أحد مناوئي السياسة العباسيّة .

تاريخ شعراء العربية

شعراء العصر العباسي الأول

سلم الخاسر



إعداد وشرح

لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق

أحمد عبد الله فرهود

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه ونسبه

هو سلم بن عمرو مولى بني تميم ، ثم مولى أل أبي بكـر الصديـق رضـي الله عنه ، بصري ، شاعر مطبوع ، متصرّف في فنون الشعر ، من شعراء الدولة العباسيّة ، وهو راويةُ بشار بن برد ، وتلميذه ، وعنه أخذ ، ومِنْ بحره اغترف ، وعلى نَمَطِه قال الشعر .

لماذا لُقّب بالخاسر

لُقّـب بالخاسر - فيمـا يُقـال - لأنـه ورث مـن أبيـه مصحفـاً ، فباعــه واشترى بثمنه طنبوراً (١) وقيل : بـل خلّـف لـه أبـوه مـالاً فأنفقـه علـى الأدب والشعر ، فقال له بعض أهله : إنك الخاسر الصفقة ، فلقّب بذلك .

بينه وبين أبي العتاهية

كان سلم بن عمرو صديقاً لإبراهيم الموصلي ولأبي العتاهية خاصّــة مـن الشعراء والمغنّين ، ثم فسَد ما بينه وبين أبـي العتاهيـة ، وكـان سـلم منقطعـاً إلى البرامكة ، وإلى الفضل بن يحيى ، وفي ذلك يقول أبو العتاهية :

---

(١) الطُنبور : آلة من آلات الغناء والطَّرَب ، تشبه العود في أنّ لها أوتاراً .

إنّما الفضلُ لسَلْمٍ وحدَهُ   ليس فيه لسوى سَلْم دركْ

وكان هذا أحد الأسباب في فساد ما بينه وبين أبي العتاهية .

مع بشار بن برد

قال بشار بن برد :

مَنْ راقبَ الناس لم يظفرْ بحاجتِه   وفاز بالطيّباتِ الفاتكُ اللّهِجُ (١)

فسَلَخ مسلمٌ هذا البيت ، وجعله في بيت أخفّ على الألسن ، وأكثرَ سيرورة ، قال مسلم :

مَنْ راقبَ النّاسَ مات غمّاً   وفاز باللذّة الجَسُورُ (٢)

فبلغ بيتُه بشار فغضب واستشاطَ ، وحلف ألاّ يَدْخُلَ إليه سَلْم ، ولا يُفيدَه مادام حيّاً ، فاستشفع إليه بكل صديق له ، وكلِّ مَنْ يثقُل عليه ردُّه ، فكلَّمُوه فيه ، فقال :

أدخلوه إليَّ ، فأدخلوه إليه فاستدناه ، ثمّ قال : إيه يا سلم ، من الذي يقول :

مَنْ راقبَ الناس لم يظفرْ بحاجتِه   وفاز بالطيّباتِ الفاتكُ اللّهِجُ

قال : أنت يا أبا معاذ ، قد جعلني الله فداءَك . قال فمَن الذي يقول :

---

(١) اللهج : الذي يصرّح برغباته .

(٢) الجسور : الجريء

مَنْ راقبَ النّاسَ مات غَمّاً وفاز باللّذّة الجَسُورُ

قال ، تلميذك ، وخرّيجك ، وعبدُك يا أبا معاذ فاجتذبه إليه وقنعّه (١) بمخْصَرة (٢) كانت في يده وهو يقول : لا أعود يا أبا معاذ إلى ماتُنكره . وبشار يقول له : يا فاسق ، أتجيء إلى معنىً قد سَهِرَتْ له عيني ، وتعِبَ فيه فكرْي ، وسبقت الناس إليه،فتسرقه،ثم تختصره لفظاً تقرّبه به، لُتزري علي (٣)، وتُذهب بيتي ؟ فبَعْدَ لأيْ (٤) كفّ عن ضربه ، ثم رجع له ، ورضي عنه .

وصدق ظن بشار، إذ لهِجَ الناس بيت سلْم ، ولم ينشد بيتَ بشار أحد .

شعره في قصر صالح بن المنصور

بنى صالح بن المنصور قصراً على شاطئ دجلة ، فقال سلم يشيد به وبقصره ، ويدعو له بالهناءة والسرور ما كرّ ليل وأعقبه نهار :

يا صالح الجود الذي مجدُهُ أفسَدَ مجدَ النّاسِ بالجُود

بَنيْت قصراً مُشْرفاً عالياً بطائرَيْ سعدٍ ومسعودِ

كأنّما يرفعُ بنيانَه جِنّ سليمانَ بن داودِ

لازلْتَ مسروراً به سالماً على اختلاف البيض والسُّودِ

البيض والسود : الأيام والليالي . فأمر له صالح بألف درهم .

---

(١) قنعّه : غشّاه .

(٢) مخصرة : أداة كالسَّوْط .

(٣) تزري : تعيب وتنقص .   (٤) لأي : مشقّة .

أوّل هدية له على شعره

كان سلم الخاسر من غلْمان بشار ، كما مرّ بنا ، فلما قال بشار ميميّته التي يقول في تضاعيفها مادحاً عمر بن العلاء :

إذا نبَّهتْكَ صعابُ الأمورِ فنبِّهْ لها عُمَراً ثمَّ نَمْ
فتىً لايبيتُ على دِمْنَةٍ ولا يشربُ الماء إلاّ بدم (١)

بعث بها مع سلم الخاسر إلى الأمير عمر بن العلاء ، فوافاه فأنشده إياها ، فأمر لبشار بمئة ألف درهم ، فقال له سلم : إن خادمك – يعني نفسه – قد قال في طريقه إليك قصيدة فيك ، قال هاتِ . فأنشدَه :

قد عزَّني الداءُ فمالي دواءْ ممّا أُلاقي مِنْ حسان النِّساءْ
قلبٌ صحيحٌ كنتُ أسطو به أُصبحُ من سلمى بداءٍ عَياءْ (٢)
أنفاسها مِسْكٌ وفي طرْفِها سِحرٌ ومالي غيرها من دواءْ
وعدتِني وعداً فأوفي بهِ هل تصلحُ الخمرةُ إلاّ بماء ؟

ويقول فيها :

كم كُرْبةٍ قد مسَّني ضُرُّها ناديتُ فيها عُمَرَ بنَ العلاءْ

فأمر له بعشرة آلاف درهم . فكانتْ أوَّلَ عطيّةٍ سَنِيَّة وصلتْ إليه .

---

(١) دِمْنة : حقد . بطيب النفس ، وبالفتك بأعدائه .

(٢) داء عياء : ليس له شفاء .

يمدح عاصم بن عتبة الغساني

كان عاصم بن عُتْبة الغسّاني صديقاً لسلم الخاسر ، كثير البِّر به ، والملاطفة له وفيه يقول سَلْم :

الجودُ في قحطانٍ	مابقيتْ غسَّانُ
اسْلَمْ ولا أبالي	ما فعل الإخوان
ما ضَرَّ مرتجيه	ما فَعَلَ الزَّمانُ
مَنْ غاله مَخُوفٌ	فعاصمٌ أمانُ

وكانت سبعين بيتاً ، فأعطاه عاصم سبعين ألف درهم ، وكان مجموع مانالَه سلم من عاصم في حياته خمسمائة ألف درهم ، فلما حضرتْه الوفاة دعا عاصماً فقال له : إنّي ميّت ولا ورثةَ لي ، وإنّ مالي مأخوذ فأنتَ أحقّ به ، فدفع إليه خمسمائة ألف درهم .

قال يزيد بن مزيد : ما حسدْتُ أحداً قطّ على شعر مُدِحَ به إلا عاصم ابن عتبة الغساني ، فإني حسَدْتُه على قول سلم الخاسر فيه :

لعاصمٍ سماءٌ	عارضُها تَهتَّانُ (١)
أمطارُها اللُّجَيْنُ	والدّرّ والعقيان (٢)
ونارُه تنادي	إذْ خبت النِّيرانُ
الجودُ في قحطانٍ	مابقيتْ غسّان
صلّتْ له المعالي	والسَّيفُ والسّنّانُ

---

(١) العارض : السحاب . تَهْتان : هاطل .

(٢) اللجين : الفضّة . العقيان : الذهب الخالص .

كان يقدّم أبا العتاهية ، ثم فسَد مابينهما

كان سلم تلميذَ بشار ، ثم تباعَد مابينهما ، وصار سلم يقدّم أبا العتاهية ، ويقول : هو أشعرُ الجنّ والإنس ، إلى أن قال أبو العتاهية يخاطب سلماً :

تعالى الله يا سلمَ بن عمرو — أذلّ الحرصُ أعناقَ الرّجالِ

هب الدنيا تصيرُ إليكَ عفواً — أليس مصيرُ ذاك إلى زوالِ ؟

وبلغ هذا الشعرُ الرشيدَ فاستحسنه ، وقال لعمري إنّ الحرص لمفسَدةٌ لأمر الدين والدنيا ، وما فتّشْتُ عن حريص قطّ إلا انكشف لي عمّا أذمّه . وبلغ ذلك سَلْماً ، فغضب على أبي العتاهية ، وقال : وَيْلَي على الجَرَّار (١) الزّنديق ، زعم أنّي حريصٌ ، وقد كنَزَ البدور (٢) وهو يطلب وأنا في ثوبيَّ هذين لا أملك غيرَهما . وانحرف عندئذ عن أبي العتاهية وكتب إليه :

مـا أقبحَ التّزْهيدَ مِنْ واعظٍ — يـزهّـدُ النّـاسَ ولا يَزْهَدُ

لو كان في تزهيـدِه صادقاً — أضحى وأمسى بيتَه المسجدُ

ورفضَ الدنيا ولم يَلْقَها — ولم يكن يسعى ويسترفِدُ

يخافُ أن تنفدَ أرزاقُه — والرّزقُ عند الله لايَنْفَدُ

الرزقُ مقسومٌ على مَنْ ترى — ينالُه الأبيض والأسودُ

كلٌّ يُوفّى رزقَه كاملاً — مَنْ كفَّ عن جَهْدٍ ومَنْ يَجْهَدُ

---

(١) الجرّار : الذي يبيع الجُرَر والخزف .

(٢) البدور : جمع بَدْرة ، وهي المقدار الكبير من المال ، أوصُرَّةٌ فيها مال .

أنـاقـتـه

كان سلم الخاسر لا ولدَ له ، فكان يفتنُّ في ملابسِه ، ويُعْنَى بحُسْن مظهره ، ويأتي الخليفةَ المهدي على البِرْذَوْن (١) الفاره (٢) قيمته عشرة آلاف درهم ، بسَرْج ولجام مفضَّضين ، ولباسه الخَزّ والوَشْي ، وما أشبهَ ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحةُ المسك والطّيب تفوح منه .

يرثي بانوكة بنت المهدي

كان لأمير المؤمنين المهدي ابنةٌ اسمها ((بانوكة)) ماتت صغيرة فقال سلم :

أودى ببانوكةَ رَيبُ الزمانْ　　مُؤنسةِ المهديِّ والخيزُرانْ
لم تَنْطوِ الأرض على مثلِها　　مولودةً حَنَّ لها الوالدانْ
بانُوكُ يابنتَ إمام الهدى　　أصبحتِ من زينةِ أهل الجِنان
بكتْ لك الأرضُ وسُكّانُها　　في كلّ أُفْقٍ بين إنْسٍ وجان

---

(١) البِرْذون : يطلق على غير العربي من الخيل والبغال . وهو ضخم الجسم ، عظيم الخِلْقة .

(٢) فاره : عالٍ سامق .

اعتذارُه إلى المهدي

مدح سلم بعض المناوئين لسياسة الخليفة المهدي ، وبلغ ذلك المهديَّ ، فتوعّد سَلْماً وهمَّ به ، فاعتذر إليه ، وعاهده على ألاّ تكون مدائحه في غير بني العباس ، قال :

إنّي أتتْني عن المـهـديّ مَعْتَبةٌ	تكاد من خوفها الأحشاء تضطربُ
اسمعْ فداكَ بنو حَوّاءَ كُلُّهمُ	وقد يجور برأس الكاذِب الكَذِبُ (١)
فقد حلفْتُ يميناً غير كاذبةٍ	يوم المَغيبةِ ، لم يُقْطعْ لها سببُ (٢)
ألاّ يحالفَ مدحي غيركم أبداً	ولو تلاقَى عليَّ الغرضُ والحقَبُ (٣)
ولو ملكْتُ عِنانَ الريح أصرفُها	في كل ناحيةٍ ما فاتَها الطَّلَبُ (٤)
مولاكَ مولاك ، لاتُشمتْ أعاديَه	فما وراءك لي ذِكْرٌ ولا نَسَبُ (٥)

فعفا المهدي عنه .

---

(١) قد يجور برأس الكاذب الكذب : قد يؤدّي به إلى القتل وقطع الرأس .

(٢) يوم المغيبة : يوم اغتيابه الواشي لدى الخليفة . سبب : حبل .

(٣) الغَرْض : حزام الرحل . الحقبَ : حزام يحزم به كشح البعير أي خاصرته . يريد لن يمدح غير العباسيين مهما ضاقتْ به الأحوال .

(٤) ولن يمدح غير العباسيين ولو كان وراء ذلك المدح مال وافر وسَعة ومجد .

(٥) مولاك (الأولى) اسم منصوب على الإغراء بفعل محذوف (الزم) . والكاف : مضاف إليه والثانية توكيد .

شعر له في مدح الفضل بن الربيع

قال أبو جعفر المنصور لوزيره الربيع بن يونس : رأيتُ في المنام كأن الكعبة تصدَّعت ، وكأنَّ رجلاً جاء بجبل أسود فشَدَّدها . فقال الربيع : من الرجل ؟ فلم يُجبْه . حتى إذا اعتلّ أبو جعفر قال للربيع : أنت الذي رأيته في نومي شدَّد الكعبة ، فأيَّ شيء تعمل بعدي ؟

قال : ما كنت أعمل في حياتك . فلمّا قضى المنصور نحبه أخذ الربيع ابن يونس البيعة لولده المهدي .

قال سلم الخاسر يمدح الفضل بن الربيع بن يونس وزير الرشيد (١) ، مشيراً إلى جميل ما صنعه أبوه الربيع من قبل :

يابن الذي جَبَر الإسلامِ يوم وهى	واستنقذ الناسَ من عمياءَ صَيْخودِ (٢)
قالت قريشٌ غَداةَ أنهاضِ ملكهم :	أين الرَّبيعُ ، وأعطَوْا بالمقاليدِ (٣)

---

(١) كان الفضل بن الربيع حاجباً عند المنصور ، وكان أبوه الربيع بن يونس وزيراً للمنصور ، فلما استُخلف الرشيد استوزر الفضل بن الربيع ، فبقي وزيراً طَوال عهد الرشيد وابنه الأمين .

(٢) صيخود : شديدة . يصف الفتنة الشديدة العمياء التي كان يمكن أن يتعرّض لها الناس لولا صنيع الربيع بن يونس .

(٣) انهاض : انحطم . مقاليد : مفاتيح .

فقام بالأمر مئناسٌ بوَحْدتِهِ ماضي العزيمة ضرّابُ القماحيد (١)
إنّ الأمور إذا ضاقتْ مسالكُها حلَّتْ يدُ الفضلِ منها كلّ معقودِ
إنّ الربيع وإن الفضلَ قد بَنيا رواقَ مجدٍ على العبّاسِ ممدودِ

فوهب الفضل بن الربيع سلماً خمسة آلاف دينار .

يمدح المهدي

المهديّ سمح في البذل ، يُعْطي الكثير ، ولا يُذيع ما يعطي ، وهو معتصمٌ كاسمه بالهدى ، يذبّ عن الأمّة وينتقم من أعدائها :

له شيمةٌ عند بذل العطاءِ لايعرفُ الناسُ مقدارَها
ومهديُّ أمّتنا والذي حماها وأدركَ أوتارها

فحبّاه المهديُّ على قصيدته خمسمائة ألف درهم .

رثاؤه لجماعة

كان معن بن زائدة والياً على اليمن ، ثم على سِجسْتان ، لأبي جعفر المنصور ، وكان مشهوراً بحلمِه وكياسته وسخائه ، وكان مالكٌ وشهاب – ولدا عبد الملك بن مِسْمع – لايكادان يفارقانه ، وكان بين الثلاثة مودّة

(١) مئناس بوحدته : يأنس برأي نفسِه ، عصاميّ ، ليس يتّكئ على غيره ، وليس بإمّعة . القماحيد : جمع قَمَحْدُوَة ، على وزن قَلَنْسُوَة ، وهي العظمة الناتئة فوق القفا وأعلى القذال ، والقذال : مابين الأذنين من مؤخّر الرأس . يريد : ضرّاب الأعناق ، لأنهم يضربونها من جهتها الخلفية .

مستحكمة ، وكان سلم الخاسر ينادمُهم ويمدحُهم ، وهم يُفضلون عليه ولايحوجونه إلى غيرهم ، فتوفي مالكٌ ثمّ أخوه ثم مَعْن في مدّة متقاربة ، فقال سلم يرثيهم :

عَينُ جودي بعَبْرةٍ تَهْتَانِ   واندُبي مَنْ أصابَ رَيبُ الزّمانِ (١)
وإذا ما بكيتِ قوماً كراماً   فعلى مالكٍ أبي غسانِ
أينَ مَعْنٌ أبو الوليد ومَنْ كا   نَ غِياثاً للهالكِ الحيران ؟
طرقَتْكَ المنونُ لا واهِيَ الحبل ـ   ولا عاقداً بحِلْفٍ يَمانِ (٢)
وشهابٌ وأينَ مثلُ شهابٍ   عندَ بَذْلِ النّدَى وحَرِّ الطعّان
رُبَّ خِرْقٍ رُزِئتُهُ من بني قيس ـ   وخِرْقٍ رُزِئتُ من شيبانِ (٣)
درّ دَرُّ الأيّامِ أجنَّتْ   منهمْ في لفائف الكَتّانِ (٤)
ذاك مَعْنٌ ثوى ببُسْتَ رهيناً   وشهابٌ ثوى بأرض عُمانِ (٥)
وهما ما هُما لبذل العطايا   ولِلَفِّ الأقرانِ بالأقرانِ (٦)
يسبقان المنونَ طعْناً وضرباً   ويفكّان كلَّ كبل وعاني (٧)

مدح الرشيد

حضرَ الرحيلُ وشُدَّت الأحداجُ   وغدا بهنّ مشمّرٌ مِزْعاجُ (٨)
للشوق نيرانٌ قَدَحْنَ بقلبِه   حتى استمرّ به الهوى المِلْجاج (٩)

---

(١) عَبْرة : دموع . تهتان : مصبوبة ، مسكوبة .

(٢) المنون : الموت.واهي الحبل:ضعيف.لاعاقداً بحلف يماني:هو من قوّته يستغني عن الأحلاف.

(٣) خِرْق : سخّي . رُزِئ : أصيب . مالك وشهاب من قيس . ومعن من شيبان .

(٤) أجنّتْ : أخفَتْ .   (٥) بُسْت : مدينة في إيران .

(٦) القِرْن : النظير في الحرب .   (٧) كبْل : قيد . عان : أسير .

(٨) الأحداج : جمع حِدْج . وهو الهودج .   (٩) الملجاج : المتمكّن .

أزعجْ هواكَ إلـى الّذين تحبُّهم   إنّ المحبّ يســـوقُــه الإزعاجُ
لن يُدْنِيَنَّكَ للحبـيـب ووصلِه   إلاّ السُّرَى والبازلُ الهَجْهــاج (١)

يستهلّ سلمٌ مِدْحتَه بالنّسيب التقليدي على عادة الشعراء القدامى ، فقد آن وقت الرحيل ، وشُدَّت لطيّات السفر المطايا ، وثبّتت فوقها الأحداج ، واتقّدت في قلب المحبّ نيران الجوى ، لاستصعابه الفِراق ، وبين أحبّته ، ومازال به هواه حتى عزم على السفر إلى ديارِ محبوبته وهو على معرفة تامة بأنه لن يبلغ تلك الديار ومن يبتغي من أهلِها إلا السرى والإدلاج على بعير فتيّ يكاد بهديره يغلي غلَيانا .

كان سلم يُنشد الرشيدَ هذه القصيدة ، وفي المجلس جعفر بن يحيى البرمكي ، فلما انتهى سلَم إلى قوله في القصيدة :

إنّ المنايا في السيوف كوامِنٌ   حتّى يهيّجها فتىً هيّاج (٢)

فقال الرشيد : كان ذلك معن بن زائدة . فقال سلم : صدق أمير المؤمنين ، ثم أنشد حتى انتهى إلى قوله :

ومُدَجَّجٍ يَغْشَى المضيقِ بسيفِه   حتى يكونَ بسيفه الإفراجُ (٣)

فقال الرشيد : ذلك يزيد بن مَزْيد . فقال سلم : صدق أمير المؤمنين . فاغتاظ جعفر بن يحيى ، وكان يزيد بن مزيد عدوّاً للبرامكة ، مصافياً للفضل ابن الربيع . فلما انتهى سلم إلى قوله :

نزلتْ نجومُ الليل فوقَ رؤوسِهمْ   ولكل قومٍ كوكبٌ وَهّاجُ

---

(١) السرى : سير الليل . البازل : الجمل الفتّي : الهجهاج : الشديد الهدير من الإبل .

(٢) كوامن : مختبئة .

(٣) مدجّج : لابس سلاحه : متزوّد بالأسلحة المتنوعة .

قال له جعفر بن يحيى : من قِلّة الشعر تمدح أمير المؤمنين بشعر قيل في غيره ! هذا لبشار في فلان التميمي .

فقال الرشيد : ما تقول ياسلم ؟ قال : صدق ياسيدي ، وهل أنا إلا جزء من محاسن بشار ، وهل أنطق إلا بفضل منطقه ؟ اني لأَروي له تسعة آلاف بيت مايعرف أحد غيري منها شيئاً . فضحك الرشيد ، وقال : ما أحسنَ الصدق ! امْضِ في شعرك ، وأمرَ له بمائة ألف درهم .

يمدح البرامكة

لاتكاد ترى شاعراً مدح العباسيين إلاّ مدح وزراءهم البرامكة ، ومع أنهم كانوا في الظاهر مسلمين كغيرهم ، كانوا - في الوقت نفسه - يحتفلون بالأعياد الفارسية القديمة ، وينزعون بميول جارفة إلى إحياء الأمجاد القومية الفارسية ، ويسعَوْن إلى تحقيق آمالهم سعياً مستأنياً بحكْمة منحرفة إلى أنْ كشف الرشيد ، أو قُل أعوانُ الرشيد ، مع الرشيد . مَيلَهم ، فقوّموه بتدميرهم والإطاحة بهم .

إن عيد الربيع -عيد النيروز- عيد فارسيّ قديم ، لايحتفل به المسلمون ، لكن الفضل بن يحيى يحتفل به ، ويستقبل فيه التهاني والهدايا ، وها هو سلم الخاسر يدخل عليه في ذلك اليوم مادحاً طامعاً بنصيب من تلك الهدايا :

أمِنْ رَبْعٍ تسائِلُهُ ... وقد أقوتْ منازِلُهُ (١)

بقلبي من هوى الأطلا ... لِ حُبٌّ ما يُزَايِلُهُ (٢)

---

(١) الربع : المنزل . أقوتْ : خَلَتْ من أهلها .

(٢) الأطلال : آثار الديار المندرسة .

رويدكُم عن المشغـــو	فِ إن الـحبّ قاتلُـهُ (١)
بلابلُ صدرِه تســـري	وقد نامتْ عواذلُـــه (٢)
أحقّ الناس بالتفضيـلِ	من تُرْجىفـواضِلُـهُ (٣)
رأيتُ مكارمَ الأخـــلاقِ	مــاضـمّـتْ حمائلَهُ (٤)
فلستُ أرى فتىً في النا	سِ إلاّ الفضلُ فاضِلُه (٥)
يَقــولُ لـســانُه خيراً	فـتــفـعـلُهُ أنـامِلُهُ
ومهمــا يُـرْجَ من خيرٍ	فـــإنّ الفضل فاعِلُهُ

قول لمعن بن زائدة في مِدْحة لسلم

سُئِلَ مَعْنُ بن زائدة : ما أحسنُ ما مُدِحْتَ به من الشعر عندك ؟ فقال :

قول سلم الخاسر :

أبلــغ الفــتــيانَ مالُكَةً	أنَّ خير الوُدّ مـا نـفَعا (٦)
أنَّ قَرْماً من بنــي مَطَرٍ	أتــلـفـتْ كفَّاه ما جَمعا (٧)
كُــلّمــا عُـدْنا لنائلِـه	عاد في معروفِه جَذَعا (٨)

هذا مع أن أبا عبيدة معمر بن المثنى يقول : كان سلم الخاسـر لايحسـن أن يمدح ، ولكنه يُحْسِن أنْ يرثي ويسأل .

---

(١) رويدكم : تمهلوا . المشغوف : العاشق .

(٢) بلابل الصدر : همومه . عواذل : لائمون .

(٣) فواضل : عطايا .

(٤) حمائل السيف : مايحمل به : ويعلّق به .

(٥) فاضله : سابقه .　　　(٧) مألكة : رسالة :

(٧) قرم : سيد　　　(٨) نائل : عطاء . جذع : شابّ حدَث .

وأحياناً كان سلمٌ يقـول الشعر في المناسـبات المتوقّعة قبـل أن تحـدث ، ليتأتّى له تنقيحُ ما يقول ، دخل عليه أبو المستهلّ ، وإذا بين يديه قراطيسُ فيهـا أشعار يرثي ببعضها أقواماً لم يموتوا . فسأله : ماهذا ؟ فقـال : تحـدثُ الحـوادث فيطالبوننا بأن نقول فيها ، ويسـتعجلوننا ، ولايحْمُـلُ بنـا أنْ نقـول غـير الجيّـد ، فنعدّ لهم قبل حدوثه .

موته ورثاء أشجع له

مات سلم الخاسر سنة /١٨٦/ هـ ، فقال أشجع السلمي يرثيه :

يـا سلمُ إنْ أصبحْتَ في حُفْرةٍ   موسَّـداً تُـرْباً وأحجارا
فرُبَّ بـيـتٍ حـسَـنٍ قُـلْـتَـه   خلَّفتَه في الناسِ سيَّارا
لـو نطق الشـعـر بكى بعده   عليه إعـلانـاً وإسرارا

تاريخ شعراء العربية

شعراء العصر العباسي الأول

الحسين بن مطير



إعداد وشرح
لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُورِيَة - حَلَبْ - خَلفَ الفُنْدُقِ السيَّاحِي

شارع هدى الشِعْرَاوِيْ

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٢١٢٣٦١، ٠٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

بلدته وبداوته

الحسين بن مُطَيْر بن مكمّل ، الأسديُّ بالولاء ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعبّاسيّة ، شاعرٌ راجزٌ ، جمع الدكتور مُحْسِن غياض شعره ، ولم يَبْقَ له أشعار كثيرة .

والحسينُ بن مطير من أهل الجزيرة العربية ، من قرية يقال لها زبالة ، في الطريق بين الكوفة ومكّة ، وكان الحسين يتزيّا بزيّ البَدْو ، ويذهبُ في كلامه أيضاً مَذْهَبَ الأعراب ، ويتأثّر بعالم الصحراء ، ولكنّه اتّصل أيضاً بالمدن وما فيها من حضارة ، وأقبل هنالك على الثقافة ، وبذلك اكتسب شعره معاني مدنيّة ، وملامح حضاريّة ، وأغنى الحسين بن مطير قصائده بمعان ابتكرها وموضوعات استحدثها وأساليب جديدة ابتدعها . وخيال رائع بعيد .

بين القديم والجديد

يجمع الحسين بن مطير في شعره بين النهج التقليدي القديم في إنشاء القصيدة ، والأسلوب المستحدث الجديد ، أو بعبارة أدقّ يجمع بين النهج القديم والأسلوب الذي استحدثه في نطاق النزعة إلى التجديد ، ومن خلال النّبوغ الذي دفع به إلى أن يأتي بصور جديدة ومعان حديثة وقعت موقعَ الرضى عند كثير من النّقّاد والمتأدّبين على أيّامه . فكان أبو عبيدة (معمر بن المثنى) يقول في شعر الحسين بن مطير : إنه ليقع من شعره الشيء بعد الشيء ، فيكثر تعجّبي من كثرة بدائعه . ويقول عبد الله بن المعتز في قصائد الحسين : هذا شعر كأنّه الديباج ، بل نظم الدرّ في حسن وصف ، وإحكام رصين . وذكر ياقوت

الحموي في معجم الأدباء أنه من الفحول . والحسين بن مطير من الشعراء القليلين الذين أجادوا القول في الرجز والقصيد . من أمثال أبي نخيلة السعدي وابن ميّادة .

في أيّام بني أميّة

عاش الحسين بن مطير في زمان الدولتين الأموية والعباسيّة ، إلا أنّ أخباره مع الأمويين قليلة ، شأنه كشأن معظم الشعراء المخضرمين الذين شهدوا عصر بني أمية وعصر العباسيين ، إذ كانوا يحرصون ألا يثيروا حفيظة بني العباس وألا يبوءوا بسخطهم وانتقامهم ، وكان جُلُّ الخلفاء العباسيين أولي سَطْوة وكانوا في الوقت نفسه على مستوى عالٍ من الثقافة الأدبية والعلمية ، ومن هنا لا نرى في المصادر أثراً لمدائحه في الوليد بن يزيد وأمثاله ممن كان يفد عليهم .

وفوده على معن بن زائدة والي اليمن

دخل الحسين بن مطير على معن بن زائدة والي اليمن ، وأنشده :

أتيتُكَ إذْ لم يَبْقَ غيرَكَ جابرٌ ولا واهبٌ يُعْطي اللُّهَا والرَّغائبا (١)

فقال له : يا أخا بني أسد ، ليس هذا بمَدْح ، إنّما المدح قولُ نهار بن توسعة في مسمع بن مالك :

قَلَّدَتْـهُ عُـرَى الأمورِ نزارٌ قبـلَ أنْ يَهْلِكَ السَّـراةُ البُحورُ (٢)

فغدا إليه بأرجوزة يمدحُه بها ، فاستحسنها ، وأجزلَ صلته .

---

(١) اللُّهَا : جمع لُهْوة ، وهي العطيّة . (٢) السَّراة : جمع سَرِيّ ، وهو السيد الشريف . أي فُضِّل واختير والياً من بين الأماجد ، قبل أن يذهبوا ونهار بن توسعة قائل هذا البيت كان من الشعراء المقدّمين في خراسان أيام بني أمّيّة .

عينيّتُه في معن ، ومكافأة المهدي له

حجَّ المهديّ ، فمرَّ في طريقه من بغداد إلى مكّة ببلدة الحسين بن مطير ((زبالة)) ، فدخل عليه الحسين بن مطير ، فقال :

أضحَتْ يمينُكَ مِنْ جودٍ مصوَّرَةً

لا بل يمينُكَ منها صورةُ الجودِ (١)

مِنْ حُسْنِ وجهِكَ تُضْحي الأرضُ مشرقةً

ومِنْ بَنانِكَ يجري الماءُ في العُوْدِ

فقال المهدي : كذبْتَ . قال : ولِمَ ذاكَ يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : هل تركْتَ في شعرك موضعاً لأحد بعد قولكَ في مَعْن بن زائدة ؟ : (رثاء)

أَلِمَّا على مَعْنٍ وقولا لقبرِهِ

سقَتْكَ الغوادي مَرْبعاً ثمّ مَرْبعا (٢)

فيا قبرَ معنٍ أنتَ أوّلُ حُفْرةٍ

من الأرضِ خُطَّتْ للمكارم مَضْجعا (٣)

ويا قبرَ مَعْنٍ كيفَ واريْتَ جودَهُ

وقد كان منه البرَ والبحرُ مُتْرَعا ؟ (٤)

---

(١) مصوَّرة : مخلوقة .

(٢) ألَمَّ : قصد ، زار . الغوادي : جمع غادية ، وهي الغمامة الصباحية . المربع : الغيث العظيم .

(٣) خُطَّت : شُقَّت ، جُعلت .

(٤) وارى : ستر . مترع : ملآن .

بلى قـد وَسِـعْتَ الجـودَ والجـودُ ميّتٌ

ولو كان حيّاً ضِقْتَ حتـى تصدّعـا (١)

ولمّا مضَى مَعْنٌ مضَى الجودُ وانقضَى

وأصبحَ عِرْنِيـنُ المكـارمِ أجْـدَعـا (٢)

ومـا كـانَ إلا الجـودَ صـورةُ وجهِـه

فعـاشَ ربيعـاً ثـمَّ ولّـى وودّعا (٣)

وكنتَ لدارِ الجودِ يـا مَعْـنُ عـامـراً

وقـد أصبحتْ قَفْـراً من الجُود بَلْقعا (٤)

فتـىً عِيـشَ فـي معـروفِـه بعد موتِه

كمـا كـان بعد السَّيْل مَجْرَاه مَرْتَعا (٥)

تمنَّـى أنـاسٌ شَـأْوَه مـن ضـلالهـم

فأضْحوا على الأذقان صَرْعى وظُلّعا (٦)

---

(١) لولا أن معناً مات لما وسعه القبر ، بـل كـان سـوف يتصـدَّع إذا دخـل إليـه معـن بسبب عظمة ذلك العاهل الجواد . تصدَّع : تتصـدّع . وفي ((الجـود)) الأولى استعارة تصريحية ، لأنّ المراد معن بن زائدة .

(٢) العِرْنين : ما صلب من عظم الأنف حيث يكون الشَّمَم . أجدع : مقطوع .

(٣) الجود صورة وجهه : تشبيه بليغ مقلوب ، فيه تجسيد للكرم .

(٤) بَلْقع : خالٍ ، قفر .

(٥) عاش قوم بعد موته على ما كان أعطاهم ، كما يحيا العشب بعد السَّيْل .

(٦) ظُلّع : عُرْج : لا يقدرون على السير .

تعــزّ أبــا العبــاسِ عنــه ولا يكــن
جــزاؤكَ مِــنْ مَعْنٍ بأنْ تتضعضعا (١)
أبــى ذِكْــرُ مَعْــنٍ أنْ يُميــتَ فَعــالَــهُ
وإنْ كــانَ قد لاقى حِماماً ومَصرَعا (٢)
فمــا مــاتَ مَــنْ كـنتَ ابنَـه لا والّذي
لــه مثــلُ مــا أبقَى أبوك وما سعى (٣)

فقال الحسين بن مطير : إنّما مَعْنٌ حسَنةٌ من حسَناتِكَ ، وفَعْلَةٌ من فَعلاتِكَ . فأمر له بألف دينار . ثمّ قال : سَلْ حاجتك . فقال :

بيضاءُ تَسْحَبُ مِنْ قيامٍ فَرْعَها وتغيبُ فيه وهو جَعْدٌ أسْحَمُ (٤)
فكــأنّهــا منــه نهــارٌ مُشْرِقٌ وكــأنّــه ليــلٌ عليهــا مُظْلِــمُ

قال : خُذْ بيدِها . لجاريةٍ كانتْ على رأسه . فأولدَها مُطَيْر بن الحسين ابن مطير .

الحسين بن مطير يغلو في مدح المَهْدي

كان الحسين بن مطير يعمل بنظم الشعر ، ويتكسّب به ، وكان يغالي في مَدْحه استجلاباً للعطاء ، على شاكلة قوله في المهديّ :

لو يعبُد الناسُ يا مهديُّ أفضلَهم مــا كــان فــي النــاسِ إلا أنتَ معبودُ
لــو أنّ مــن نــورهِ مثقالَ خَرْدلةٍ في السُّود طُرّاً إذاً لابيضَّت السُّودُ (٥)

---

(١) تتضعضع : تضعف ، ويضطرب أمرك . (٢) الحِمام : الموت .

(٣) شِيَمُ مَعْن أحيَتْ ذِكْرَ أبيه ، وكأنّ أباه لم يمتْ .

(٤) فرعها : شعرها . أسحم : أسْوَد .

(٥) الخَرْدل : نبات عشبي يضرب المثل ببزوره في الصغر . طُرّاً : جميعاً .

حكمـة

طرَق الحسين بن مطير عـدّة أغـــراض شعرية سوى المدح ، والرّثـاء كالحكمة ، والفخر ، والوصف ، والغزل . قال في الحكمة :

ولي كَبِدٌ مقروحةٌ مَنْ يبيعُنِي بهـا كَبِداً ليستْ بذات قُروح ؟ (١)
أباها عليَّ النَّاسُ لا يشترونها ومَنْ يشتري ذا عِلَّة بصحيح ؟ (٢)

وأنشدَ له ابن قتيبة :

يضعّفني حِلْمي وكثرةُ جهلهمْ علـيَّ ، وأنّـي لا أصـولُ بجاهـل
دفعُتُكم عنّي ، وما دفعُ راحةٍ بشيء إذا لم تستعنْ بالأنامِلِ ؟ (٣)

الفخر

ما زال يطلب العلا ، ويسعى إلى المجد ، وتحصيـل عظيـم السَّجايا حتـى نحل جسمه ، وذهب لحمه ، وبـات كأنّما هوسَيْف مهنّـد بتّـار . على أنّـه لم يأسف لنحافته ، لأنّ سِمَن الشّاب ما هـو بأمَـارةٍ حسـنة ، بـل إنَّ هـذا السِّـمن مدعاةٌ للنّحس والتشاؤم :

رأتْ رجلاً أودَى بوَافِـر لحمِه طِلابُ المعالي واكتساب المكـارمِ (٤)
خفيفَ الحشَا ضَرْباً كـأنَّ ثيابَه على قاطعٍ من جوهر الهند صارمِ (٥)
فقلـتُ لها : لا تَعْجَبِـنَّ فـإنّني أرى سِمَـنَ الفِتْيـان إحـدى المَشـائِـمِ

---

(١) مقروحة : مجروحة . (٢) أباها : رفض الناس ذلك .

(٣) إنّ حلمَه ليزيدُه مسالمة ، وصَبْراً عن أن يخاصم جاهلاً ، وينحدر إلى مستواه . لكنّه يريد دفع أذيّتهم بالتي هي أحسن ، وهم لا يندفعون إلا بالقوّة .

(٤) أودى : ذهب . طِلاب : طلب . (٥) الحشا : ما دون الحجاب مما يلـي البطن من كبد وطحال وكرش . رجل ضَرْب : خفيف ممشوق القدّ .

الوصف

بينما كان الحسين بن مُطَيْر عند والي المدينة المنوّرة إذْ هطَـلَ مَطرٌ غزير فقال له الوالي : صفْ لي هذا المطر . قال : دعْني أشرفْ عليه . فأشرف عليه ثمَّ نزلَ فقال :

كَثُـرَتْ لِكَثْـرَةِ قَطْـرِهِ أطبـاؤُهُ	فـإذا تحلَّبَ فـاضت الأطْبـاءُ (١)
ولـه رَبـابٌ هَيْـدَبٌ لـدفيفِـه	قَبْـلَ التبعُّق دِيمـةٌ وَطْفَـاءُ (٢)
وكـأنَّ ريِّقَـهُ ولمَّـا يحتفـلْ	وَدْقُ السَّمـاءِ عجاجـةٌ كَدْراءُ (٣)
وكأنَّ بـارقَـه حـريقٌ تلتقـي	ريـحٌ عليـه عَـرفَـجٌ وألاءُ (٤)
مُسْتَضحكٌ بلَـوامعٍ ، مُسْتَبْصِرٌ	بمـدامـعٍ ، لـم تُمْرِها الأقْذاءُ (٥)
فلـه بـلا حُزْنٍ ، ولا بمَسَرَّةٍ	ضَحِـكٌ يؤلِّـفُ بينَـه ، وبُكـاءُ
حَيْرانُ متَّبـعٌ صَبـاهُ تقـودُه	وجَنوبـه كـنفٌ لـه ووعـاءُ (٦)

---

(١) أطباؤه : أثداؤه . تحلَّب : اعتُصِرَ . لقد كثرتْ محالُّ انهمار المطر ، من الغيوم ، فـإذا أراد الله بقوم خيراً سقط الغيث من تلك المحالّ .

(٢) رباب : سحاب . هيدب : متدلٌّ . دفيف : دبيـب . التبعُّق : الابتعـاج بالمطـر . ديمة : سحابة مستمرة الهطول . وَطْفاء : دائمة السَّحِّ . لهذا الغيث سحاب له أذناب وذيول وقد جعل يسحّ لفترة طويلة ، ثمّ ثجّ ثجّاً بغزارة .

(٣) ريِّقه : المطر اليسير . يحتفل : يجتمع . الـودْق : المطر . كدراء : مكـدّرة ، قاتمة . يشبّه أوائل الغيث قبل اجتماع متفرِّقة وتكاثفِه بعجاجة قاتمة .

(٤) البارق : البرق . عرفج : شجر سهلي . ألاء : نوع من الشجر . إذا لمع البرق أشبه ناراً تتّقد من أشجار العَرْفج والألاء ، وتهبّ عليها ريح ، فتزداد اشتعالاً .

(٥) لم تُمْرِها الأقذاء : لم تستدرّها . يتحدّث عن البرق اللامـع والغيث العـذْب الصافي غير الكَدِر .　　(٦) الصَّبا والجنوب : نوعان من الرياح كانا يَوجّهان السَّحاب .

غَدِقٌ يُنَتِّـجُ في الأباطح فُرَّقاً	تَلِدُ السُّيـولَ ومالها أسـلاءُ (١)
غُرٌّ مُحَجَّلـةٌ دوالـجُ ضُمِّنَـتْ	حَمْـلَ اللّقـاحِ وكلُّها عَـذْراءُ (٢)
سُحْمٌ فهُنَّ إذا كَظَمْـنَ سَـواجمٌ	سُودٌ وهنَّ إذا ضَحِكْنَ وِضـاءُ (٣)
لو كان من لُجَجِ السواحل ماؤهُ	لم يبقَ في لُجَجِ السَّواحلِ ماءُ (٤)

مثلُ هذا النصّ الّذي ينفدُ صبرنا ونحن نقرؤه قد كان أمثال الأصمعي وأبي عمرو بن العلاء والفراهيدي يجدونه كنزاً لا يقدَّر بثمن .

وكان عبد الله بن المعتزّ وأبو هلال العسكري يعدّان الحسين بن مطير أحذق الشعراء في وصف السَّحاب . ولو كانا قالا ((مِنْ)) أحذق الشعراء لكانت العبارة أدقّ .

---

(١) غدِق : كثير القطر . ينتجّ : يولّد . فرق : منشقّة . أسلاء : جمع سلى ، وهو غشاء رقيق يحيط بالجنين . هطل الغيث العميم ، فسالت أودية بقدَرها . ويشبه نزول المطر بولادة مولود ، ولكن ليس له مشيمة .

(٢) غرّ : بيض . محجّلة : يتخلّل بياضها قطع داكنة . دوالج : مثقلة بالماء ، شخّص السّحب فشبّهها بالنساء التي تلد أو تحمل على سبيل الاستعارة المكنية .

(٣) سُحْم : سود . سواجم : سائلة منصبّة . إذا حزنتْ تلك الغيوم السوداء بكت فكان المطر ، وإذا ابتسمت انكشف لونها .

(٤) لم يكن يعرف الدورة المائية ، وأن الغيوم تأخذ مياهها من البحر . وقال أبو العلاء المعري :

والبَحْرُ يُمطره السحابُ ومالَهُ	فضلٌ عليه ؛ لأنّه مِنْ مائِهِ

الغـزل

ألا حبّذا البيتُ الذي أنتَ هاجِرُهْ	وأنـتَ بتَلْمـاحٍ مـن الطَّرْفِ ناظِرُهْ (١)
لِإنَّـكَ مـن بيتٍ لعينيَ مُعْجِـبٍ	وأملـح في عيني مـن البيتِ عـامِـرُهْ
أصُدُّ حَياءً أنْ يُلِمَّ بي الهـوَى	وفيـكَ المُنَى لـولا عـدوٌّ أحـاذرهْ (٢)
وفيك حبيبُ النفس لو تستطيعُه	لماتَ الهوى والشَّوْقُ حينَ تُجاوِرُهْ (٣)
فـإنْ آتِـه لـم أنْـجُ إلا بظِنَّـةٍ	وإنْ يـأتِـه غيري تُنَطْ بي جَرائِرهْ (٤)
وكـانَ حبيبُ النفس للقلب واتراً	وكيفَ يحبُّ القلـبُ مَنْ هو واتِرُهْ (٥)
فـإن يكن الأعداءُ أحمَوا كلامه	علينا فلن تُحمَى علينـا مناظـرُهْ (٦)
أحبُّـكِ يا سلمى على غير ريبـةٍ	ولا بأسَ في حُبّ تعفَّ سـرائـرهْ (٧)
ويا عاذلي لولا نفاسـةُ حبّهـا	عليكَ لمـا بـالَيْتَ أنَّـكَ خـائـرُهْ (٨)
بنفـسيَ مَـنْ لا بُدَّ أنّـيَ هاجـرُهْ	وما أنا في الميسورِ والعُسْرِ ذاكرهْ (٩)

---

(١) تَلْماح : لمح . الطَّرْف : العين . نعم المنزلُ منزلٌ ما عُدْتَ تؤمُّه ، وإنّمـا تُوليـه نظـرة خفيّة بمؤخّرة عينك كلّما مررت به ، لئلا يشعر أحد .

(٢) أصدّ : أُعرض . يُلمّ بي الهوى : يتنابني أمر الحبّ .

(٣) في ذلك البيت مَنْ يهوَى ، ولو أنّه حظي به لَعُوفِي هواه وانطفأ شوقُ البعاد .

(٤) إذا زاره ظُنّت به الظنون . وإذا زاره غيرُه حُمّل هو المسؤولية ، واتُّهم بأنه هو الـذي بعثه .

(٥) واتر : قاتل من طول ما عانى من عذاب الهوى .

(٦) أَحْمَوْا : منعوا . حال الأعداء دون أنْ يلقاها ، فاكتفى بالكلام ، فلّمـا سـدّوا سُبُلَهُ رضي بالنظر فقط .

(٧) ريبة : فُحْش . يحبّها حبّاً عفيفاً ((عُذْريّـاً)) ، لا يقارفُ معه مأثمة ، ولا يرى فيه بأساً أو حراماً . على أنّه لو ملأ قلبه بحـبّ الله ، وأشـغلَ سرائره بذِكْره ، واستشعارِ قُرْبه ومراقبته ، لوجد في حبّ العارض الفاني بأساً .

(٨) خائر : مختار .

(٩) الميسور : اليُسْر .

ومَنْ قَدْ لحاه الناسُ حتى اتّقاهم ببُغضي إلا ما تجنّ ضمائرُه (١)
أحبُّكِ حُبّاً لن أُعنِّفَ بعدَه محبّاً ، ولكنّي إذا ليمَ عاذِرُهْ
لقد ماتَ قبْلي أوّلُ الحبّ فانقضى ولو مِتُّ أضحى الحبّ قد مات آخِرُهْ
كلامُكِ يا سلمى وإنْ قلَّ نافعي فلا تحسبي أنّي وإنْ قلَّ حاقِرُهْ
ألا لا أبالي أيَّ حيٍّ تحمَّلوا إذا أَثْمَدُ البَرقاءِ لم يخْلُ حاضِرُهْ (٢)

قصيدة أخرى له في الغزل

لقد كنتُ جَلْداً قبلَ أنْ تُوقِدَ النَّوى على كَبدي ناراً بطيئاً خمودُها
ولو تُركتْ نار الهوى لتصرَّمتْ ولكنْ شوقاً كلَّ يومٍ يزيدُها
وقد كنتُ أرجو أن تموتَ صبابتي إذا قدمتْ أيّامُها وعهودُها (٣)
فقد جُعلتْ في حَبّةِ القلب والحشا عِهادُ تولاها بشوقٍ يُعيدُها (٤)
بمُرتَجَّةِ الأرْدافِ هيفٍ خُصورُها عِذابٍ ثناياها عجافٍ قيودُها
مخصّرةِ الأوساط زانتْ عقودَها بأحسن مما زيَّنتْها عقودُها
يمنّيننا حتى ترفَّ قلوبُنا رفيفَ الخُزامَى باتَ طَلٌّ يجودُها (٥)
وفيهنَّ مِقْلاقُ الوِشاح كأنّها مَهاةٌ بتربانٍ طويلٌ عُقودُها (٦)
وكنتُ أذودُ العَيْنَ أنْ تَرِدَ البُكا فقد وردتْ ما كنتُ عنه أذودُها (٧)
هل الله عافٍ عن ذُنوبٍ تسَلَّفتْ أم اللهُ إنْ لم يَعْفُ عنها مُعيدُها ؟

(١) لحاه : لامه ، وعذله .

(٢) تحمّلوا : ارتحلوا . أَثْمَدُ البرقاء : اسم موضع كانت تنزل فيه من يتغزّل بها .

(٣) الصبابة : الحبّ والشوق . (٤) حبّة القلب : مهجته وسويداؤه . عهاد : عهود .

(٥) الخزامى : نوع من النباتات العطرية ، طيّب الرائحة . وترفّ : تختلج .

(٦) وشاحها : نسيج عريض مرصّع تشدّه المرأة بين عاتقها وكشْحَيْها ، يريد أنها هيفاء . مهاة : بقرة وحشية . تربان : اسم موضع . (٧) أذود : أدفع .

أسلوب الحسين بن مطير في شعره

الحسين بن مطير شاعر عاش ونشأ في البادية ، ولكنّه خالط أهـل المدينـة وعرف معالم الحاضرة ، وثقّف نفسَه ، وشعره صوّر كلّ هذه المسيرة الحيويّة .

١- فهو يكثر من الرجز ، ويجيد فيه إجادته في القصيد ، ومرَّ بنا أن أوّل ما نال به جائزة من الأمير معن بن زائدة أرجوزة ، ولا بأس أن أعرض شيئاً من أوّلها وشيئاً من قسم المديح . يقول في بدايتها :

حـديث ريّـا حبّـذا إدلالُهـــا

تسألُ عن حالي ومـــا ســؤالُها

عن امرىء قد شفّـهُ خيالُها (١)

وهْيَ شفــاءُ النَّفْـسِ لو تنالُها

ويقول فيها مادحاً :

سـلَّ سيــوفاً مُحْدَثــاً صِقــالُها

صــابٌ على أعــدائِه وَبَالُها (٢)

وعند مَعْنٍ ذي النّدى أمثالُها (٣)

٢- وله شعر متين ، مُحْكم السَّبْك ، يضاهي به الشـوامخَ الكبـار مـن الشـعراء المحافظين ، يقول في مدح المهدي :

إليـكَ أميـرَ المؤمنيــنِ تعسَّفـتْ ۞ بنا البيدَ هوجاءُ النَّجاءِ خَبُوبُ (٤)

---

(١) شفّه : أنحله .   (٢) صاب : مرّ . وبالها : نتيجتها الصّعبة .

(٣) الندى : الكرم .

(٤) تعسّفت : سارت في طريق ليس لـه معـالم . البيـد : الصحـارى . هوجـاء النجـاء : سريعة العَدْو . خبوب : خفيفة الحركة .

ولو لم يكنْ قدّامَها ما تقـاذفـتْ جبـالٌ بهـا مُغْبَـرَّةٌ وسهوبُ (١)
فتىً هو من غيـرِ التخلُّقِ ماجِـدٌ ومِنْ غيـر تـأديبِ الـرجال أديبُ
علا خَلْقُه خَلْقَ الـرجالِ ، وخُلْقُـه إذا ضاقَ أخلاقُ الرجالِ رحيبُ (٢)
إذا شـاهدَ القوّاد سـار أمامهم جـريءٌ على مـا يتّقُـون وثوبُ
وإنْ غابَ عنهم شاهدتهم مهابةٌ بها يُقْهَـر الأعـداءُ حيـن يغيـب
يعـفُّ ويستحيي إذا كـان خـالياً كمـا عـفَّ واستحيـا بحيـثُ رقيبُ

ونرى هذه الجزالة المحافظة أحياناً في الموضوعات الوجدانية ، على شاكلة قوله متغزّلاً :

كـأنّنـا يـا سُلَيْمى لم نُلِـمَّ بكـم وتـحـتنـا عَلَسِيَّـاتٌ مَـلاجِيـجُ (٣)
ولم نكلّمكِ في الحسادِ قد حضروا وفي الكلام عن الحاجات تَحلِيـجُ (٤)
ولم نقلْ يوم سارتْ عيسُكُم عنَقاً والدوسريُّ بجَنْب السَّاج مجروج (٥)
سقى سقى الله جيراناً لنا ظعنـوا لما دنَـا مـن رياض الحَزْن تهييج (٦)

---

(١) سهوب : أراض مستوية واسعة . واسم ((لم يكن)) أتى في البيت اللاحـق ، وهـو كلمة ((فتى)) .

(٢) رحيب : واسع .

(٣) لم نُلمّ : لم نزرْ ، لم نَطُفْ . علسيات : نوق مشتراة من بني علـس وكـانت عندهـم نوق نجيبة . ملاجيج : ذات أصوات وجلبة .

(٤) تحليج : تصفية وراحة .

(٥) العيس : النوق البيضاء . العَنَق : نـوع مـن السَّيْر السريع . السَّـاج : شـجر صلـب الخشب . الدوسري : الجمل الضخم الشديد . مجروج : قلق .

(٦) الحَزْن : الأرض الصخرية الصُّلبة .

وهذا المنحى من الغزل البدوي كان يجيدُه الحسين ، وإنْ كان أهل المدن يستغربون ما فيه من لغة وَحْشيّة غريبة .

٣- لكنّ للحسين غزلاً آخر رقيقاً ، طليّ الأسلوب ، ومرّت بنا بعض النمـاذج التي تصلح لذلك دليلاً ، وهذا مثال آخر ، يقول :

أيـنَ أهـلُ القِبابِ بالدَّهْناءِ … أينَ جيرانُنا على الأحساءِ (١)

جاورونا والأرضُ مُلْبَسةٌ نَـوْ … رَ الأقاحي تُجادُ بـالأنْـواءِ(٢)

كـلَّ يـومٍ بـأقحـوانٍ جديـدٍ … تضحكُ الأرضُ من بكا السَّماءِ

والأبيات فوقَ طلاوتها تنطوي على تصوير بديع ، فنَـوْرُ الأقـاحي ليس نباتاً على الأرض ، بل هو لباس ، وهـذه هـي أيضـاً تضحـك ، وتلكـم السـماء تبكي ، ويقابلُ الشاعر بين ضحك الأرض وبكاء السماء على نحو يسبق فيه أبـا تمّام في ظاهرة (نوافر الأضداد) التي تحدّث عنها الدكتور شوقي ضيف .

٤- فلا يبدو عند الحسين بن مطير أسلوب الشعر البـدوي فحسـب ، بـل نـرى عنده الأسلوب الحضريّ الذي تأثّر بالثقافة ، وانطلق يقلّب الفِكَر على أوجههـا ليغوص وراء المعاني الدقيقة ، ومن قديم عُرفت في المدُن سبُل الاحتيال أكـثر ممـا هي في البَدْو ، ونراه يقدّم لنا من خلال تجربته هذه الحِكَم :

تقلّبْتُ في الإخوانِ حتى عرفتُهمْ … ولا يعرفُ الإخـوانَ إلا خبيـرُهـا

فلا أَحْرِمُ الخلانَ حتى يُصارمـوا … وحتى يسيروا سيرةً لا أسيرُهـا (٣)

فلا تكُ مغروراً بمِسنَحةِ صـاحبٍ … مـن الـودّ لا تدري علامَ مصيرُها

---

(١) الدهناء والأحساء : منطقتان معروفتان .

(١) نَوْر : زهر . تجاد بالأنواء : ينزل عليها مطر كثير : النوء هنا : المطر الشديد .

(٢) أحرم : أقطع .

ويسترسل الحسين في عرض تجاربه في الحياة وتقلّبها على المرء من يُسْر إلى عُسْر ، أو كدورة بعد صَفْو :

وقد تغدرُ الدنيا فيُضحي غنيُّها فقيراً ، ويغْنَى بعد بؤسٍ فقيرُها
وكائن ترى من حالِ دنيا تغيّرتْ وحالٍ صفَا بعد اكدارٍ غديرُها
ومن طامعٍ في حاجةٍ لنْ ينالَها ومِنْ يائسٍ منها أتاه بشيرُها
فنفسك أكرمْ عن أمور كثيرةٍ فما لكَ نفسٌ بعدَها تستعيرُها

وهذه المقابلات وألوان الطّباق أو نوافر الأضداد نراها أيضاً في بعض مدائحه ، يقول في المهدي :

له يومُ بؤسٍ فيه للنّاسِ أبْؤُسٌ
ويومُ نعيمٍ فيه للناس أنْعُمُ
فيُمطرُ يومَ الجود من كفّه الندى
ويقطرُ يومَ البأس من كفّه الدَّم
ولو أنَّ يومَ البأسِ خلَّى عقابَه
على النَّاس لم يُصبحْ على الأرض مُجْرِمُ
ولو أنَّ يومَ الجودِ خلَّى يمينَه
على الناسِ لم يُصبح على الأرض مُعْدِمُ

وفي الأبيات مقابلةٌ وتعاكس في المعاني ، ورد العجز على الصدر ، ولفّ ونشر ، وتصوير بديع .. وكل ذلك يجعله سبّاقاً لأمثال مسلم بن الوليد وأبي تمام والمتنبي الذين أكثروا من هذه الأساليب .

شعراء العصر العباسي الأول

منصور النمري



إعداد وشرح
لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُوريَة - حَلَبْ - خَلفَ الفنْدُقِ السيّاحي

شارع هدى الشِعْرَاوي

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٢١٢٣٦١، ٠٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه واحترافه الأدب

هو منصور بن الزبرقان بن سلمة ، من قبيلة النمر بن قاسط من أهل الجزيرة الفراتية ، وهو تلميذ العتابي وراويته ، وعنه أخذ ، ومن بحره استقى . وهو الذي وصله بالفضل بن يحيى البرمكي ، فأنشده بعض المدائح ، فحظِيَ عنده ورفع أمره إلى الرشيد ، فوقع من نفسه خيرِ موقع .

تظاهره بالعباسيّة

عَرَفَ منصور النمري من خلال تقديم الرشيد لمروان بن أبي حفصة وتفضيله إيّاه على الشعراء بالجوائز ، أن أمير المؤمنين يريد أن يَسْلُكَ الشعراءُ مذهبَ مروان ، فنحا منصور نحوَه ، ولم يصرّح بهجاء خصوم العباسيّين ، ولم يسبّ صراحة ، ولكنّه حام ولم يقع ، وأومأ ولم يحقّق .

وأوّل ملتقى بين الرشيد ومنصور تمّ على يد البرامكة ، وكان منصور يسكن في الشام ، وكان مصافياً للبرامكة ، فكتب يسألُهم أن يذكروه للرشيد فذكروه ووصفوه ، فأحبّ أن يسمع كلامه ، فأمرهم بإقدامه ، فقدم ونزل عليهم ، فأخبروا الرشيد بموضعه فأمرهم بإحضاره فأنشده :

أميرَ المؤمنين إليكَ خُضنَا ... غِمارَ الهولِ مِنْ بلدٍ شَطِيرِ (١)

بِخُوصٍ كالأَهِلَّةِ خافقاتٍ ... تَلِينُ على السُّرَى وعلى الهجيرِ (٢)

---

(١) شطير : بعيد .

(٢) خوص : ضامرات ، غائرات الأعين . السُّرَى : السير ليلاً . الهجير : وقت الظهيرة .

حَمَلْنَ إليكَ أحمالاً ثِقالاً ومثلَ الصَّخرِ والدُّرِّ النَّثيرِ
فقد وَقَفَ المديحُ بمنتهاهُ وغايتِهِ وصارَ إلى المَصيرِ
إلى مَنْ لا يُشيرُ إلى سواهُ - إذا ذُكِرَ النَّدى - كفُّ المُشيرِ

مديح سياسي

طمع منصور بالثَّروة والوَفْرة ، فقال يمدح الرشيد ذاهباً إلى أنّه هو والعباسيين أحقّ الناس بالخلافة ، مع أنّه في حقيقته خصيم للنظرية العباسيّة في الحكم :

ما تنقضي حَسْرَةٌ منّي ولا جزَعُ إذا ذكرْتُ شباباً ليس يُرتَجَعُ
أودى الشبابُ وفاتتْني بِشِرَّتِهِ صروفُ دهرٍ وأيّام لها خِدَعُ (١)
ما كنتُ أُوفي شبابي كُنْهَ غِرّتِهِ حتى انقضى فإذا الدنيا له تَبَعُ (٢)
يا بنَ الأئمةِ من بعد النبيّ ويابنَ - الأوصياء ، أقرَّ النَّاسُ أم دفعوا
إنّ الخلافةَ كانتْ إرْثَ والدِكمْ مِنْ دون تَيْمٍ وعفوُ الله مُتَّسِعُ (٣)
وما لآل عليٍّ في إمارتكم حقٌّ ، وما لهمْ في إرْثكم طَمَعُ
العمّ أولى من ابن العمّ فاستمعوا قولَ النَّصيح ، فإنّ الحقَّ يُستَمَعُ

وهو يستْهلها بالحسرة على الشباب الذي مضى وانقضى إلى غير رجعة وعلم بانقضائه أن الحياة خدَّاعة ، فها هو ذا لم يكد يبدأ بالتمتّع بشبابه حتى انصرم ، وكأن الدنيا كلّها منوطة به ، فلا بَهْجة إلا في الشباب .

ثم يمدح الخليفة هارون الرشيد ، ويخاطبه بابن الأوصياء الذين كنفوا

---

(١) أودى : ذهب . شِرّة : حِدّة وَفَوْرة .

(٢) كنه : حقيقة . الغُرّة : أوّل الشباب وأكرمه .

(٣) تيم بن مرّة : رهط أبي بكر رضي الله عنه .

النبيّ صلى الله عليه وسلم في نشأته وفي ظروف الدعوة الأولى في مكّة ، ويرى أن العباس كان أولى من أبي بكر رضي الله عنهما بالخلافة ، وأولى أيضاً من الإمام علي كرّم الله وجهه ، لأنّ العمّ أهمّ من ابن العمّ ويمضي منصور النمري في مدح الرشيد ، مسبغاً عليه هالة من القُدْسيّة تليقُ به ، وبما شُهِرَ عنه من عَدْلٍ وجَلالٍ وورع ، يقول :

أيُّ امرىء باتَ مِنْ هارونَ في سخَطٍ ... فليس بالصَّلَوات الخَمْسِ يَنْتَفِعُ

إنّ المكارم والمعروفَ أوديةٌ ... أحلّكَ اللّهُ منها حيثُ تتّسِعُ

إذا رفعتَ امرأً فاللّهُ يرفعُه ... ومَنْ وضَعْتَ من الأقوام مُتَّضَعُ

ويعيدُ هذه المعاني الدينيّة في مدائحه للرشيد على شاكلة قوله وهو يشيد بطاعته لله تعالى ، وبقيامه على أمر المسلمين الذين يفدونه فداء :

بُورِكَ هارونُ من إمامٍ ... بطاعةِ اللّه ذو اعتصامِ

يَسْعى على أُمّةٍ تمنَّى ... أنْ لو تقِيْهِ من الحِمامِ (١)

لو استطاعتْ لقاسمتْهُ ... أعمارَها قِسْمةَ السِّهَامِ

واستعماله اسم ((هارون)) لا لقب الرشيد جعل الجاحظ يرى أن النمري كان يَعْني في مدائحه للرشيد أمير المؤمنين عليّاً رضي الله عنه ، وليس الرشيد نفسه ، وهو في ذلك يستلهم الحديث الشريف : عليّ مني بمنزلة هارون من موسى . والنمري يذكر الإمام علياً باسم هارون في مثل قوله :

آلُ الرسولِ خيارُ الناس كلِّهمُ ... وخيرُ آلِ رسولِ اللّهِ هارونُ

رضيتُ حكمَكَ لا أبغي به بدَلاً ... لأنَ حُكْمَكَ بالتّوفيق مَقْرُونُ

---

(١) الحِمام : الموت . والأبيات من مخلّع البسيط .

وكان النمري يحاول بطريقة سياسية محنّكة أن يستعطف الرشيد على آل البيت ، فهو يُثني عليه حين عفا عن أحد متمرّديهم الكبار ، وهو يحيى بن عبد الله ، وكان قد دعا إلى نفسه وبايعه فريق من أهل الحرمين واليمن ومصر ، ثم ذهب إلى المشرق فطلبه الرشيد ، فالتحقَ ببعض بلاد الوثنيّين في أواسط آسيا التي لم تكن قد أسلمتْ ، ورجعَ بعد سنتين وستّة أشهر ، إلى طبرستان فأعلن دعوته ، فلمّا هبّت عليه جيوش الرشيد ، طلب الأمان ، فعفا عنه الرشيد يقول النمري :

مَنَنْتَ على ابن عبد الله يحيى ... وكان من الحتوفِ على شفيرِ

ولو جاريتَ ما اقترفتْ يداهُ ... دَلِفْتَ له بقاصمةِ الظُّهورِ

يَدٌ لكَ في رقابِ بني عليّ ... ومَنٌ ليس بالمَنّ الصَّغيرِ

وإنَّكَ حين تبلُغُهم أذاةٌ ... – وإنْ ظَلموا – لَمُحتَرِقُ الضَّميرِ

فقال الرشيد : ما هذا ؟ قال منصور : شيء كان في نفسي منذ عشرين سنة لم أقدر على إظهاره فأظهرتُه بهذا البيت فقال الرشيد لوزيره الفضل بن الربيع خذ بيد النمري فأدخله بيت المال ودعْه يأخذُ ما يشاء . ففعل ، وكان في بيت المال سبع وعشرون بِدْرة فاحتملها النمري جميعاً .

على أن النمري كان ينظم أحياناً في آل البيت قصائد شديدة التعصّب لهم ، الأمر الذي كان يغضب الرشيد ، وقد حبسه من أجلها ذات مرّة فأخفاه الفضل بن الربيع في بيته ، وأمره أن يُطيل شَعْره ، ويُطيل تعرُّضَه للشمس ، ثمّ طلبه الرشيد ، فأدخلَ عليه أشعثَ أغبرَ ، وكان النمري قبيح الخِلْقة دميماً تزدريه الأعين فلمّا سردَ الرشيد قوله الذي يدينه تبرّأ منه وقال : إن هذا القول مكذوب عليّ . ولكنّي القائل :

يا منزلَ الحيِّ ذا المغاني أنعـمْ صباحاً على بِلاكا
هارونُ خيرُ مَنْ يُـرَجَّى لم يُطِعِ اللهَ مَنْ عصاكا

فأطلق سراحه ، فقال منصور يمدح الفضل بن الربيع :

رأيـتُ الملكَ مُـذْ آزرْ تَ قد قامتْ مَحانيه (١)
هو الأوحدُ في الفضـلِ فمـا يعـرف ثـانيـه

إمام الهدى

لو اطّلعْتَ على خفايا أمير المؤمنين الرشيد ، لوجَدتَ فيه حبَّ اغتنام الأجر ، وحبَّ الإسهام في كل خير ، وأيّما امرىء أضنتْه خطوب الأيام عوّضه الرشيد من فضل الله ، وإذا نزل غضبه بقوم لم يدع الله لهم من معين . وإن أمير المؤمنين - إذا امتطى مراكبه بدا كالبدر المنير ، وله عينان قويّتان نافذتان كأنهما عينا صقر :

إنّ لهـا رونَ إمـامِ الهدى كـنـزيْنِ من أجرٍ ومن بِرّ
يريشُ ما تَبْرِي الليالي ولا تريشْ أيديهنّ مايَبْرِي (٢)
كـأنّمـا البـدرُ على رحلِه ترمِيْـكَ منـه مُقْلتا صَقْرِ

مدح رجال الرشيد

مرّ بنا مدح منصور النمري للفضل بن الربيع وله مدائح أخرى أيضاً في الفضل وجعفر ولدَي يحيى البرمكي ، وله في جعفر رائية بارعة أنشده إياها عندما خرج على رأس جيش لإخماد فتنة في الشّام ، وكان الرشيد قد خيّره إما أن يخرج هو أو يخرج الرشيد نفسُه ، فقال له جعفر : بل أَقِيكَ بنفسي يا أميرَ

---

(١) آزر : أيّد . محانيه : معاطفه ومحالّ انحنائه .

(٢) يريش : يكسو .

المؤمنين . وخرج على رأس جيش جرّار إلى الشام فأخمد الفتنة ، وأعاد الهدوء إلى البلاد .

لقد اندلعت نيران الفتنة في الشام ، وآنَ لها أن تُخْمَد ، وتنطفىء بالأمواج العاتية التي انصبّت عليها من جعفر البرمكي ، فمحقتْها مَحْقاً ، وكان أمير المؤمنين الرشيد قد ندَب لهذه المهمّة جعفر بن يحيى البرمكي ، فرأب صدعهَا ، ورتَقَ فتْقَها :

لقد أُوقِدَتْ بالشَّام نيرانُ فتنةٍ فهذا أوانُ الشَّام تُخْمَدُ نارُها
إذا جاشَ مَوْج البحرِ من آلَ بَرْمَكٍ عليها خَبتْ شُهْبانُها وشَرَارُها (١)
رماها أميرُ المؤمنين بجعفرٍ وفيه تلاقَى صَدْعُها وانجبارُها (٢)

إن جعفر بن يحيى لرجل موفّق ، وقائد مظفّر ، عالي الهمّة قد حظي بقبول الناس ، ووَثِقَ به كل العرب من أهل الشمال ، وأهل الجنوب ، وقد سلّطه الله تعالى على أولي الشَّغَب ، فانصبَّ عليهم انصباباً ، ودمغَهم دَمْغاً :

رماها بمَيْمون النَّقِيبة ماجدٍ تراضى به قحطانُها ونزارُها (٣)
تدلَّتْ عليهم صخرةٌ برمكيّةٌ دَموغٌ لهامِ الناكثينَ انحدارُها (٤)

إنّ المهمّة التي نيطت بجعفر ، وأُسند إليه الاضطلاع بأعبائها لُمبلغةٌ إيّاه المجد ، ومذيقةٌ أصحاب الشّغب الدّمار ، وها هو ذا قد انطلق إلى تنفيذها

---

(١) شهبان : جمع شِهاب . ، وهوجِزْمة النار . شرار : جمع شرر . أراد ألسنة اللهب المندلعة من تمرّد الشاميّين .

(٢) تلاقى صدعها وانجبارها : على يد جعفر جُبر صَدْع الشام وانشقاقها .

(٣) ميمون : مبارك . النقيبة : الطبيعة ، السجيّة . ماجد : عالي الشمائل رفيع الشّيم .

(٤) دَموغ : تصيب أدمغة الثائرين . هام : رؤوس .

فخفقتْ راياته ، فخيرٌ لمن ثارَ ألا تغرّه الآمال الخداعة ، ولا يطيش عقلُه ، فإنّ أحداً لا يقف أمام قوات الرشيد الضخمة الجرّارة :

غَدَوْتَ تزجّي غايةً في رؤوسِها ... نجومُ الثريّا ، والمنايا ثمارُها (١)

إذا خفقتْ راياتُها وتجرّستْ ... بها الريحُ هالَ السّامعينَ انْبهارُها (٢)

فقولوا لأهل الشّام : لا يَسْلُبَنَّكُمْ ... حِجاكم طويلاتُ المُنى وقِصارُها (٣)

فإنّ أميرَ المؤمنين بنفسِهِ ... أتاكم ، وإلا نفسُه فخِيارُها (٤)

هو المَلِكُ المأمولُ للبِرّ والتُّقَى ... وصولاتُه لا يُستطاعُ خِطارُها (٥)

وكأنّما يريد الشاعر أن يرفع من قدْر ممدوحه جعفر البرمكي من خلال هذه الصفات الجليلة التي خلعها عليه ، فمضى يلقّبه بالملك ، ومنْ أجل ألا يَلْتبس الأمر ، فإن الشاعر يسارع إلى كشف اللّثام عن شخصيّة هذا الملك فيذكرُه بتعريف ((جامع مانع)) :

وزيرُ أمير المؤمنين وسيفُه ... وصَعْدَتُهُ والحربُ تَدْمَى شِفارُها (٦)

ومَنْ تُطْوَ أسرارُ الخليفةِ دونَه ... فعندك مأواها وأنتَ قرارُها

طبيبٌ بإحياء الأُمور إذا التوتْ ... من الدَّهر أعناقٌ فأنتَ جُبارُها (٧)

لقد نشأتْ بالشام منكَ غمامةٌ ... يُؤَمَّلُ جَدْوَاها ويُخْشَى دَمارُها (٨)

---

(١) تزجّي : تسوق . (٢) تجرّست : تنغّمتْ . انبهار : عظمة .

(٣) الحجا : العقل .

(٤) خيْارها : ما اختارتْه نفسُه ، وكان محلّ اختيارها .

(٥) خِطارها : المجازفة معها ، والمخاطرة بمصاولتها .

(٦) الصعدة : القناة تنبتُ مستوية فلا تحتاج إلى تثقيف . شفارها : نصالها .

(٧) جبارها : صلاحها .

(٨) جدوى : نفع .

فطوبى لأهل الشَّام يا ويْلَ أُمِّها　　أتاها حَياها أو أتاها بَوارُهـــا (١)
فـإنْ سالموا كانتْ غمامةُ نائلٍ　　وغيـــثٌ وإلا فـالدماءُ قِطارُها (٢)

مدح آل البيت

كان منصور النمري يعتقد بمقولـة الخـوارج الشّـراة ، ثـم دخـل الكوفـة وجالس هشام بن الحكم الرافضي ، فانتقل كما قال الجاحظ إلى الرَّفْض ، ومنـذ ذلك الوقت توفَّر على مديح آل البيت ، وإنْ كان ما دبّجـه في هـذا الغـرض لا يضاهي مدائـح الكميـت أو دعبـل .. ومـن يقـارن قصـائده في هـذه الصَّـدد بمدائحه للعباسيين يأخذْه العَجبُ كيف كان يبـدو أمـامهم بوجـه ومـن خلفهـم بوجه مغاير كلَّ المغايرة ، إذ يحاربهم ، ويدعو إلى الثورة عليهم . يقول :

آلُ النبـــيِّ ومَنْ يحبُّهُـــم　　يتطـــامنُـــون مخافةَ القتْلِ (٣)
أَمِنَ النّصارى واليهودُ وهمْ　　مـــن أمّةَ التوحيدِ في أزْلِ (٤)
هَـلَّا مَصبـــالِتُ ينصـرونهمْ　　بظُبا الصَّوارمِ والقَنا الذُّبْلِ (٥)

لاميّة أخرى

لمنصور النمري لامية أخرى يذمّ فيهـا النـاس ، لقعودهـم عـن نُصْـرة آل البيت ، ويعدّهم بمثابة الشَّاء ، لا همّ لها سوى أنْ ترعى ، وتأكل وتشرب ، ولا علاقة لها بعد ذلك بمن يُقْتل أو يُخذلُ ، حتى لو كـان الحسـين رضـي الله عنـه الذي كان المصاب فيه مصاباً للإسلام نفسه :

---

(١) طوبى : هنيئاً . حيا : غيث . بوار : هلاك .

(٢) نائل : خير وعطاء . قِطار : غيث .　(٣) يتطامنون : يَخْضعون وينحنون .

(٤) أزل : شدّة وضيق　　(٥) مصـالت : جمـع مصلـت وهـو المقـدام . ظبـا الصوارم : حدّ السّيوف . القنا : الرماح . الذُّبْل : القويّة ، الحادّة .

شــــاءً مـن النـــاس راتـعٌ هاملْ ... يعلّلـــونَ النفـــسَ بالباطــــلْ (١)

تُقتـــلُ ذريّـــــةُ النبـيِّ ويَـــرْ ... جُونَ جنـــانَ الخلــود للقـــاتِلْ

ويْلَــكَ يـــا قاتـلَ الحُسَيْنِ لقدْ ... بُؤْتِ بحَمْـــلٍ ينوءُ بالحاملْ (٢)

أيَّ حِبـــاءٍ حَبَـوْتَ أحمـد في ... حُفْــرتِــه مـن حرارةِ الثّاكِلْ (٣)

بــأيِّ وَجْـه تَـــلْقَى النبيَّ وقدْ ... دخـــلْتَ في قتلـــهِ مـع الداخِلْ

هلمَّ فاطـلبْ غـداً شـــفـــاعتَه ... أوْ لا فرِدْ حوضَه مع النّاهِلْ (٤)

ما الشكُّ عنـدي في حالِ قاتِلِه ... لكـــنّنـــي قد أشكُّ في الخاذلْ (٥)

نفســي فداءُ الحسين يومَ غَدا ... إلـــى المنـــايـــا غُـــدُوَّ لا قـــافِلْ

ذلِكَ يـومٌ أخْنَـــى بشَــفْــرتِـه ... على سنامِ الإسلامِ والكاهــلْ (٦)

ويمضي منصور في إظهار تشبّثه بحبّ آل البيت على الرغم من عذل العاذلين ، مشيراً إلى مذهبه السابق – مذهب الخوارج – الذي كان يدعوه إلى جفوة آل البيت ، فيقول :

وعــاذلي أنّنـــي أحـــبُّ بنـــي ... أحْمَدَ ، فالتُّـــربُ في فم العاذلْ

قـــد دِنْـــتُ ما دِينُكم عليه فما ... وصلْتُ من دِينكم إلى طائِلْ (٧)

دينُكمُ جَفْوَةُ النبيِّ ، وما الجافي ... – لآل النبــيِّ كـــالـــواصـــلْ

---

(١) رتعت الغنم : رعتْ كيف شاءت في خصب وسعة . هَمَلَتْ : سرحتْ بغير راع .

(٢) بُؤْت : رجعْتَ . ينوء بالحامل : يثقله . (٣) حباء : عطاء .

(٤) هلمّ : اسم فعل أمر بمعنى أسرعْ . ردْ : فعل أمر من وَرَدَ ، إذا ذهب إلى الماء . الناهل : الشّارب .

(٥) خذله : تخلّى عنه ولم ينصرْه .

(٦) أخنى : جارَ ، وأصل معناه : أفسد . شفْرة : حدّ السلاح . السَّنام : حدبة الجمل . الكاهل : أعلى الكتف . (٧) طائل : فضل يُنتفع .

مظلومـةٌ والنبـيُّ والـدُهـا ... تـديـرُ أرجـاءَ مقلـةٍ حافِلْ

ألا مصـاليـتُ يغضبون لهـا ... بسلَّةِ البيضِ والقنا الذابـلْ (١)

وصف الفرس

اصطحب الرشيد منصوراً إلى معركة في بلاد الروم ، وكان النصر حليف الرشيد ، ولكنّه مرّ بأخطار – شأن أي حرب – كادَ يقضي فيها . فقال الرشيد للنمري : كيف رأيت فرسي ؟ فقال :

مُضِـزٌ على فـأس اللِّجـام كأنّه ... إذا ما اشتكت أيدي اللِّجام يَطيرُ (٢)

فظلَّ على الصَّفْصافِ يومٌ تباشرتْ ... ضِبـاعٌ وذُؤبـانٌ بـه ونُسُور (٣)

فـأقسـمُ لا ينسَى لك اللهُ أجرَها ... إذا قُسِمَـتْ بيـن العبـاد أجـورُ

كان الفرس مستوفزاً ، زامّاً فمه على اللّجام ، في استعداد تامّ ، حتى إذا ما أهابَ به صاحبه أن يكرّ طار طيراناً ، ولقد كانت المعركة شديدة ، حتى طمعت سباع الوحش والطير في عُقْباها ولحوم قتلاها ، وما من شكّ أنّ الثبات في مثل هذه الساعات العصيبة لينطوي على أجر كبير .

ثم قال يستجديه :

---

(١) مصاليت : جمع مصلات ، وهو المقدام . سَلّة : سَلّ ، شَهْر السيف من غِمْد . البيض : السيوف . القنا : الرِمَاح .

(٢) مضزّ : زامّ . فأس اللجام : الحديدة التي في فم الفرس .

(٣) الصفصاف : المنطقة التي جرتْ فيها المعركة . ذؤبان : ذئاب .

إذا الغيثُ أكدى واقشعرَّتْ نجومُه فغيثُ أمير المؤمنين مَطِيرُ (١)
وما حلَّ هارونُ الخليفةُ بلدةً فأخْلَفَها غيثٌ وكاد يَضِيرُ (٢)

شعر منصور يكون سبباً لعفو الرشيد عن ((ربيعة))

كان بعض بني النمر ، قوم منصور يقولون : إن شاعراً منهم اسمه منصور ابن بُجْرة قال قصيدة مطلعها :

ما تنقضي حسرةٌ مني ، ولا جزعُ إذا ذكرتُ شباباً ليس يُرْتَجَعُ

وكان منصور بن بجرة موسراً لا يفِدُ إلى أحد ولا ينتجع بشعره ، وكان هارون الرشيد قد جرَّد السَّيْف في ربيعة ، فاستوهبَ النمري هذه القصيدة من صاحبها ابن بجرة ، فوهبها له ، فأرسلها النمري مع شخص إلى الرشيد ، لأنّ النّمري كان قبيح المنظر تقتحمه العين ، دميمَ الخِلْقة ، قصيراً ، أزرقٍ ، أحمر أعمش (٣) ، نحيفاً ، فلما بعث الرشيد وراءه ردّه الحَجَبَةُ لهذه الصفات ، قال منصور بن الزبرقان النمري : ((فردَّني (الحاجب) ، وأمرَ بإخراجي فأُخرجْتُ ، فمرَّ بي ذاتَ يوم يزيد بن مزيد الشيباني ، فصِحْتُ به : يا أبا خالد أنا رجل من عشيرتك ، وقد لحقني ضيم ، وعُذْتُ بك . فوقف ، فعرّفْته خبري وسألته أنْ يذكرني إذا مرَّتْ به رقعتي ، ويتلطّف في إيصالي ، ففعل ذلك فلمّا دخلتُ على أمير المؤمنين أنشدته :

---

(١) أكدى الغيث : مَنَع ، ولم يسقط مطره . إذا أمسك قطرُ السماء لم يُمْسِكْ مطر الرشيد . وهذه من مبالغات النّمري المسرفة .

(٢) أخلف الغيث : لم يمطر . كاد يضير : كاد يُتْلِفُ لغزارته .

(٣) أعمش : ضعيف البصر ، سائل العين .

وقد علم العدوان والجَوْرُ والخَنـا   بـأنّـكَ عَيّـافٌ لهنّ مُـزَايـلُ (١)
لنـا منكَ أرحام ، ونعتدُّ طـاعـةً   وبأساً إذا اصْطَكّ القنا والقنابِـل (٢)
وما يحفظُ الأنسابَ مثلكَ حـافـظٌ   ولا يصـلُ الأرحـام مثلكَ واصِـلُ
جعلْناكَ ، فامنعْنا ، معَاذاً ومفزَعاً   لنا حين عضتنا الخطوبُ الجلائـلُ (٣)

فقال الرشيد : يُرْفع السيفُ عن ربيعة ، ويُحْسَنُ إليهم .

مدحه ليزيد ، واستمناحه

فيزيد بن مزيد كان ذات يوم وساطة منصـور في الدخـول علـى الرشـيد وإضافةً إلى ذلك كان محلّ أمل منصور في الإعطاء والإكساب ، ومـن هنـا نـراه يشيد به وبأنّه مفخرة لبني شيبان ، وبأنّـه السَّباق في السـخاء وأنّـه لا يُجَابَـهُ في القتال :

---

(١) الخَنا : الفحش . عيَاف : ترّاك . مزايل : مفارق .

(٢) القنابل : جمع قنبلة ، وهي الطائفة من الناس أو الخيل .

(٣) معاذ : منجى . الجلائل : العظيمة .

لو لم يكنْ لبني شيبانَ من حسبٍ سوى يزيدَ لفاتوا الناس في الحسَبِ
إنّ أبا خالدٍ لمّا جرى وجـــرَتْ خيلُ النّدى أحرز الأولى من القصَبِ
لا تَقْـــرَبَـــنَّ يـزيداً عند صولتِـه لكنْ إذا ما اجتبَى للجودِ فاقتربِ (١)

أسلوبه

كان منصور النمري ممّن يُعْنَـون بصناعـة أشعارهم ، فـإذا قـال شيئاً لم يُذِعْهُ إلا بعد أن يعدّل فيه ، ويتلافى كل موطـنٍ يحتـاج إلى ترقيـش وتحكيـك . والذي يقرأ أشعاره بتأمّل يجد آثار هذه الصنعة باديـةً في طائفـة منهـا علـى نحـو واضح ، يقول وهو يردُّ على العتّابي إذ بكى نداماه وأيام لهوه لمّا أسنّ :

أوحشـــة نَدْمَانَيْكَ تبكي فربما تـــلاقيهما ، والحِلْمُ عِنك عَزُوبُ (٢)
وإنّ امرأً أودى السَمَاعُ بلُبِّـــه لَعُـريـــانُ مـن ثوب الفَلاح سَلِيبُ (٣)

(١) اجتبى : قعد .

(٢) النّدْمان : الذي يحتسي الخمر مع السّكْران ، عزوب : غائب .

(٣) أودى : ذهب .

فما كان له أن يتأسّف على خلوّ مكانه بين الشاربين والمطروبين وما دامتْ نفسُه تحنّ إلى أيام اللهو فقد يعود إلى ما كان عليه ، ولو شاخ وهرِم لكنْ فليعلمْ أنهَ - إن فَعَلَ - خاسر ، طائش . وألفاظه - كما ترى - منتقاة وجملُه مُحْكَمة ، والعاطفة حيّة ، وهي كراهة حياة اللّهْو لَمنْ كان في سنّ العتابي . وشخّص السماع فهو يذهب بالعقل ، وجسّد الفلاح فها هو ذا يرتدي ثوباً ، أو هو نفسه ثوب .

ومات منصور النمري بحدود سنة / ١٩٢ /هـ .

تاريخ شعراء العربية

شعراء العصر العباسي الأول

علي بن جبلة العكوك



إعداد وشرح

لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُورِيَة - حَلَبْ - خلفَ الفُنْدُقِ السِّياحِي

شارع هدى الشِعْرَاوِيْ

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٠٢١،٢١٢٣٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

نــبــذة عــنــه

هو أبو الحسن عليُّ بنُ جَبَلَة بن عبد الله الأنْباريّ ، المعروف بالعَكَوَّك ، وأصل أسرته من مدينة الأنبار (١) التي فتحها سيّدُنا خالد بن الوليـد رضي الله عنه ، وهي بلدة عراقية تُعرف اليوم بالرَّمادي، ومعنى العَكَوَّك : القصير السَّمين ، يقال إن الأصمعيّ لقّبه بذلك .

وُلِدَ العَكَوَّك في بغداد سنة /١٦٠/ ، أسود أكمه (٢) ، فحدَّدتْ آفته وِجْهته ، فصار يتردّد على حلقات العلم والأدب ، وكانت له مَوْهبة شعرية فتفتّقَتْ ، فتوجّه بها إلى بعض القادة والوزراء يمدحهم ، وينال عطاياهم ، مثل أبي دُلَف العجْلي ، وحميد بن عبد الحميد الطوسي ، والد القائد محمد بن حميد الذي قُتل في حرب بابك ورثاه أبو تمّام برائيّته الذائعة،والوزير الحسن بن سهل .

نهايته

كان العكوّكُ يغالي في مدح مَنْ يطمع بعطاياهم مُغالاةً مُفْرطة ، تبلغ حدّ وصفهم بخصال ليست لهم ، ولاتنطبق عليهم ، وإنما هي من صفات الله عزّ

---

(١) وقيل : هو علي بن جبلة الأبناوي أو النبويّ ، من أبناء الشيعة الخراسانية .

(٢) أكمه : أعمى منذ ولادته .

وجلّ التي لاينازعه فيها – على وجه الحقيقة – منازع ، يقول العَكَوَّكُ في مدح أبي دُلف العجلي (واسم أبي دلف : القاسم بن عيسى) :

أنتَ الـذي تُـنزلُ الأيامَ منزلَها وتنقلُ النَّاسَ مِنْ حال إلى حالِ
ومـامددْتَ مدى طَرْفٍ إلى أحَدٍ إلاّ قَضَـيْـتَ بـأرْزاقٍ وآجـالِ

فالذي يتصرّف بالزمـان والمكـان ، وبالنـاس ، هـو ا لله سبحانه ، وهـو الخالق الرازق ، المحيي المميت ، ومَن نَسَب شيئاً من ذلك إلى غير ا لله تعالى فقـد أساء وأخطأ ، وجانَب الحقّ ، والعَكَوَّكُ بهذه المغالاة المستنكرةِ قد سبقَ شـاعراً مَغْربياً عُرِفَ بها ، وهو ابن هانئ الأندلسي الذي قال في المعزّ العُبَيْدي :

مـا شـئـتَ ، لاماشاءتِ الأقدارُ فاحكمْ فأنتَ الواحدُ القَهَّارُ

ولم يكن الخليفةُ (١) ليذرَ العَكَوَّك يدّعـي مـا يشـاء ، فـأمر بقتلـه سـنة /٢١٣ أو ٢١٤/ هـ .

إجادته الشعر

أسلوب العكوّك مطبوع ، فصيح الألفاظ ، متين التركيب ، متصرّف في المعاني ، مع سهولة وحُسْن صناعـة ، ولم يقـف عنـد المـدح فقـط ، إذْ لـه رثـاء ووصف وغزل .

---

(١) هو المأمون بن الرشيد .

مِدْحتُه في أبي دلف

كان العكوّك في أَوْج طموحه إلى الشُّهْرة والكَسْب ، إذْ أوقع أبو دلـف العجلي بثائر متمرّد على الخلافة العباسيّة اسمه قرقور ، فدخل عليه العَكَوَّكُ بهيئة رَثّة ، في جملة مَنْ دخل من الشـعراء ، وألقـى رائيـة بديعـة في مدحـه وتصويـره خصاله . أوّلها :

ذادَ ورِدَ الغَيِّ عَنْ صدرِهْ فارعوى واللَّهْوُ من وَطَرِهْ (١)

وفي رأي ابـن المعـتز أنّ هـذه القصيـدة ، أو أبياتـاً منهـا ، كـانتْ سـبب غضب المأمون على العكوَّك ، قال ابن المعتزّ : لما بلغ المأمون قول علي بن جبلـة في أبي دلف :

كلُّ مَنْ في الأرضِ من عَـربٍ بيـن باديـةٍ إلـى حـضَـرهْ (٢)
مـسـتـعيرٌ مـنـك مَـكْرُمَةً يَكْـتَـسِـبها يـومَ مُفْتَخرِهْ

استشـاط مـن ذلـك وغضـب ، وقـال : يزعـم أنّـا لانعـرف مكرمـة إلاّ مستعارة من أبي دلف ، وطلبه فهرب إلى الجزيرة ، فكتب في طلبه فحُمِلَ إليه ، فلّما صار بين يديه قال : أنتَ القائل للقاسم بن عليّ (أبي دلف) :

كلُّ مَنْ في الأرضِ من عَـربٍ بـين بـاديـه ومحتـضـره
مـسـتـعيرٌ مـنـك مَـكْرُمَةً يَكْـتَـسِـبها يـومَ مُفْتَخرِهْ

---

(١) ذاد : دفع . ارعوى : كفّ . وطر : حاجة .

(٢) باديْه : سُكّان البادية . حضره : أهل المدن .

فقال : يا أميرَ المؤمنين ، عَنيتُ أشكال قاسم وأشباهه ، فأمّا أنتم فقد أتاكم الله بالفضل عن سائر عباده ، لأنّه اختّصكم بالفضل والنبوّة والكتاب والحكمة ، وجمع لكم إلى ذلك الخلافة والمُلْك . وما زال يستعطفه حتى عفا عنه .

وكما زعّم ابن المعتزّ أن المأمون نقم على بعض مافي هذه الرائية ، امتعض أيضاً حميد عن عبد الحميد الطوسي من مغالاة العكوَّك ، وقال له إذْ دخل عليه لينشده : وما عسيتَ أنْ تقول فينا ؟ وهل أبقيتَ لأحدٍ مدْحاً بعد قولك في أبي دلف :

إنّما الدُّنْيا أبو دُلَفٍ　　　بينَ مبدَاه ومحتضَرِهْ

فإذا ولّى أبو دلفٍ　　　ولّت الدنيا على أثَرِهْ

فقال علي بن جبلة العَكوَّك : أصلحَ اللّهُ الأمير ، ما قلت فيكَ أحسن .

قال حميد : ماذا قلت ؟ قال العكوّك :

إنّما الدُّنيا حُمَيْدٌ　　　وأياديه الجِسامُ

فإذا ولّى حُمَيْدٌ　　　فعلى الدُّنْيا السّلامُ

الرائيّة

تبدأ القصيدة بذكر الشَّيْب والغزل ، مقلّداً غيرَه من الشعراء فيقول :

ذادَ وِرْدَ الغَيِّ عنْ صدَرِهْ　　　فارعوى واللَّهْوُ مِنْ وَطَرِهْ (١)

وأبتْ إلا الوقارَ لَهُ　　　ضحكاتُ الشَّيْب في شَعَرِهْ (٢)

---

(١) الوطر : الحاجة . ردّ الضلالة من حيثُ أتتْ ، وكفّ عن اللهو ، مع أنّ نفسه تطلبه ، والورْد : إتيان الماء . والصدر : الرجوع منه .

(٢) بيّن أنّ سبب عزوفه عن طلب الملّذات هو نزول الشيب به .

نَدَمي أنَّ الشبابَ مضَى لم أبلِّغه مدى أشَرِهْ (١)
وانقضتْ أيّامُه سَلَماً لم أهِجْ حَرْباً على غِيَرِه (٢)
حُسِرَتْ عنّي بشاشتُه وذوى اليانعُ من ثمرِه (٣)
جارتا ليس الشبابُ لمنْ راح محنيّاً على كِبَرِه
طرقَتْ تَلْحَى فقلتُ لها : مَذْهبٌ ما أنتِ مِنْ سُورَه (٤)

ثم يصف رحلته إليه ، وما وقع له من مصاعب وهو يتجشّمها ، وبعد ذلك يصل إلى مديحه :

دعْ جَدا قحطانَ أو مُضَرٍ في يمانيهِ وفي مُضَرِهْ (٥)
وامتدحْ من وائل رجلاً عَصَرُ الآفاقِ من عُصُره (٦)
المنايا في مقانبهِ والعطايا في ذَرا حُجَرِهْ (٧)
خَضَمَ الدنيا بنائلِهِ وأقال الدَّيْنَ مِنْ عُثَرِهْ (٨)

---

(١) أشره : ترفه وبطره .

(٢) غِيَرَه : أحداثه المتغيّرة ، أحواله .

(٣) ذوى : ذبل . (٤) تلحَى : تلوم وتعنّف . السُّورة : المنزلة .

(٥) جدا : عطاء .

(٦) عصر الآفاق : ملجأ . غبار . يريد أن أهل الأرض كلّهم من عشيرته . وهذه كناية عن منعَتهِ .

(٧) المقانب : أكفّ الأسود . ذار : فناء الدار .

(٨) خضم : أعطى . نائل : عطاء . أقال الدين من عُثره : أنهض الدين من عثرته بقتال أعدائه وروي : هضم : أي وَسِعَ .

مَـلِكٌ تـنـدَى أنـامِـلُهُ كابتسام الرَّوْضِ عن زَهَرِهْ (١)
مـُسْـتـهـلّ عن مواهبِه كانبلاج النَّـوْءِ عَـنْ مَطَرِهْ (٢)
عقـــدَ الجِدُّ الأمورَ بهِ حيـن لـم يـنـهَضْ بمتَّعِرِهْ (٣)
فـكفاها واسـتـقلّ بها لم تَصِفْ وَهْناً قـوى مَرِرِه (٤)
جـبـل عَـزّتْ مناكبُـه أمنتْ عـدنـانُ في ثُـغُـرِه (٥)
إنَّـمـا الـدنيا أبو دُلَفٍ بيـن مَبـداه ومُحتضَـرِه
فـإذا ولّى أبـو دُلَـفٍ ولّـت الـدنـيـا علـى أثَرِهْ

ثم يعرض لإخماد أبي دلـف تمـرُّدَ الثـائر قرقـور ، فيتحـدّث عـن الجيـش وعبوس الخيل ، وقِرى الطير من جثث الأعداء .. يقول :

يا دواءَ الأرضِ إن فسدتْ ومجيرَ اليُسْرِ من عُسُرِهْ
رُبَّ ضافي الأمْنِ في وَزَرٍ قد أبَتَّ الخوفَ في وَزَرِهْ (٦)
وزحـوفٍ في مـواكـبـه كصياح الحَشْرِ في أمَرِهْ (٧)
زرتَهُ والخيلُ عـابِـسَـةٌ تَحمِلُ البُؤْسَى إلى عُقُرِهْ (٨)

---

(١) تندى : تجود .

(٢) مستهلّ : متدفق . انبلاج النَّوْء عن مطره : سقوط المطر بحلول أوانه .

(٣) متّعر : من الوعورة . (٤) مرَر : جمع مِرَّة ، وهي القوّة . وهنْ ضعف .

(٥) منكب الجبل : أعلاه . كمكان الكتفين عند الإنسان . الثُّغُر جمع ثَغْرة ، وهي المكان المتاخم للعدوّ .

(٦) ضافي الأمن : يعيش في أمن وريف . وزر: ملجأ.

(٧) أمَرِه : خلقه الكثيرين . (٨) عُقرِه : داره ، أو وسط داره .

خارجاتٍ تحت رايتِها كخروج الطَّير مِنْ وُكُرِهْ

فأبحْتَ الليلَ عَقْوَتَهُ وقَرَيْتَ الطيرَ مِنْ جَزَرِهْ (١)

وأسلوب القصيدة بارع ، ولم يكن العكوّك قبلها ذا شُهْرة واسعة ، ومِنْ هنا ساورت الرِّيْبة أهل المجلس الذين كانوا عند أبي دُلَف ، وكانت ملابس الشاعر رثّة ، وعمره في مُبْتَدَئِه ، فلّما أحسّن منهم ضعف الثّقة في صناعته الشعرية وعَزْو كلامه إليه طلبَ إليهم أن يمتحنوه ، فقالوا إذاً صِفْ لنا فرس أبي دلف ، فسألهم أن يبعثوا معه بعض من يثقون به ، ففعلوا، فقال له – ومرّ بنا أنّ العكوك كان أعمى : أين الفرس ؟ فأوصله إليه ، فجعل يتحسّسه بيده ، ثم قعد وأملى عليه قصيدته :

رِيعتْ لمنشورٍ على مَفْرِقهِ ذُمٌّ لها عَهْدُ الصِّبا ثُمّ انْتَسبْ

وهي قصيدة فيها غريبٌ كثير ، وإجادة لوصف الفرس . لكنّ رائيّة العكَوَّك ذاعتْ ، ونال بها من أبي دلف عطايا وافرة ، وقال عبد الله بن المعتزّ : لقد سارتْ هذه (الرائية) في أبي دلف سَيْرَ الشمس والرِّيح . وقال فيها أيضاً : (هي) القصيدة الغرّاء التي سارت في العرب والعجم .

العكوك ينسجها على منوال قصيدة لامرئ القيس

قال خلف بن محمد الطّائي للعكَوَّك : عارضْتَ أبا نواس في قصيدته :

أيُّها المنتابُ من عفُرِهْ لستَ من ليلي ولا سَمَرِهْ

---

(١) العَقْوة : المكان الفسيح أمام الدار : الجزَر : اللحم يريد أشلاءه .

فاستنكر العكوّك ، وقال : إنّما عارضْتُ امرأ القيس في قوله :

رُبَّ رامٍ مِنْ بني ثُعَـلٍ　　　مُخْرِجٍ كفَّيْه مِنْ سُتُرِهْ

عبد الله بن طاهر ينقم عليه مبالغته

مرَّ بنا استنكار المأمون وحميد الطوسي لمبالغة العكوّك حين جعل الدنيا أبا دلف ، فإذا ذهبَ ذهَبتْ ، وليس البشر - كل البشر - إذاً شيئاً . وممن أنكر عليه غلوّه أيضاً عبد الله بن طاهر ، فعندما ذهب إليه العكوّك ليمدحه رفضَ أن يستمع إليه ، وقال له : ألسْت القائل ؟ : ((إنما الدنيا أبو دلف)) ... قال : بلى . قال : فما الذي جاء بك إلينا ، وعدل بك عن الدنيا التي زعمتَ ؟ ارجعْ من حيث جئت . فعاد العَكَوَّك ومرّ بأبي دُلَف ، وأعلمه بالخبر ، فأعطاه حتى أرضاه .

ونرى العكَوَّك يعرّض بعبد الله بن طاهر ، فيقول :

أبو دُلَفِ الخيراتِ أَنْدَاهُم يَدا　　　وأبسطُ معروفاً وأكرمُ مَحْتِدا (١)
تراثُ أبيه عن أبيه وجدّه　　　وكلّ امرئ يجري على ما تعوّدا (٢)
ولستُ بشاكٍ غيرَه لنقيصةٍ　　　ولكنّما الممدوحُ مَنْ كان أمْجَدا

---

(١) أندى : أكرم . محتد : أصل .

(٢) أخذ المتنبي هذا المعنى فقال :

لكلّ امرئٍ من دهرِه ما تعوّدا　　　وعادةُ سيف الدولة الطّعْنُ في العدا

العكوّك يحتجب عن أبي دلف

نال العكوّك من أبي دلف خاصّة مالاً يكفيه مدى حياته ، ويزيد ، فأراد – وخطرَ في بالـه مـا يخطـر في بـال النسـاء أحيانـاً مـن حـبّ استـماع كلمـات أزواجهنّ في التعلّق بهنّ – أراد أن يحتجب عن أبي دلـف لبعـض الوقـت لـيرى ماذا يصنع ، فأرسل عندئذ أبو دلف أخاه معقـلاً إلى الشـاعر قـائلاً : إن الأمـير يقول لك : لَمَ هجرْتَنا وقعدْتَ عنا ؟ إنْ كنت رأيتَ تقصيراً فيما مضى فاعذُرْنا فإنّا نتلافاه في المستقبل . فكتب إليه :

هجرتُكَ لم أهجْرك من كُفْرِ نعمـةٍ ... وهل يُرتَجى نَيْـلُ الزيـادة بــالكُفْـرِ
ولـكـنّـنـي لـمّـا أتـيـتك زائـــراً ... وأفرطْتَ في برّي عجزْتُ عن الشُكْرِ
فَـمِ الآنَ لا آتـيـــكَ إلاّ مـسلّمـــاً ... أزورُكَ في الشهرينْ يوماً أو الشّهْرِ(١)
فـــإنْ زدتَـني برّاً تزيّدْتُ جفـــوةً ... فلا نـلـتـقي طولَ الحياة إلى الحَشْرِ

مدح الطوسي ورثاؤه

من ممدوحي علي بن جبلة القائدُ المحنّك حميد الطوسي ، وفيه يقول :

فأنتَ الغيثُ في السِّلْمِ ... وأنتَ الموتُ في الحَرْبِ
وأنتَ الجامعُ الفـــارِ ... قُ بيــن البُعْـد والقُرْبِ
بكَ اللهُ تلافى الـنـــا ... سَ بعــد العَثْــر والنَّكْبِ (٢)

---

(١) فَمِ الآن : فمن الآنَ .

(٢) العَثر : : التعثر . النَّكْب : النَّكَبات والمصائب .

وردَّ البيضَ والبيـضَ إلى الأغـماد والحُجْب (١)

بإقدامك فـي الحَـرْب وإطعامِـكَ في اللَّـزْب (٢)

فكمْ أمَّنْتَ من خَطْـبٍ وكم أيَّمْتَ مِنْ خِطْـب (٣)

تنـاهتْ بكَ قَحْطـانُ إلى الغايةِ والحسَـبِ

ففاتتْ شرَفَ الأحيـا ءِ فوت الرَّأْسِ للعَجْبِ (٤)

ويموتُ حميد سنة /٢١٠/ هـ ، فـأحسَّ بفَقـدِهِ ، إذْ كـان حُميـد يعطيـه على القصيدة الواحدة مائتيَ ألف درهم ،

فقال يرثيه بهذه العينيّة :

أللدَّهْرِ تبكي أم على الدهر تَجْزَعُ وما صاحبُ الأيام إلا مفَّجَعُ (٥)

والمطلع يذكرنا بمطلع أبي ذؤيب الهذلي :

أمِنَ المَنُونِ ورَيْبِها تتوجَّعُ والدَّهْرُ ليس بمُتْعَبٍ مَنْ يَجْزَعُ

ويمضي العكوَّك مصوّراً حُزْنَه في ثوب من الحكمة :

تَعزَّ بمـا عـزِّيْـتَ غيرِكِ إنّهـا سـهـامُ المنايا حائمـاتٌ ووُقَّـعُ

أُصِبْنا بيومٍ في حُميدٍ لو انّـه أصَابَ عروشَ الدَّهْرِ ظَلَّت تَضَعْضَعُ

---

(١) البيض (الأولى) : السيوف ، ردّها إلى أغمادها . والبيض (الثانية) : النسـاء ، ردّهـن إلى بيوتهن وأستارهّن ، . أزال الله تعالى الفوضى بحميد ، فوضعَ كل شيء في نصابه .

(٢) اللّزْب : الجَدْب والقَحْط .

(٣) خَطْب : مصاب . خِطب : زوجة ، أيّمها بقتل حليلها .

(٤) عَجْبُ الذّنَب : آخر سُلامى من أسفل العمود الفقري .

(٥) تجزع : تضجر وتحزن . مفجّع : تنزل به الفجائع .

وأدَّبنا ما أدّبَ الـنــاسَ قــبـلــنـــــا — ولكنّــه لـم يَـبْـقَ للصبر مَوْضِــعُ

حِمــامٌ رمــاهُ من مواضــع أمْنـــــهِ — حِمامٌ ، كذاك الخطْبُ بالخطب يُقْرَعُ (١)

لقــد أدركتْ فينا المنايــا بثأرهـــا — وحلّتْ بخطب وَهْيُهُ ليس يُرقَــــعُ (٢)

نَعــاءِ حُمَيْداً للسَّــرايــا إذا غَــــدتْ — تُذادُ بأطراف الرمــاح وتُـــــوزَعُ (٣)

وللمُرْهَقِ المكروبِ ضاقتْ بأمــــره — فلم يدر في حوماتها كيف يَصنَــعُ (٤)

وللبِيض خَلّتْها البُعول ولم يـــــدعْ — لها غيرَه داعي الصباح المفــزَّعُ (٥)

وكيفَ التقى مثوى من الأرضِ ضيّقٌ — على جبل كانت به الأرضُ تُمنــع (٦)

هوى جَبَلُ الدنيا المنيعُ وغيثُـهـا الـ — مريع وحاميهـا الـكمِيُّ المُشَــيَّعُ (٧)

على أي شَجْوٍ تشتكي النفسُ بعــدَه — إلى شَجْوه ، أو يذخَرُ الدمعَ مَدْمَعُ (٨)

ألمْ تــرَ أنَّ الـنــفسَ حال ضيــاؤُها — عليَّ وأضحى لونها وهو أسْــفَـعُ (٩)

وأوحـشـت الـدنيـا وأودى بهـاؤُها — وأجْدَبَ مرعاها الذي كان يَمْــرَعُ (١٠)

وقــــد كانت الدنيا به مطمئـنـــةً — فـقـد جعـلـتْ أوتــادُها تتقلّعُ (١١)

---

(١) أبو دلف كالمنيّة ، ولكنّ الموت تسلّط عليه ، فأودى به .

(٢) الوَهْي : الضعف والفتق .

(٣) نعاءِ :اسم فعل أمر (قياسي) بمعنى انْعَ . تُوْزَع . تزْجر ، أو تُرتّبُ وتُصَفّ للحرب .

(٤) حوماتها : ساحاتها .

(٥) كان يعين النساء اللاتي قُتل أزواجهنّ في المعارك.

(٦)مثوى : مقام ، يريد القبر .

(٧) المنيع : القويّ . المربع : المُنبت الخصيب . الكميّ : الشجاع . مشيّع : مؤيّد .

(٨) شَجْو : مُصيبة ، حزن ، يذْخَرُ : يّدخر .

(٩) أسفع : قاتم ، أسود . اكتأبت نفسُه فاسودّت لاسوداد الدنيا في عينها .

(١٠) أودى : ذهب . أجدب : أَقْفر . يَمْرَعُ : يخصب بكثرة الكلأ .

(١١) اضطربت حياة العكوّك بعد موت الطوسي ، و لم تعدْ مستقرّة .

بكى فـقـد ه روح الحيـاة كما بكى ندَاهُ النَّدَى وابنُ السبيل المُدَمَّـــعُ (١)
وأيـقـظ أجفاناً وكان لها الـكــرى ونامتْ عيونٌ لم تكنْ قبل تَهْجَــعُ (٢)
ولكنَّه مِـقْـدارُ يـــومٍ ثـــوى بــه لكل امرئ منه نِهالٌ وَمَشْـــرَعُ (٣)

وعاطفة الشاعر متدفّقة حيّة ، ولكنّ المبالغة المسْرفة من مثالب أسـلوبه ، وهي مبالغةٌ تتضّح إذ يقول أيضاً :

وفارقتِ البيض الخَدورَ وأُبرزتْ عواطلَ حَسْرَى بعدَه لاتقنَّعُ (٤)

فقد خرجت النسوة - كمـا يقـول - مـن بيوتهـن سـوافرَ قـد أنسـاهنّ الحُزنْ أن يَتَقَنّعْنَ ، وكأنه يريد إحياء صورة المرأة الجاهليـة عندمـا كـانت تُوْتَـرُ بفقيد .

مقدرته على الخوض في الهجاء

كما كان العكوَّكُ يستطيع المَدحْ كان يستطيع الهَجْوَ أيضاً ، ويدلّ علـى ذلك أن أبا دلف نفسه قال للعكوَّك يوماً وهو يداعبه : إنك تُحْسِنُ أن تمـدح ، ولا تحسن أن تهجو ، فقال له الشاعر : الهَدْم أيسرُ من البنـاء ، وأردف قـائلاً ، ليثبت ما ذكر :

---

(١) لم يعد للحياة بعده معنى ، وبكى عليه السَّخاء ، لأنه كان له صاحباً ، وابنُ السبيل لأنّه كان له مُسْعفاً .

(٢) وبموتـه أصـابَ الأرق مَـنْ يغمُرهـم بعطائـه ، فـانقطع مـوردُه عنهـم ، بينمـا ارتـاح حاسدوه فناموا قريري الأعين .

(٣) لكنّ قدرَه نزل في يوم مماته ، وقضى عليه بالوفـاة ، ولا بـدّ لكـلّ امـرئٍ أن يشـرب ذات يوم من مائه جُرعة ، ويذوق طعم المنيّة .

(٤) البيض : النساء . الخدور : البيوت . عواطل : خلعن زينتهــن وحليّهـن . حسـرى : سوافر حاسرات عن رؤوسهن ووجوههن .

أبو دُلَفٍ كالـطَّبْل يذهبُ جَوْفُهُ	وباطنُه خِلْوٌ من الخير أَخْرَبُ
أبا دُلَفٍ يا أكـذبَ الناسِ كُلِّهمْ	سوايَ فإنّي في مديحِكَ أَكْذَبُ

ولولا أنه هجاه ممازحة لَهدم كل مدائحه فيه .

واشتعل الرأس شيباً

للعكوَّك أشعار في عدّة أغراض غير المديح ، لكنّ المديح أهمّها ، فهـو – على الرغم من أنه كـان مكفوفـاً – يعـرف كيـف يصـف ، فهـو يشبّه انحسـار الشباب ، ومجيء الشيب بعده بأمل نضير يقضمه موتٌ مُبِير :

كأنَّ حُسُـورَ الصِّـبـا	عن الشَّيب حين اشتعلْ (١)
زهـــا أمـلٍ مُـونّــقٍ	أطـلّ عـلـيـه أجـلْ (٢)

حـكـمـة

في الشباب حِدّة ، تحول في الشيخوخة حكمةً ورزانة ، وكـل مـن يولـد فهـو ميّت ، لأنه في طريق الموت ، ولابـدّ أن يمـرّ بـه ، فكأنّمـا هـو مـن لـوازم الموْت ، وبضاعة من بضائعه ، ومثله كمثل السهم والهدف الذي يُصَوّب نحوه ، فليس يمسكه عنه إلاّ أن يحين وقت توجيهه إليه :

وأرى الليالي ماطوتْ من شِـرّتي	ردّتْه في عظتي وفي أفهـامي (٣)
وعلمْتُ أنّ المرء مِنْ سنن الرَّدَى	حيث الرميَّةُ من سهامِ الرامي

إنّ مع العُسْر يُسْراً

إذا اشتدّت الملمّات ، وتراكمتْ أثقال الهموم ، فما أجملَ أن يعلّـل المـرء نفسه بالآمال ، يرقبُها ، ألا وليعلم أنْ أوج الشدّة إنّما هو بداية الفرَج :

---

(١) حسور : انحسار . الصِّبا : الشباب .

(٢) زها : مقدار (مثل) مونق : نضير : أجل : موت . والبيتان من مجزوء المتقارب .

(٣) شِرّة : حِدّة .

عسى فرَجٌ يكون عسى نعلّلُ أنْفُسَـا بعسَـى

فلا تقنطْ إذا لاقيـتَ - همّاً يقبضُ النَّفَسَـا

فأقربُ ما يكونُ المـرءُ - مِنْ فرَجٍ إذا أيِسَـا

اليتيمة

القصيدة ((اليتيمة)) أو ((الدعديّة)) قصيدة مشهورة عند الذين يرتاحون للغزل والعشق والهوى ، وفيها شيء من الوصف الحسّي لجسم المرأة . وسبب تأليفها أنّ امرأة نجديّة بارعة الجمال اسمها دعد ، عزمتْ ألاّ تتزوّج إلا من فتىً يُرْضيها شعره ، فتقرّب إليها شعراء كثيرون ، فلم تُرضْها قصائدهم ، ونظم شاعر تهاميّ قصيدة وسار بها إليها ، فلقي في طريقه شاعراً آخر يقصدُ مقصِدَه ، فتناشدا قصيدتيهما ، وكانت قصيدة التهامي أبرعَ ، فقتله رفيقه ، وانتحل قصيدته ، وقدِم بها على الأميرة ، ولكنها أدركت من بعض القرائن في القصيدة نفسها أنّها ليست للذي أنشدَها بين يديها ، واعترف الشاعر بجريمته ، فأمرتْ بقتله .

واختلفوا في قائل القصيدة اليتيمة ، فقيل : هو جاهلي ، أو أموي ، وقيل هو عباسي . ونسبتْ إلى دَوْقلة المنبجي ، وإلى أبي الشّيص الخزاعي (اسمه محمد بن عبد الله بن رزين) ، وإلى كثيرين بلغ تعدادُهم الأربعين . ومن جُمْلة من نُسِبَتْ إليهم العكوّك علي بن جبلة . ومطلعها :

هل بالطّلول لسائل ردٌّ أم هل لها بتكلّمٍ عَهدُ (١)

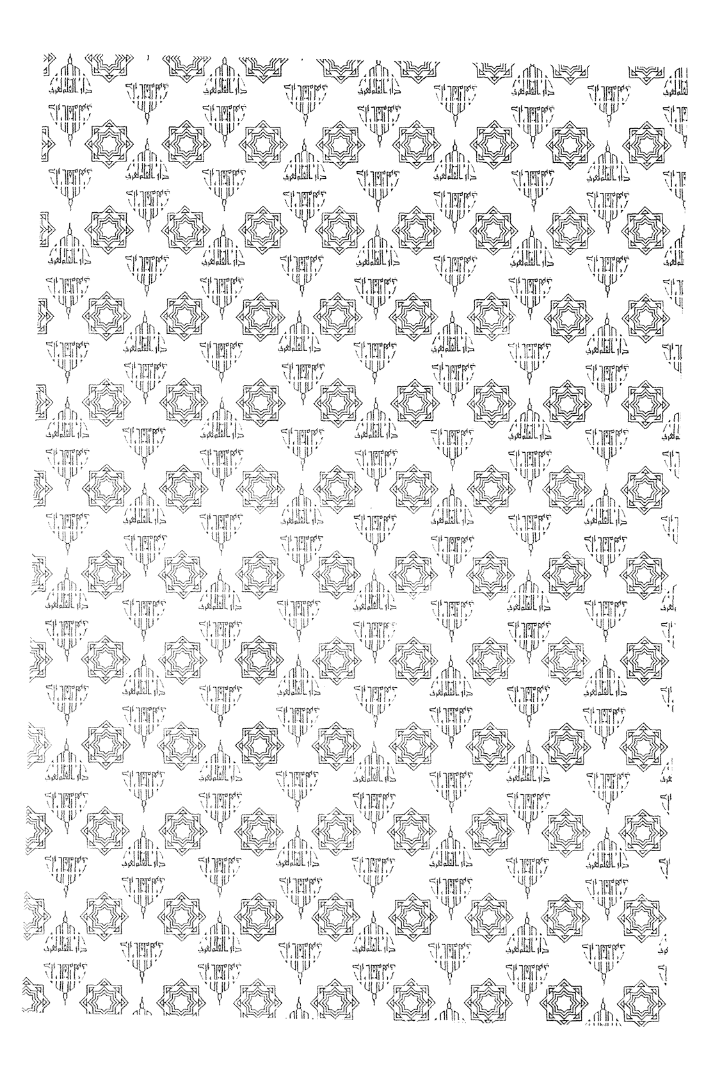
خاتمة

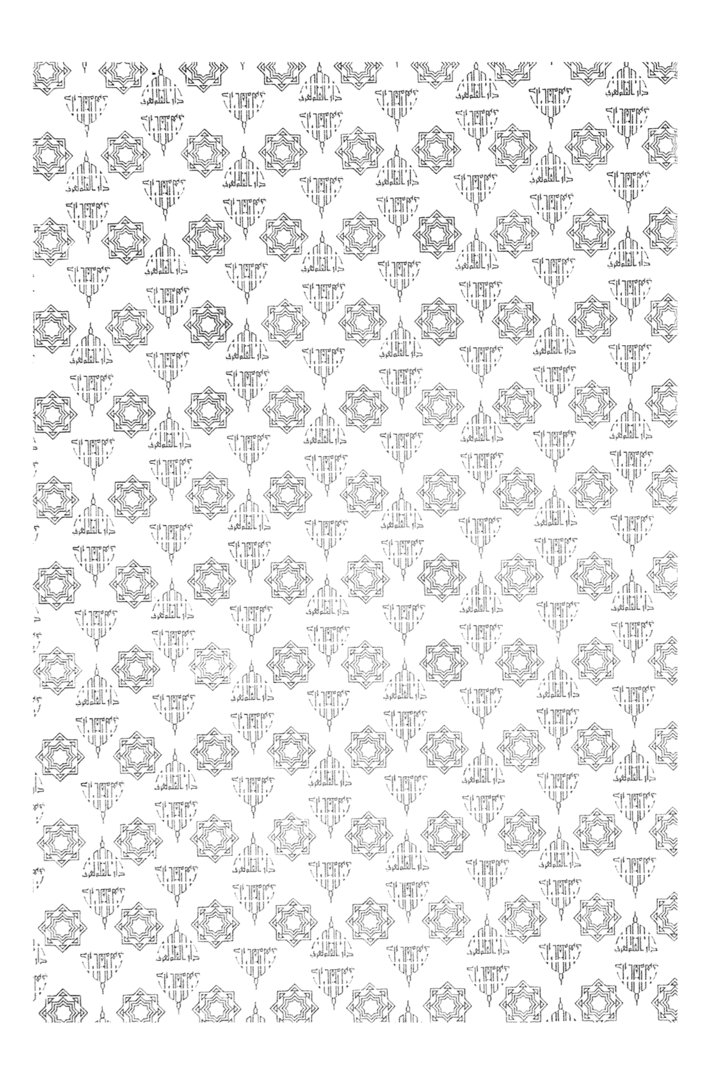
مع أن العكوّك ليس مشهوراً في أوساط المثقّفين اليوم بأنه من كبار الشعراء العباسيين ، فإنه كان منهم ، وكان من أصحاب التجديد في المبنى والمعنى ، وطرق عدّة أبواب شعريّة .

---

(١) إن الطّلول لاتردّ على سائل ، وهل سبقَ أن تكلّمتْ حتى تردّ عليّ الآن ؟









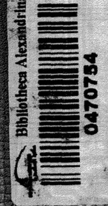
شعراء العصر العباسي الأول

لم تكد تخلو قبيلة عربية من شاعر ينافح عنها، ويذود عن حماها ويفخر بمناقبها، حتى غدا الشعر ديوان العرب.

وها نحن - عزيزي القارىء - نفتح صفحة من صفحات هذا الديوان لنطل على شعراء عاصروا الحياة العربية المزدهرة، في ظل الخلافة العباسية، التي حملت مشعل الحضارة، لتبدد دياجير الجهل والخرافة. فلا غرو أن نجد لدى هؤلاء شيئاً جديداً لم نألفه لدى من سبقهم.

فاحرص - أخي القارىء - على اقتناء هذه المجموعة الجديدة من سلسلة تاريخ شعراء العربية، لتكون زاداً لك في معرفة ما جادت به قرائح هؤلاء الشعراء على اختلاف مشاربهم.

الناشر



دار القلم العربي